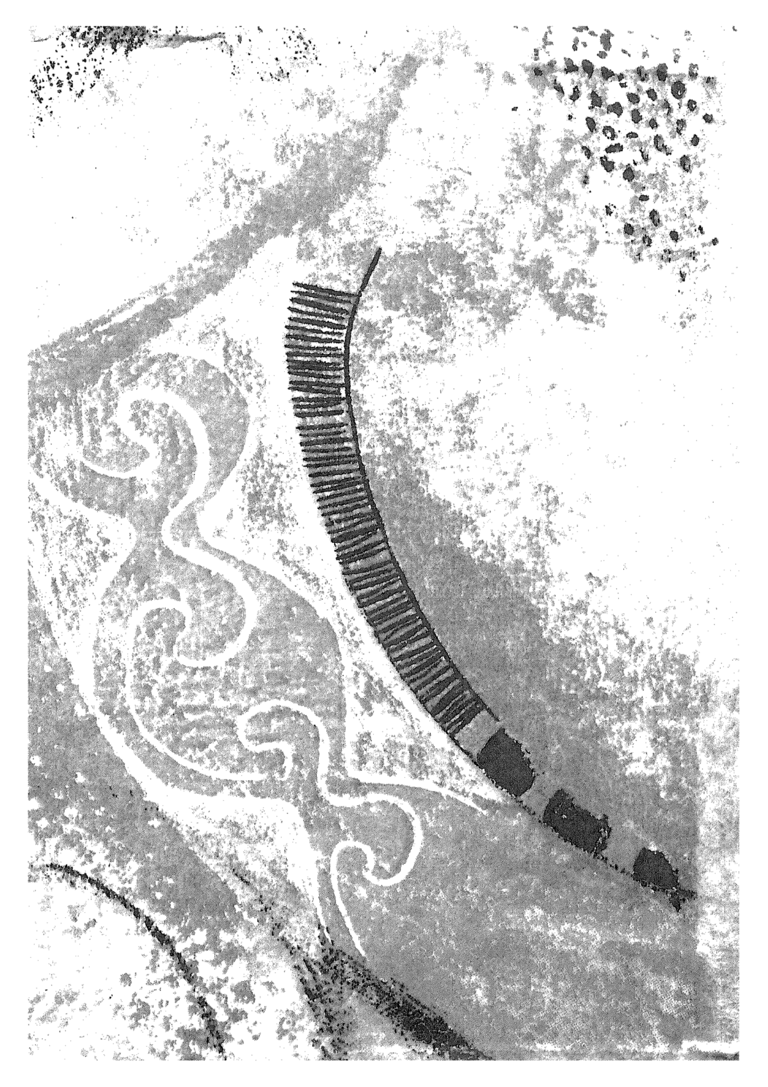

Bibliotheca Alexandrina
0015885





لجنة التأليف والترجمة والنشر

رفاعة رافع الطهطاوي

في السودان

بقلم

د. أحمد أحمد سيد أحمد

الطبعة الأولى

١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لعبت مصر المملوكية دورها بجدارة فى ردّ غارات الصليبيين ومن بعدهم التتار عن الشرق الأدنى ، وبذلت فى ذلك كل غالٍ وثمين ، وقد ترك الجهد المضنى الذى بذل فى هذا السبيل مع أسباب أخرى أثره واضحاً فى عصر المماليك الثانى (١٣٨٢ – ١٥١٧ م) ، فتأخرت البلاد فيه – وخاصة فى السنوات الأخيرة منه – عن العصر السابق له ، عصر المماليك الأول (١٢٥٠ – ١٣٨١ م) . ولم يكد القرن الخامس عشر يوشك على الانتهاء حتى كان الإعياء قد أخذ من البلاد كل مأخذ ، فلم تستطع أن تقف أمام جيوش العثمانيين وخرّت صريعة تحت أقدامهم . ومن العجب أن يعج هذا القرن مع ذلك بمجموعة ضخمة من العلماء والمؤرخين والكتاب ، وأعداد كبيرة من التآليف . وكأنما البلاد بذلك تحاول أن تجمع قواها لاسترداد عافيتها ، أو تلتقط أنفاسها قبل أن يحلّ بها عصر طويل من الركود ، ولكن العصر كان غير العصر والزمن غــير الزمن فكبت وطالت الكبوة .

ففى القرن الخامس عشر ظهرت أسماء لامعة لها أعمالها الكبيرة ، مثل المقريزى وأبو المحاسن وابن إياس والسخاوى والسيوطى وغيرهم كثيرون . وفى الغالب كان هؤلاء جميعاً ممن شغلوا – أو طلبوا – وظائف كبيرة فى الدولة المملوكية ، وممن جمعوا إلى ذلك بين فنّ الكتابة فى التاريخ والدراسات والتآليف المتنوعة ، كما كانوا جميعاً يمارسون نظم الشعر فى مناسبات شتى .

على أن السيوطى بز المعاصرين والمتقدمين جميعاً بممارسة الأدب النثرى كذلك ، كما كانوا شديدى الخصومة والتحاسد ويستشف القارئ ذلك فى كتبهم فى غير عناء ، وكانوا يقولون فى مقدمات كتبهم إنهم إنما يؤلفون لأنفسهم خاصة أو نزولا على رغبة صديق لا يريدون من ذلك جزاءاً أو استجلاب الرضا عند أمير ؛ وكانت الأغلبية العظمى من كتب المؤرخين منهم ليست سوى ذيول وتكملات لكتب سبقتها زمنياً ، وكان اتجاه بعضهم — كالمقريزى والسيوطى — إلى تآليف الكتب الصغيرة فى موضوعات معينة فضلا عن جانب انشغالهم بالكتب الكبيرة — وهذه ظاهرة غير متساوية الانطباق على كل منهم ، واتجاه بعضهم الآخر — كأبى المحاسن والسخاوى — إلى اختصار المؤلفات المنسوبة لأسلافهم أو لأنفسهم(1) .

فقدت مصر استقلالها بعد الفتح العثمانى ، وأصاب الجمود جميع نواحى الحياة فيها طوال هذا العهد ، وأهملت مرافق البلاد إهمالا شائناً توضحه كتابات الرحالة الأوربيين الذين وفدوا على مصر والشام وسائر البلاد العثمانية فى القرن الثامن عشر ، أمثال : سافارى وفولنى وغيرهما . وأول أسباب هذا الخمود ذلك الجمود الذى أصاب العثمانيين وحال بينهم وبين الاتصال بالحضارات الأجنبية عموماً والأخذ بالحضارة الأوربية على وجه الخصوص ، ومن ذلك أنهم فى صراعهم مع البرتغاليين لم يأخذوا بالمبادرة بملاقاة دخولهم إلى المحيط الهندى إلا بعد فوات الوقت ، وكان ذلك فى صورة غير مدروسة شملت عملية إعداد السفن فى السويس بما لا يتناسب مع ظروف القتال فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ؛ وقد دفعت مصر الثمن غالياً ، حيث تضاءلت تجارتها بسبب دخول البرتغاليين إلى المحيط الهندى وسيطرتهم على تجارته ونقلها إلى أوربا عن طريق المحيط الأطلسى .

---

(1) الدكتور محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القرن التاسع الهجرى) ص ٨١ — ٩٢ .

وقد نتجت عن ذلك موجة من التأخر الشديد . ويصور لنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتي مدى ما وصلت إليه الحالة العلمية في مصر في القرن الثامن عشر من تأخر ، فذكر ما وقع بين أحمد باشا الوالي التركي على مصر (١١٦٢ – ١١٦٣ هـ = ١٧٤٩ – ١٧٥٠ م) وبين بعض علماء الأزهر وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع ، وكان هذا الوالي في شوق إلى المجيء إلى مصر لمطالعة علمهم ؛ إذ كان من أرباب الفضائل وله معرفة بالعلوم الرياضية ، وقد تمّ اللقاء بينهم ، وباحثهم وناقشهم ، فانكشف الغطاء عن تخلف علماء الأزهر عن مسايرة تطور العلوم واقتصارهم على علوم الأزهر المعروفة في ذلك الحين .

ويؤكد ما سبق ومصدق له ما رواه الشيخ محمد عبده عن تتلمذه لجمال الدين الأفغاني ، بعد ذلك اللقاء بين الوالي التركي ومشايخ الأزهر بقرن وربع قرن من الزمان : « وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ ، وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية ، وأدعوا الناس إلى التلقي عنه كذلك . وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقوّلون عليه وعلينا الأقاويل ، ويزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي إلى زعزعة العقائد الصميمة ، وقد يهوى بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والآخرة . . . »[1] .

ودامت هذه الحال حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، وحان الوقت لفتح الأبواب والنوافذ على الخارج بعد أن كانت مغلقة أشد إغلاق . فمع أن هذه الحملة قد فشلت عسكرياً إلا أنه كانت لها في مصر آثار كبيرة الأهمية ؛ فقد بهرت علوم الفرنسيين بعض العلماء ممن اتصلوا بعلماء الحملة وزاروا معاملهم ومطبعتهم ومكتبتهم ، وهزتهم هزة عنيفة أثرت في فن

---

(١) السيد محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده جـ ١ ص ٢٥ .

كل منهم ، فبعد أن كانت العلوم الدينية واللغوية هى كل ما كانت تدور حوله الدراسات فى الأزهر أصبح من بين علماء الأزهر من يعنى بالدراسات الأدبية ويكوّن له فى هذا الميدان مدرسة جديدة ، بل إن كتابات الجبرتى نفسه فى تاريخه أصبحت بعد الحملة أدقّ وأكثر نقداً لسير الحوادث ورجالها مما كانت عليه قبل الحملة(1) .

وبعد خروج الفرنسيين من مصر ومجىء محمد علىّ ، بدأت سياسة الإصلاح القائمة على الاقتباس من نظم الغرب والنقل من علومه ، فبدأت الدولة بإنشاء المدارس الجديدة على النظام الأوربى وفى إرسال البعوث إلى أوربا وفى استخدام الأجانب — وبخاصة الفرنسيين — فى كل الإدارات التى تتطلب خبرة أو فنّا ، وكان هدف محمد علىّ من ذلك تكوين جهاز من الموظفين والخبراء يقوم عليه صرح دولته .

مركز علماء الأزهر فى ذلك الوقت :

وعلى الرغم من الأوضاع التى مر بها علماء الأزهر فقد كانوا هم الطبقة التى تصدت للعلم ولشدائد الأمور فى البلاد ؛ فكانوا يقومون عند الولاة بالدفاع عن مصالح الشعب ، ويحتجون عليهم حين يجنح بهم الظلم ، أو يقسو الجند فى معاملة الأهالى ، ويقفون بين الولاة والشعب حتى ينالوا لهم مطالبهم . ومن ذلك ما ظهر فى الحركة الشعبية التى قامت بالقاهرة فى منتصف سنة ١٧٩٥ ضد الأميرين المملوكيين إبراهيم بك ومراد بك ، عندما أسرفا فى فرض الضرائب على سكان إحدى قرى مديرية الشرقية فى ذلك الوقت . وكانت هذه الحركة تنادى بضرورة وضع حد للمظالم ، وقد نزل زعماء المماليك بعد اجتماع تم بينهم وبين زعماء الشعب من العلماء ومشايخ الأزهر وغيرهم على

---

(1) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٢٤ .

مطالب الشعب ، وقرروا فى النهاية « أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم »[1] .

وبعد هزيمة مراد بك أمام الفرنسيين فى معركة إمبابه عبر النيل بعض علماء الأزهر إلى الجيزة حيث يقيم نابليون ، واتفقوا معه على شروط الصلح . وبعد دخول نابليون القاهرة بيوم واحد ، وفى ٢٥ يوليو سنة ١٧٩٨ ، صدر قرار بتشكيل ديوان وطنى لمدينة القاهرة ، كان أعضاؤه التسعة كلهم من المشايخ . وعندما تولى محمد علىّ حكم مصر كان فى ذلك مديناً للزعامة الشعبية التى كوّن العلماء والمشايخ ناصيتها ، وقام السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وألبساه الكرك والقفطان ، وهما من شارات الحكم وعلامات تولى السلطة فى ذلك الوقت . ومحمد علىّ مدين كذلك للزعامة الشعبية بالتغلب على الأخطار التى واجهته فى مستهل حكمه .

جنوح بعض كبار العلماء عن الطريق القويم :

ولكن إذا كان المشايخ العلماء هم درع الشعب عند الحكام كما رأينا ، إلا أن الكثيرين منهم لم يكن ينسون أنفسهم ومصالحهم فى كثير من الأحيان وهم وقوف بين أيدى هؤلاء الحكام نواباً عن الشعب ، كما كان بين بعضهم البعض الكثير من التحاسد .

فإذا كان الفرنسيون قد جعلوا الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيساً للديوان والشيخ محمد المهدى أمين سره — وهما من مشايخ الأزهر — فإن هناك من يشير إلى أن احتلالهما لهذه المنزلة إنما لأنهما كانا من صنف المشايخ الذى كان أولى به الزهد فى الدنيا وزخارفها من أن يكون شرهاً فى حبّ المال

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٢ ص ٢٥٨ .

والتعلق بمظاهر الحياة الفانية[1] . قال الجبرتى عن الشيخ الشرقاوى ، فى وفيات سنة ١٢٢٧ هـ : « فلما حضرت الفرنساوية جعلوا المترجم رئيس الديوان ، فانتفع فى أيامهم بما يتحصل إليه من المعلوم والمرتب له عن ذلك ، وقضايا وشفاعات ببعض الأجناد المصرية ، وجعالات واستيلاء على تركات وودائع خرجت أربابها فى زمن الفرنسيس وهلكوا ، واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها وكبر عمامته . وزوجته بنت الزعفرانى هى التى تدبر أمره ، وتحرز كل ما يأتيه ويجمعه ، ولا يروح ولا يغدو إلا عن مشورتها ، واشترت العقارات والحمامات والحوانيت » . وكما رحب الشيخ الشرقاوى بنابليون فى مصر ، وكان يلقبه « بسلطاننا بونابرته أمير الجيوش ذى العدل والإحسان والإصلاح والخير للرعية والملة المحمدية » نجده يرحب بالوزير يوسف باشا الذى وصل إلى مصر بعد توقيع الصلح مع الفرنسيين ويلقبه « بالصدر الأعظم والوزير الأفخم والدستور الأكرم بلغه الله من المرادات ما شاء » . ومن الجدير بالذكر أن الشيخين الشرقاوى والمهدى كانا يختصان بتوقيع منشورات نابليون وبلاغاته للمصريين ، كما أن الشرقاوى كان أول من استقبل الأتراك عند رجوعهم إلى مصر ، وألف كتيباً بناء على طلبهم سماه « تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين » .

أما عن الشيخ محمد المهدى فقد قال فيه الجبرتى ، فى وفيات سنة ١٢٣٠ هـ ، إنه كان هو المشار إليه فى دولة الفرنسيين مدة إقامتهم فى مصر ، والواسطة بينهم وبين الناس فى قضاياهم وحوائجهم ، وأوامره نافذة عند ولاة أعمالهم ، وراج أمره فى أيامهم وزاد إيراده وجمعه ، وأقاموه وكيلاً عنهم فى أشياء كثيرة وبلاد وقرى يجبى خراجها إليهم ، ويأتيه الفلاحون بالهدايا فيفعل بهم ما كان يفعله أرباب الالتزامات من

---

(١) أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث ، أو نابليون بونابارت فى مصر ، ص ٢٩٦ — ٣٠٠ .

الحبس والضرب وأخذ المصالح ، وصار له أعوان وخدم وتبع من وجهاء الناس . ومن بين ما قاله الجبرتى عنه : إنه اشترى داراً كبيرة بناحية الموسكى ، وكانت لبعض عتقى بقايا الأمراء الأقدمين ، ولم يدفع من ثمنها إلا العربون ، وكتب الحجة وسكنها ، وماطل فى دفع ثمنها كعادته فى دفع الحقوق ، وغاب خمس سنوات متنقلا فى البلاد حتى مات فى غيبته بعض أصحاب الدار . وكان كلما وجد امرأة من نساء البكوات المماليك ذات يسار وبغير زوج يقترن بها ويسقط مالها ونوالها فى بئر عميق . وترك المال الكثير والعقارات الواسعة والأطيان الشاسعة لأولاده وأولاد أولاده .

ومما يعطينا فكرة واضحة عن مصانعة المشايخ العلماء لنابليون ، ومما يدل على الغفلة وعلى التهاون فى المحافظة على كرامة العلم والعلماء ، وعلى الابتعاد كل البعد عن الغيرة على الإسلام ، نزولهم عند الرأى القائل باعتناق نابليون لدين الإسلام ، بل والدعاية له ، « . . . . وأنه (أى نابليون) يحب دين الإسلام ، ويعظم النبى عليه السلام ، ويحترم القرآن ، ويقرأ فيه بإتقان . . . . وعرفنا أن مراده (أن) يبنى مسجداً عظيماً بمصر لا نظير له فى الأقطار ، وأنه يدخل فى دين النبى المختار ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام »[1] . وهذا هو بعض ما تضمنه منشور المشايخ الصادر بعد عودة نابليون من حملته على سورية .

وفى صبيحة وصول السيد عمر مكرم من غزة إلى القاهرة ، وكان قد ارتحل إلى غزة عند دخول نابليون القاهرة ، ذهب إلى نابليون وصحبه فى هذه المقابلة الشيخ محمد المهدى أمين سر الديوان . ويرى بعض الباحثين بحق أن هذه المصاحبة لم تأت عفواً ، بل إن عمر مكرم لم يذهب إلى

---

(١) أحمد حافظ عوض : المصدر السابق ص ٣٣٢ .

وانظر فى نفس المصدر : بحث فى رواية إسلام نابليون ص ٤١٩ — ٤٢٦ .

بونابرت من تلقاء نفسه ، بل دُعى إلى المقابلة عن قصد وأنها كانت تدبيراً مبيتاً بين الفرنسيين وبين الشيخ المهدى ، لأن ماضى الشيخ يدل على أنه كان أكثر العلماء تقرباً للفرنسيين وصاحب حظوة كبيرة لديهم[1] ، وقد ردّ نابليون إلى عمر مكرم بعض أمواله التى سبق أن صادرها ، ولكنه لم يعينه عضواً بالديوان ولم يعده إلى منصب نقيب الأشراف الذى كان له ولا إلى الأوقاف التى كان يتولى نظارتها .

وفى ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) ، التى برز فيها اسم السيد عمر مكرم منذ اليوم الأول وشاركته فى زعامتها أخلاط من الشعب من بينهم بعض العلماء ومشايخ الأزهر ، تكوّن وفد من المشايخ العلماء للتوسط فى تهدئة الموقف ، وكان من بين أعضائه المشايخ : الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى . وقد ارتضى الوفد شروط صلح مهينة لم يقبلها الجانب المصرى ؛ إذ لمّا عرض الوفد على زعماء الثورة شروط الفرنسيين أنكروا عليه قبول الوساطة على ضوئها ، « وقاموا (الانكشارية والناس) عليهم وسبوهم وشتموهم ، وضربوا الشرقاوى والسرسى ، ورموا عمائمهم ، وأسمعوهم قبيح الكلام ، وصاروا يقولون : هؤلاء المشايخ ارتدّوا وعملوا فرنسيس ، ومرادهم خذلان المسلمين ، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيين »[2] .

محمد على والزعامة الشعبية :

وقد عمل محمد علىّ على التخلص من الزعامة الشعبية بعد وصوله إلى الحكم فى سنة ١٨٠٥ . ومن بين العوامل التى ساعدته فى بلوغ أربه التدهور

---

(١) الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى : عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ص ٥٨ .
محمد فريد أبو حديد : سيرة السيد عمر مكرم ص ٦٥ .

(٢) الجبرتى : ج ٣ ص ٩٩ .

الذى أصاب معظم المشايخ والعلماء ؛ فقد تجرد معظمهم من صفات الورع والتقوى ، وانصرفوا عن أمور الدين إلى الدنيا ، وهجروا مدارسة العلم ، وتنافسوا على السلطان والتنظر على الأوقاف ، وأصبح اهتمامهم بنيل العطايا من الجماهير فى مقابل التوسط بينها وبين السلطات الحاكمة . ويعطى الجبرتى فى ذلك الوقت صورة قاتمة للتدهور الذى طرأ على حياة الزعماء المشايخ علماء الأزهر والانحراف الخلقى الذى انحدروا إليه .

وفى مقدمة العوامل التى ساعدت محمد علىّ على التخلص من الزعامة الشعبية هذا الانقسام الذى دب بين كبار المشايخ على منصب ناظر الجامع الأزهر ، وهو غير منصب شيخ الأزهر . وقد جرت العادة على عهد العثمانيين أن يكون هذا المنصب – لضخامة ما يدره من إيراد – من نصيب أحد الأمراء المماليك ، فلما ذهب المماليك بمجىء الفرنسيين أُلحق هذا المنصب بمشيخة الأزهر ، وأصبح حتماً لشيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوى ، ولم يُرضِ هذا بعض المشايخ ، فلما كانت سنة ١٨٠٥ تطلع الشيخ محمد الأمير إلى انتزاعه منه ، وانقسمت هيئة الأزهر إلى فريقين يناصر كل فريق شيخه ، وفشلت وساطة قاضى القضاة العثمانى وغيره فى تنقية الجوّ بين قادة الإصلاح والعلم فى البلاد .

ومن العوامل الحاسمة فى نجاح محمد علىّ فى إقصاء الزعامة الشعبية من الميدان السياسى ، هذا الحقد الدفين الذى كان يملأ صدور المشايخ على السيد عمر مكرم بسبب التفاف الشعب حوله ، وارتفاعه إلى مركز الصدارة بين زعمائه . ومن بين أكبر هؤلاء الحاقدين من مشايخ الأزهر الشيخ محمد المهدى والشيخ محمد الدواخلى . فقد كان الشيخ المهدى من أكبر الساعين على السيد عمر كشأنه على عهد الفرنسيين ، وكان ممن أوقعوا النفور بين الباشا وبينه ، ونال بذلك أغراضه ، ومُنح النظر على أوقاف كان السيد عمر يحصل منها على أموال جمة ، وأكثر الشيخ المهدى التردد على الباشا وأكابر دولته مثلما

كان يفعل فى زمن الفرنسيين ، وعيّن شيخاً للجامع الأزهر أياماً قلائل ؛ وفى صبيحة اليوم الذى ارتحل فيه عمر مكرم إلى منفاه بدمياط ، ذهب هذا الشيخ فى غير استحياء إلى محمد علىّ والتمس منه المكافأة على تدبير المؤامرة ، ولم يكتف الشيخ بالتنظّر على الأوقاف التى كانت تحت يد عمر مكرم والتى أنعم بها عليه محمد على بل طلب مكافأة مالية معجّلة[1] ؛ أما الشيخ الدواخلى فقد تقرّب إلى محمد علىّ ، ومارس فى ظلال هذه الحظوة نفوذاً استغله فى التآمر سراً على عمر مكرم مع الشيخ المهدى ، ولما مات الشيخ محمد السادات نقيب الأشراف فى ذلك الوقت كانت نقابة الأشراف من نصيب الشيخ الدواخلى ؛

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد اتخذ محمد على من المشايخ النفعيين أدوات مسخرة له ، فقد أمرهم بكتابة عريضة ترسل إلى الباب العالى يبرر فيها ما صنع بعمر مكرم ، وجاءت المذكرة حافلة بالاتهامات الباطلة التى قلبت جهاد عمر مكرم الوطنى رأساً على عقب ، ويكفى أنهم اتهموه بالخيانة ، إذ سهّل للإنجليز احتلال مدينة الإسكندرية أثناء حملة فريزر فى سنة ١٨٠٧ مع أنه هو الذى تصدىّ لتنظيم المقاومة الشعبية ؛ وإذا كان شيخاً واحداً ، هو الشيخ السيد أحمد الطحطاوى مفتى الحنفية ، قد رفض التوقيع على العريضة تمسكاً بمبادئ الأخلاق ، فإنه قد نال جزاءه من المشايخ ومحمد علىّ إذ لم يمض أسبوعان على ذلك الأمر حتى كان قد تم عزله من الإفتاء .

وبعد ذلك ، وبعد أن تخلص محمد على من السيد عمر مكرم ، أخذ يعبث بكرامة المشايخ ، فقد كان — وقد عرف نفوسهم على حقيقتها — لا يحترمهم ، وكان لكل منهم دوره معه ؛ وكان ابنه إبراهيم أيضاً يمتهن

---

(١) الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى : المصدر السابق ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

كرامتهم ، فقد ذهب إليه المشايخ فى ديسمبر سنة ١٨١٩ يهنئونه بسلامة العودة من الحجاز بعد انتهاء الحرب الوهابية ، ولكنه لم يقم لهم عندما أدخلوا عليه فى ديوانه ، ولم يجبهم عندما هنأوه بالسلامة ، وانشغل عنهم تماماً بالحديث مع شخص كان عنده ، وأخيراً قاموا منصرفين يحيط بهم الخزى والعار من كل جانب .

* * *

وهكذا يتضح أن العصر الذى عاش فيه رفاعة رافع الطهطاوى فى مطلع حياته ؛ إذ كان ميلاده فى سنة ١٨٠١ ، كان عصراً معظم العلماء فيه فارغون من العلم منصرفون عنه إلى الدنيا والسلطان والجاه ، عصراً لا تعرف فيه السلطة للعلماء احتراماً ، كما كان عصر سيطرة الترك وتأصل الهيبة التركية ونفوذها فى نفوس القوم[1] . هذا إلى المطامع الاستعمارية فى بلاد الشرق ؛ فمنذ أن أخفقت إنجلترا فى حملة سنة ١٨٠٧ على مصر أخذت تترقب الفرصة لتعيد الكرة ، ومن أجل ذلك قام التنافس عليها بينها وبين فرنسا ، حتى تمكنت الأخيرة فى سنة ١٨٥٤ من نيل امتياز حفر قناة السويس ، وقبل ذلك كان احتلالها للجزائر فى سنة ١٨٣٠ ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه إنجلترا تعمل على بسط نفوذها فى جنوب شبه الجزيرة العربية فاحتلت عدن سنة ١٨٣٩ ، ولم ينتصف القرن التاسع عشر حتى كان نفوذها قد امتد إلى الكثير من جهات شبه الجزيرة العربية .

وهكذا كان الاستبداد الداخلى ، والتأخر والجمود الفكرى ، والغفلة الشاملة ، والاستعمار الخارجى — كان كل ذلك يحكى حال الشرق عندما ظهر إلى الوجود رفاعة الطهطاوى وشب على الأرض الطيبة .

فى هذا الجو نشأ رفاعة وقُدِّر له أن يعمل ، فماذا كان من أمره ، وهذه الحدود تحيط به من كل جانب ؟ ، وكيف كان طريقه وسطها ؟

(١) راجع : مسألة القضاء الشرعى .
فى : أحمد حافظ عوض — المصدر السابق ص ٣٦٢ — ٣٦٨ .

رفاعة رافع الطهطاوى فى مصر وفرنسا

رفاعة الأزهرى :

ولد رفاعة الطهطاوى فى طهطا بمديرية سوهاج سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١م) ، ويرجع بنسبه إلى سيدنا الحسين بن على رضى الله عنه ، ويتصل نسب أمه بالأنصار . وعند ولادته كانت العائلة تشكو عسراً ، فسار به والده إلى (منشاة النيدة) بالقرب من مدينة جرجا وأقاما هناك زمناً ، ثم انتقلا إلى قنا ثم إلى فرشوط ، وفى خلال ذلك كان رفاعة يحفظ القرآن ، حتى إذا عاد إلى طهطا كان قد أتم حفظه ، وهناك أخذ يتلقى مبادئ العلوم الفقهية على أخواله وهم بيت علم .

وفى سنة ١٢٣٢ هـ (١٨١٧ م) ، وبعد وفاة والده ، جاء رفاعة إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، ونزل عند خاله الشيخ فراج الأنصارى الذى كان يتولى التدريس بالأزهر ، وقد حضر عليه شرح الرملى فى مذهب الإمام الشافعى . ومكث رفاعة بالأزهر نحو خمس سنوات طالباً مثابراً مخلصاً مجداً فى المطالعة والدرس ، وكان يستعين على معاشه بإعطاء بعض الدروس الخصوصية . وقد اشتهر أمره فى أثناء تلمذته « حتى قيل إن كثيراً من الطلبة فى زمن حضورهم معه كانوا يرجعون إليه فى حل الغوامض ، وكان أشياخه يثقون بفهمه ، ويركنون إليه لجودة قريحته وسلامة ذوقه » . وكان يتردد فى أثناء ذلك بين حين وآخر على بلدته طهطا ، ويلقى بعض الدروس بجامع جده أبى القاسم ، فامتازت دروسه بجاذبية كانت تحببه إلى المستمعين وترغبهم فى الاستزادة من علمه .

وعندما بلغ رفاعة الحادية والعشرين من عمره كان قد انتهى من دراسته

بالأزهر ، ولم يلبث أن اجتاز امتحاناً صعباً عندما تصدى للتدريس به ، فلم يكن للأزهر فى ذلك الوقت من نظام لتعيين أساتذته غير حكم الطلاب على الأستاذ ، فإن استفادوا منه تكاثر جمعهم واتسعت حلقته وإن ظهر عجزه انفضوا من حوله ، وقد اجتاز رفاعة هذا الاختبار بنجاح كان أكبر من سِنّه بكثير ، وأقبل عليه الطلاب وهو لم يزل فى بدء حياته العلمية . قال صالح مجدى بك[1] فى تدريسه « وكان رحمه الله حسن الإلقاء ، بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخذ عنه ، وقد اشتغل فى الجامع الأزهر بتدريس كتب شتى فى الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك ، وكان درسه غاصاً بالجمع الغفير من الطلبة ، وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع فى جميع ما أخذه عنه ، لما علمت من أنه كان حسن الأسلوب سهل التعبير ، مدققاً ، محققاً ، قادراً على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة ، بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ، ولا كد ولا نصب » .

رفاعة وأستاذه الشيخ حسن العطار :

ومن أثر فى حياة رفاعة وتوجيهه العلمى أستاذه بالأزهر الشيخ حسن العطار ، فقد أحبّه هذا الشيخ وقربه إليه ، وكان رفاعة يتردد عليه كثيراً فى منزله . ومن حسن حظ رفاعة أن تتلمذ على هذا الشيخ الذى كان يسبق عصره ، فقد كان علماً بين مشايخ الأزهر فى ذلك الوقت ، امتاز بالتضلع فى الأدب وفنونه والتقدم فى العلوم العصرية ، وكان هذا نادراً بين علماء الأزهر ، وأقبل على كتب التاريخ والجغرافيا والأدب والرياضة والطب وغيرها مما لم يكن يدرس بالأزهر فى ذلك الوقت ، وشجع نفراً من تلاميذه الممتازين على قراءة هذه الكتب ورغّبهم فى هذه العلوم الجديدة

---

(١) حلية الزمن بمناقب خادم الوطن سعادت المرحوم رفاعة بك .

فأقبلوا عليها ، وكان رفاعة من بينهم . وفى ذلك يقول رفاعة[١] : « وكان للمرحوم مشاركة فى كثير من هذه العلوم حتى فى العلوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسمعيل أبى الفدا سلطان حماة المشهور أيضاً بالملك المؤيد ، وللشيخ المذكور هوامش أيضاً وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة ، وله بعض تآليف فى الطب وغيره زيادة عن تآليفه المشهورة » .

وعندما نزلت الحملة الفرنسية بمصر اتصل الشيخ حسن ببعض علمائها ، وعرف طريقه إلى دار المجمع وأخذ عن علمائه بعض علومهم ، وكان الشيخ حسن الظن ببلده ، يرجو له الرفعة والتقدم ويتوقع أن تصيبه نهضة علمية إذا هو أخذ سبيل أوربا فى العلم . وأخيراً ، إن ما وسَّع من أفق الشيخ أنه كان — كما يقول تلميذه رفاعه[٢] « مولعاً بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الأمصار » ، ومن أجل ذلك سافر براً وبحراً ، وساح فى الأرض ، وزار الشام وأقام فى استانبول سنوات ، فاستفاد من هذه الأسفار فوائد جمة .

رفاعة المبعوث إلى فرنسا :

بقى رفاعة عامين يلقى دروسه فى الأزهر ، كان أستاذه أثناءها يشمله برعايته وحسن توجيهه . وفى سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) رشحه أستاذه واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش الجديد الذى بناه محمد على ، ولا بد أن اتصال رفاعة بالحياة العسكرية قد فتح ذهنه لآفاق جديدة من الحياة

---

(١) مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ص ٣٧٥ — ٣٧٦ .

(٢) تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ص ٤ .

والتفكير ومزايا النظام . وفى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) أوفدت أول بعثة كبيرة إلى فرنسا[1] ، فاختاره أستاذه إماماً لها بعد أن طُلب إليه أن ينتخب من بين علماء الأزهر إماماً للبعثة يرى فيه الأهلية واللياقة ، وتقرر له مرتب (يوزباشى) ، وكانت الرتب العسكرية سارية فى السلك المدنى ؟ وبالرحلة إلى فرنسا بدأ رفاعة طوراً جديداً من حياته ، فلولاها لمضت به الحياة كما مضت بغيره من علماء الأزهر ، ولولا جدّه ومثابرته لكان شأنه شأن الأئمة الثلاثة الآخرين الذين صحبوه فى البعثة فلم يتجاوز أحدهم حدود وظيفته . ومهما يكن الأمر فقد اعتُبر رفاعة دارساً بالبعثة وهو فى باريس ، بعد أن نصح مسيو جومار رئيس البعثة بضمه إليها بعد أن تأكد من استعداده وموهبته .

عندما ذهب رفاعة يودع أستاذه دعاه إلى العناية منذ اللحظة الأولى بتسجيل مشاهداته أثناء الرحلة « ليكون (ذلك) نافعاً فى كشف القناع عن محيا هذه البقاع التى يُقال فيها : إنها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلا يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار ، خصوصاً وأنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية — على حسب ظنى (أى ظن الشيخ العطار) — شىء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيس ، ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها » . وهذا ما بدأ فيه رفاعة فعلاً مُذ غادر الإسكندرية ، وكان نتاج قلمه رحلته (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) ؟

---

(١) هذه البعثة هى الثالثة فى ترتيب البعثات المصرية فى الواقع ، ولكنها كانت حتى وقتها أكبر البعثات من ناحية عدد المبعوثين . فقد أرسلت البعثة الأولى سنة ١٨١٣ إلى إيطاليا ولا يعرف عدد طلبتها ، كما لم يعرف من أشخاصهم سوى واحد فقط . وأرسلت البعثة الثانية سنة ١٨١٨ إلى فرنسا ، ولم يعرف من طلبتها غير واحد أيضاً . أما البعثة التى كان رفاعة أحد طلبتها فقد كان عدد الطلبة بها أول ما أرسلت اثنين وأربعين طالباً ثم لحق بهم غيرهم :
الأمير عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد ص ١٠ — ١٢ .

رفاعة بباريس :

فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل ١٨٢٦ أبحرت السفينة من الإسكندرية تحمل رفاعة وزملاءه إلى فرنسا ، وفى اليوم السادس عشر من شهر مايو وصلت السفينة إلى مرسيليا ، ومن مرسيليا انتقل أفراد البعثة إلى باريس . وقد أمضى رفاعة وكل زملائه نحو سنة مقيمين فى منزل واحد ومشتركين معاً فى دراسة مواد واحدة ، ثم تم توزيعهم بعد ذلك على مكاتب مع أولاد الفرنسيين أو عند معلمين خصوصيين ، وكانت أجازتهم فى أيام الآحاد وبعد ظهر أيام الخميس وفى الأعياد الفرنسية . وكان رفاعة أكثر الطلبة انهماكاً فى الدرس ، أكبّ على العلوم يغترف من مناهلها ، وكان يشترى من ماله الخاص كتباً جديدة غير الكتب التى تُشترى له على حساب البعثة ، بل لقد اتخذ لنفسه معلماً خاصاً على نفقته أكثر من سنة حتى أتم تعلمه اللغة الفرنسية فى ثلاث سنوات . ولقد أضعف السهر عينه اليسرى ، ونصحه الطبيب بالكف عن المطالعة ليلاً ، ولكنه لم ينفذ النصيحة « لخوف تعويق تقدمه[1] » .

كانت قراءات رفاعة فى باريس مع أساتذته وبمفرده فى مختلف العلوم ، وإن كان ميله أكثر إلى التاريخ والجغرافيا ؛ فكانت ثقافته موسوعية ؛ وقد عدّد رفاعة فى كتاب رحلته العلوم والفنون التى قرأ فيها ، وعين الكتب التى طالعها والتى ترجمها أو بدأ فى ترجمتها وهو فى باريس ، فنجده قد قرأ فى الفلسفة والآداب الفرنسية ، وقرأ مؤلفات ڤولتير ومونتسكيو وچان چاك روسو وراسين ، بل لقد تطاولت قراءاته إلى علم المعادن وفن العسكرية والرياضيات وغير ذلك كثير . ونجده قد ترجم وهو فى باريس نحو اثنتى

(١) تخليص الإبريز ص ١٧٢ .

عشرة رسالة ، معظمها رسالات صغيرة أو فصول من كتب كبيرة ، فى نواحٍ شتى من العلوم والفنون : فى التاريخ والجغرافيا والسياسة والأخلاق والفنون العسكرية والهندسة وعلم المعادن وعلم الصحة .

وقد أفاد رفاعة أكبر فائدة من أساتذته ، وممّن تعرف بهم وهو فى باريس ، وعلى رأسهم مدير البعثة العالم المسيو چومار الذى ساعده مساعدات جمة فى هذه البلاد ، وتعهده أيما تعهد بالتوجيه والإرشاد . كما اتصل رفاعة بالعالميْن المستشرقيْن البارون سلفستر دى ساسى وكوسان دى برسيفال .

قضى رفاعة سنة فى باريس عُقد بعدها له ولزملائه امتحان اجتازه رفاعة بتفوق . وبعد سنة أخرى كان هناك امتحان آخر اجتازه رفاعة كذلك ، بل لقد نال فى الامتحانيْن جائزة التفوق ، وكانت الجائزة فى الامتحان الأول كتاباً ثميناً ، وفى الامتحان الثانى كتابيْن للمستشرق دى ساسى . وبعد ثلاث سنوات أخرى عُقد لرفاعة الامتحان النهائى أمام لجنة كوّنها مدير البعثة لهذا الغرض « لمعرفة قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بها مدة مكثى فى فرنسا »(١) . فتقدم إلى الامتحان بخلاصة جهوده فى الترجمة ، وكانت تضم الاثنتىْ عشرة رسالة التى سبقت الإشارة إليها ، علاوة على مخطوطة الرحلة ، فقد كانت فيها أجزاء كثيرة مترجمة فى نواحى العلوم المختلفة ، وكذلك بعض الأشعار الفرنسية . كما لجأت اللجنة لاختباره شفويا إلى بعض الكتب العربية المطبوعة فى مطبعة بولاق وكذلك نسخة من جريدة (الوقائع المصرية) ، وطلبت منه نقل بعض الفقرات بها إلى الفرنسية . وقد وُفّق رفاعة فى الامتحان ، وإن كانت اللجنة قد أخذت عليه أنه « ربما أحوجه اصطلاح اللغة العربية أن يضع مجازاً بدل مجاز آخر ، من غير خلل فى المعنى المراد » ،

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٩٢ .

وأنه ليست هناك مطابقة تامة فى بعض الأحيان بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما كرر ، وربما ترجم الجملة بجمل والكلمة بجملة[1] .

تخليص الإبريز فى تلخيص باريز :

رجع رفاعة من باريس ، وفى يده إجازة الترجمة ، وفى يده الأخرى ترجماته و (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس) الذى قصد به تعريف الناس بباريس وأحوال أهلها ، « وليبقى دليلا يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار » ، وليحقق رغبة أستاذه حسن العطار فى تقييد كل ما رآه وسمعه هناك . وكان المستشرقان العالمان البارون سلفستر دى ساسى وكوسان دى برسيڤال قد طالعا مخطوطة الرحلة ورفاعة لا يزال فى باريس فأعجبا بها ، وأرسل كل منهما إلى مدير البعثة خطاباً فيه الثناء والتقدير لرفاعة ومخطوطته ، وقد تضمن كتاب الرحلة بعض الرسائل التى تبودلت بينه وبينهما . ومما يذكر أن دى ساسى بعد مطالعة المخطوطة ردّ على ملاحظة أبداها رفاعة خاصة بأن الفرنسيين لا يعبئون بالدين ، كما أنه طلب من رفاعة إصلاح أخطاء اللغة والنحو فى المخطوطة .

وعندما طولعت مخطوطة الرحلة على محمد على حازت إعجابه ، وأمر بطبعها وقراءتها فى قصوره وتوزيعها على الدواوين والمواظبة على تلاوتها والانتفاع بها فى المدارس المصرية . وقد طبع الكتاب فى مطبعة بولاق سنة ١٨٣٤ ، ثم طبع مرة ثانية سنة ١٨٤٨ .

وصف رفاعة فى (تخليص الإبريز) هذه الفترة من حياته التى أمضاها فى باريس ، وسجل فيه مشاهداته إبان الرحلة : فوصف الحياة الاجتماعية

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٩٤ .

فى البلاد وصفاً شائقاً بديعاً ، فمدح فى الفرنسيين نظافة بيوتهم وتحدث عن التقاليد المتبعة فى الطعام والشراب والمنام ، وأعجب بفن التمثيل ومشاركة النساء فيه ، وحفلات الرقص والموسيقى ، ولم يفته أن يصف لنا (الكرنفال) ، وتحدث عن وسائل المواصلات والبريد والصحافة والمكتبات والمصارف ، كما رسم صوراً لعاصمة البلاد أوضح فيها الكثير من أحوالها .

ولكن لما كان رفاعة فى الواقع لم يـَر غير باريس ومارسيليا التى نزل بها عند أول وصوله إلى أرض فرنسا ؛ وذلك لضيق وقته الذى صرفه عن التجوال فى فرنسا ، فقد ظلت رؤياه قاصرة عن الإلمام بحياة الفرنسيين ، وظل هو نفسه على ما يُظن بعيداً عن الاندماج فى الحياة الباريسية . ومن هنا كانت نظرته بعيدة عن العمق ، ومشاهداته أقرب إلى التعميم منها إلى التخصيص ، فيصف ما يقع عليه بصره وما يصادفه من سلوك عام وكأنه يضع دليلا للسياحة ، مغفلا عن التحدث عن مشاعره وإحساساته إلا من خطرات عابرة يصل فيها بين ما يرى من تقدم فى باريس وبين ما تعانيه بلاد الإسلام من تخلف يعتذر عنه بسبق المسلمين فى ميدان الحضارة ، فإذا عرض لمصر أشاد بفضل الوالى . وتكتمل صورة الكتاب بما يحوى من قراءات ومعارف أدركها رفاعة فى الأزهر فيستشهد بأحداث التاريخ الإسلامى ومأثور الشعر السائد فى عصره ، وقراءات ومعارف قرأها واطلع عليها فى باريس ، فيستعرض ما عرفه من تاريخ الأمم الأوربية وعاداتها ونظم الحكم الفرنسى يزيدها إيضاحاً بما يترجمه منها . وبالجملة لا يفوت رفاعة فى سائر فصول الكتاب أن يتناول ألواناً من المعارف قد تبدو غريبة على منهج الكتاب وغايته ، ولكنه يرى فيها فائدة تعود على قومه بالنفع كإدراجه « نبذة من فن قانون الصحة وتدبير البدن » حتى تتم فائدة الرحلة[1] .

---

(١) راجع — الدكتور حسين فوزى النجار : رفاعة الطهطاوى ص ٧٣ — ٧٥ ، ٩٨ .

تحدث رفاعة فى (تخليص الإبريز) عن علم الفرنسيين ووقف عنده طويلا ، فباريس عنده بما فيها من حكمة وعلم « من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية » ، وإن يكن قد وجد فى بعض العلوم ما شذّ عن تفكيره كالتخصص الشديد فى بعض علوم السوقة كالطباخة والفلسفة التى يراها ضلالات .

وقف رفاعة طويلا فى (تخليص الإبريز) عند المرأة الفرنسية ، وأبدى إعجابه الصريح بها ، ولكنه أنكر عليها ما يتنافى مع الدين والأخلاق العامة . فإذا كان يعجب بسفورها إلا أنه ينكر عليها تبرّجها وخلاعة ملبسها ، وكشفها عما يجب فى نظره أن يستر . وإذا كان الحزام الذى ترتديه يستوقفه فيفيض فى الغزل فى الخصر النحيل ، إلا أن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى ما وراء استخدام هذا الحزام من حيل « فهن يشبكن بالحزام قضيباً من الصفيح ، من البطن إلى آخر الصدر ، حتى يكون قوامهن دائماً معتدلاً لا اعوجاج به » ، وينكر رفاعة أشد الإنكار على الزوجات فى العائلات الكبيرة والصغيرة فجورهن ، بينما هن فى الطبقة المتوسطة نقيات شريفات ، ويعجبه فى المرأة الفرنسية عدم إرخاء شعرها ، ومشاركتها الرجل فى ميدان العمل ، وسفرها بمفردها ، ولكنه لا يرضى بأن يكون الرجال « عندهم عبيد النساء وتحت أمرهن سواء أكن جميلات أم لا ، قال بعضهم : إن النساء عند الهمل معدات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ، وعند الإفرنج كالصغار المدللين »[١] . وهو يثنى على ربة البيت المهذبة ، فهى « التى تحيى الضيوف ، أصالة ، وزوجها يحييهم بالتبعية » ، ويعرف للمرأة فى المجتمع الفرنسى منزلتها وفضلها على الأدب : « فإن للنساء تآليف عظيمة ، ومنهن مترجمات للكتب من لغة إلى أخرى ، مع حسن العبارة

---

(١) تخليص الإبريز ص ٥١ .

وسبكها وجودتها ؛ ومنهن من يُتمثَّل بإنشائها ومراسلاتها » . وأخيراً ، فقد لاحظ رفاعة من الطباع العربية الأصيلة أن الفرنسيين لا يغشون الغلمان ولا يتغزلون فيهم[1] .

ضمن رفاعة رحلته الحديث عن نظام الحكم فى فرنسا ، وكان ذلك طبيعياً ، فقد درس هذا الموضوع فى أثناء إقامته فى باريس ، وعرَّب فى كتاب رحلته دستور سنة ١٨١٤ الذى ظل معمولا به حتى سنة ١٨٣٠ ، وما تضمنه من نظام المجلسين واختيار أعضائهما وحقوق الأمة أفراداً وجماعات ، ثم تحدث عن تعديل الدستور الذى أعقب ثورة سنة ١٨٣٠ ، وفصَّل الكلام عن تلك الثورة التى شهدها وهو فى باريس ، ويتضح حديثه عنها بالعطف على القائمين بها : ومن حديث رفاعة عن دستور سنة ١٨١٤ « إن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد بحيث أن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين (البرلمان) ، وأن ديوان البير (يعنى مجلس الشيوخ) يمانع عن الملك ، وديوان رسل العمالات (يعنى مجلس النواب) يحامى عن الرعية ، والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية الآن (سنة ١٨٢٧) ويتخذونه أساساً لسياستهم هو القانون الذى ألفه لهم ملكهم لويز الثامن عشر ، ولا زال متبعاً عندهم ومرضيا لهم ، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل »[2] .

ومن تعليق رفاعة على المادة الخامسة عشرة من الدستور (التى تنص على أن السلطة يتولاها الملك ومجلسا النواب والشيوخ) . . . « وحينما كانت رسل

---

(١) راجع — الدكتورة سهير القلماوى : المرأة فى مؤلفات رفاعة رافع الطهطاوى ص ٤٧ — ٨٩ من : مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى .

(٢) تخليص الإبريز ص ٧٢ .

العمالات (يعني مجلس النواب) قائمة مقام الرعية ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ، وعلى كل حال فإنها مانعة للظلم عن نفسها بنفسها ، وهي آمنة بالكلية » . ومما قاله رفاعة تعليقاً على المادة الأولى وبرهاناً على أن سائر الفرنسيين متساوون أمام القانون « أن الدعوى الشرعية تُقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره . . . ، وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحضرية »[1] ؛ وفي مسألة المساواة في الضرائب ، وهي موضوع المادة الثانية من الدستور ، يقرر رفاعة أنه طوال مدة إقامته في باريس لم يسمع أحداً يشكو من المكوس والفِرَد[2] والجبايات أبداً ، « وأن الفِرَد ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الإسلام كما هي في تلك البلاد لطابت النفس » . وامتدح رفاعة المادة الثامنة الخاصة بحرية الرأي والنشر ، وامتدح الصحافة « وهو يسمي الصحف (الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات) . وأحكام المادة التاسعة الخاصة بحرية الأملاك عنده « واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف » . وقد ظل رفاعة بعد عودته إلى مصر متأثراً بالتعاليم الدستورية التي تلقاها في باريس ، ويكفي دليلاً على ذلك أنه عدّ أكبر عمل للخديو إسماعيل إنشاءه مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦[3] .

لقد كان رفاعة معجباً بما رأى وطالع في باريس ، وكان يتمنى في كل عبارة في (تخليص الإبريز) أن ينقل إلى ضفاف النيل ما أعجبه على ضفاف (السين) : ومن ذلك — مثلاً — أنه كان يرى لكل إنسان في باريس خزانة كتب على قدر حاله ، فيتمنى أن يرى مثل ذلك في مصر ، وأنه كان يرى اتجاه الفرنسيين نحو الاقتصاد فينتقد الإسراف عندنا .

---

(١) تخليص الإبريز ص ٨٠ .

(٢) الفرد جمع فردة ، وهي الضريبة .

(٣) رفاعة الطهطاوي : مناهج الألباب ص ٣٢٣ .

وأخيراً ، يجب أن نقرر أن رفاعة بعد عودته إلى وطنه لم يكن قد تغير فيه السلوك ولا الأخلاق ، وإنما كان الذى تغــير فيه هو عقله وتفكيره . فلولا الرحلة لكان يمكن أن يكون اتجاهه العــلمى فى التفكير والتأليف كاتجاه غيره من علماء الأزهر ، فيؤلف متناً أو شرحاً أو حاشية ، ولكن سنوات باريس الخمس فتحت أمامه أبواب العلم على مصراعيها : فنهل منه على قدر ما تطيق نفسه ، وأمعن فى أثنائها النظر فى أحوال الشعوب الأوربية وأسباب نهضتها ، ويظهر أثر ذلك واضحاً فى كتاباته التى ألفها فيما بعد .

رفاعة المترجم :

ما إن رجع رفاعة إلى مصر حتى بدأ فى إخلاص وإيثار عظيمين يرد لوطنه الغالى بعض دينه عليه ، ولبثت الدولة تنقله من عمل إلى عمل تريد أن تستفيد به فى كل الأعمال . ولكن أخطر أثر للرحلة يبدو فى اتجاه رفاعة إلى الترجمة ، فقد عرف وهو فى باريس أهمية نقل علوم الغرب إلى العربية ، وكان نتاجها الأول فى نفسه وعقله تأكده من أن النهضة العلمية فى مصر فى حاجة ملحة إلى أن يكون هذا النقل من أسسها . وكانت جهود رفاعة فى الترجمة — فى الواقع — هى اتصال لما بدأه فى باريس ، فقد ترجم بنفسه أو تلاميذه تحت إشرافه عدداً كبيراً من الكتب التى عرفها وطالعها فى أثناء البعثة .

وكان أول عمل لرفاعة بعد العودة عمله مترجما فى مدرسة الطب ، وكان معظم عمله فى السنتين اللتين قضاهما فى تلك المدرسة مراجعة الكتب التى ترجمها غيره ، وقد بز فى ذلك الأمر زملاءه السوريين . وإلى جانب هذا العمل فقد أنيط إليه الإشراف على المدرسة التجهيزية للطب التى عرفت بمدرسة (المارستان) ، وكانت تعدّ الطلاب للالتحاق بمدرسة الطب ومدة الدراسة

فيها ثلاث سنوات . وقد طبع له فى ذلك الوقت (سنة ١٢٤٨هـ = ١٨٣٢ — ١٨٣٣ م) كتاب (المعادن النافعة) تأليف فرارد ، وكان قد ترجمه وهو فى باريس . وفى السنة التالية طبع له كتاب آخر كان قد ترجمه وهو فى باريس كذلك ، وهو (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) تأليف ديهنج ، ويقال إنه ترجم خلال تلك الفترة كذلك رسالة فى الطب، ولكنه — فى الواقع — لم يقم بغير مراجعة كتاب فى الطب البيطرى هو (التوضيح لألفاظ التشريح فى الطب البيطرى) الذى ترجمه يوسف فرعون ، هذا علاوة على ما هو معروف من ترجمته لرسالة صغيرة فى الطب ضمنها كتاب رحلته .

ثم انتقل رفاعة إلى مدرسة الطوبجية بطره ، وهناك قام بترجمة بعض الكتب فى الهندسة وفى الجغرافيا ؛ ومن هذه الكتب فى الجغرافيا كتاب (التعريبات الشافية لمريد الجغرافية) وقد طبع فى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ — ١٨٣٥ م) ، وهو يضم عدة موضوعات فى هذا العلم مترجمة عن اللغة الفرنسية من كتب مختلفة ، وهى عبارة عن أصول دروسه التى كان يلقيها على تلاميذه الذين يدرسون مادة الجغرافيا بفصل مخصوص ملحق بمدرسة الطوبجية ؛ وفى هذه السنة أيضاً أكمل رفاعة ترجمة المجلد الأول من (جغرافية ملطبرون) ، وكان قد بدأ فى ترجمته وهو فى باريس وترجم منه صفحات هناك ، وقد أكمل هذه الترجمة فى نحو ستة شهور أمضاها فى بلدته طهطا حين ظهر مرض الطاعون فى مصر .

وفى سنة ١٨٣٥ افتتحت مدرسة الألسن ، وتولى رفاعة نظارتها ، وقام بنفسه باختيار تلامذتها من مكاتب الأقاليم ؛ وكان يشترط أن يكون التلميذ صحيح البنية ، عارفاً للقراءة والكتابة ، وسنه بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ؛ وكانت مدة الدراسة بالمدرسة خمس سنوات قد تطول إلى ست ، وكانت

علوم التاريخ والجغرافيا والهندسة والجبر واللغات العربية والفرنسية والإيطالية والفارسية والتركية تدرس بها ، وإن لقيت اللغة الأخيرة اهتماماً ضئيلا . وقد بدأت المدرسة بخمسين تلميذاً ، وزاد العدد فى بعض السنين إلى مائة وخمسين . وكان على المدرسة إلى جانب إعداد المترجمين أن تمـد المدارس الخصوصية بحاجتها من التلاميذ العارفين بالفرنسية ، حتى إذا تخرجوا منها كانوا قادرين على ترجمة الكتب فى العلوم المختلفة ، إلا أن المدرسة مضت فى تخريج طبقة من المترجمين غير القادرين على ترجمة المواد العلمية والرياضية ، وإن كانوا قادرين على ترجمة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، فرُئى إعادة المدرسة التجهيزية — وكانت قد ألغيت — وألحقت بمدرسة الألسن لإعداد تلاميذ للمدارس الخصوصية قادرين على الترجمة فى التخصصات المختلفة ، وكان ذلك فى سـنة ١٨٤١ ، وكانت أول دفعة قد تخرجت من مدرسة الألسن قبل ذلك بسنتين (١٨٣٩) .

وفى سنة ١٨٤١ تم إنشاء قلم الترجمة وألحق بمدرسـة الألسن ، وقد جاء فى تقرير اللجنة التى شكلت لتنظيم التعليم فى هذه السنة — والتى قررت إنشاء هـذا القلم — أنه مما لا شك فيه « أن الواجب يقضى بأن تكون التراجم مضبوطة مستوفية حقها من الصحة سـليمة من الخطأ ، فلهذا ولكون ترجمة العلوم والفنون ليست مقصورة على معرفة اللغة فحسب ، بل متوقفة أيضاً على الإلمام بالعلم أو الفن المترجم كتابة ، فقد أنشأت اللجنة غرفة الترجمة الخاصة بالمترجمين »[1] .

وكان قلم الترجمة عند أول إنشائه يضم أربعة أقسام : القسم الأول لترجمة العلوم الاجتماعية ، والثانى للترجمة التركية ، والثالث للعلوم الطبية والطبيعية ،

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكرى ، عبد المقصود العنانى ، سيد محمد خليل : بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) ص ١٠٩ .

والرابع لترجمة الرياضيات . ثم ضمت لمدرسة الألسن فى السنوات التالية أقسام جديدة هى : قسم دراسة الإدارة الملكية — لإعداد الموظفين اللازمين للإدارة الحكومية (١٨٤٤) ، وقسم لدراسة الإدارة الزراعية الخصوصية (١٨٤٦) ، وقسم لدراسة العلوم الفقهية لإعداد القضاة (١٨٤٧) ، كما ضمت إليها مدرسة للمحاسبة ، وهكذا كانت مدرسة الألسن وملحقاتها أشبه بجامعة للكليات النظرية . وفى سنة ١٨٤٧ أعيد تنظيم قلم الترجمة فى قسمين فقط : الأول للترجمة العربية تحت إشراف رفاعة ، والثانى للترجمة التركية ويشرف عليه كيانى بك .

وقد ظل رفاعة خمسة عشر عاماً ناظراً لمدرسة الألسن ومدرسا بها ، ومشرفاً على قلم الترجمة ، ومصححاً لجميع الكتب التى ترجمها تلاميذه من خريجى المدرسة حتى وقت إلغاء المدرسة فى نوفمبر سنة ١٨٤٩ ، وسفره إلى السودان بعد ذلك ، وفى ذلك يقول أحمد عبيد الطهطاوى[1] . « فبعد أن رأى (رفاعة) فى التعليم حسن حالى واجتهادى فى نيل المعالى بين أمثالى اقتضى رأيه المؤيد وحزمه المعضد أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ ، فاختار تاريخ ملك من ملوك الإفرنج تعلو همته بينهم على المريخ ، وهو تاريخ بطرس الأكبر الذى فضله على ممالك أوربا أشهر من أن يذكر ، فأخذت أمره بالطاعة والانقياد ، وشمرت عن ساعد الجد والاجتهاد ، وشرعت فى نقله من الفرنساوية إلى العربية ، مع إعانته لى فى حل مشكلاته وما عسر على من غوامضه ومعضلاته . . . ؟ » .

وغير ذلك كان المترجمون من أعضاء البعثات فى المدارس الخصوصية غير مدرسة الألسن يلجئون إلى رفاعة لمراجعة ما يترجمون من كتب .

---

(١) فى مقدمة الترجمة العربية لكتاب : الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر لمؤلفه الفيلسوف الفرنسى فولتير ص ٣ .

وفى سنة ١٨٤٧ أتمّ رفاعة ترجمة مجلد آخر من جغرافية ملطبرون وهو المجلد الثالث ، وأُنعم عليه برتبة أميرآلاى مكافأة له على هذا العمل الكبير . وفى أثناء وجود رفاعة فى السودان (١٨٥٠ — ١٨٥٤) لم ينس العمل الذى أحبه — وهو الترجمة — فترجم هناك (مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك) .

وبعد رجوع رفاعة من السودان استمر فى إشرافه على الترجمة فى البلاد ، ومن ذلك قيامه مع بعض تلاميذه بترجمة مجموعة القوانين الفرنسية ؛ ذلك أن الحكومة عندما فكرت فى إصلاح النظام القضائى فى عهد إسماعيل استعانت فى ذلك بالقانون الفرنسى المعروف (بقانون نابليون) (Code Napoleon) ، فقام رفاعة وتلاميذه بما لهم من إلمام بأسرار اللغتين العربية والفرنسية بترجمة هذا القانون بنواحيه المختلفة : القانون المدنى ، وقانون تحقيق الجنايات ، وقانون العقوبات ، وقانون المرافعات ، وهى القوانين التى بُنى على أساسها نظامنا القضائى الحديث .

ولقد عدّد رفاعة فى إحدى قصائده أشهر مترجماته ، فقال فيها :

على عدد التواتر معربانى ۔ تنى بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل ۔ ومنتسكيو يقر بلا تمادى
ومغترفو قراخ فرات درسى ۔ قد اقترحوا سقاية كل صادى
ولاح لسان باريس كشمس ۔ بقاهرة المعز على عمادى

ومن هذه الأبيات يظهر أن رفاعة قد ترجم عن (مونتسكيو) ، ولكن ما عُثر عليه من مترجمات من كتب هذا الفيلسوف لا يعدو كتاب (برهان البيان وبيان البرهان فى استكمال واختلال دولة الرومان) الذى ترجمه أحد تلاميذ رفاعة تحت إشرافه ، وقد تكون هناك بعض

الترجمات عن (مونتسكيو) لم تَرَ النور بعد . ونفس الأمر محتمل عن (ملطبرون) ؛ إذ المعروف أن رفاعة لم يترجم عنه غير المجلدين الأول والثالث .

ومما يجدر ذكره أن بعض المترجمين والمصححين فى ذلك العهد قد عنوا بإلحاق معاجم وقواميس صغيرة بالكتب التى نقلوها إلى العربية ، لتوضيح بعض الألفاظ الغريبة وتفسير المصطلحات العلمية كما فعل رفاعة عند ترجمة كتبه : (قلائد المفاخر) و (مبادئ الهندسة) و (التعريبات الشافية) .

رفاعة المؤرخ :

أما عن رفاعة المؤلف المؤرخ ، فقد ظهرت رغبة التأليف عند رفاعة مبكرة مُذ كان طالباً فى الأزهر ، فقد نظم فى ذلك الوقت أرجوزة فى علم الكلام . وأمضى حياته فى التأليف ، ومعه الترجمة بالطبع ، فى موسوعة من العلوم متباعدة الميادين . وهناك مؤلفات نسبت إلى رفاعة ولكن لم يُعثر عليها ، ومن ذلك ما أشار إليه صالح مجدى فى (حلية الزمن) .

وكان لرفاعة منهجه فى التأليف . ولما كان محباً للأدب بحكم نشأته الأولى فى الأزهر ، وحافظاً لكثير من الشعر ومأثور القول كان كثير الاستشهاد بهما فى كتابته ، كما كان يميل إلى الاستطراد كلما دعا المُقام إليه .

وإذا كان رفاعة عندما كان طالباً فى الأزهر قد أخذ عن أستاذه الشيخ حسن العطار ميله إلى العلوم العصرية إلا أن اهتمامه الأول كان متجهاً إلى التاريخ والجغرافيا ، واستمر شغفه بدراسة هذين العلمين فى أثناء وجوده فى باريس ، ونجد هذا الشغف واضحاً فى قوله فى خاتمة كتاب رحلته : « وإن شاء الله تعالى . . . يصير التاريخ على اختلافه منقولا من الفرنساوية

إلى لغتنا ... : فقد تكفلنا بترجمة علمىْ التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئة الله »[1] .

وكانت جهود رفاعة موجهة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى ترجمة الكتب التاريخية بشكل يغطى بها تاريخ العالم بقدر الإمكان ، وإن حظى تاريخ فرنسا منه بعناية خاصة .

وأول كتاب قام تلاميذ رفاعة فى مدرسة الألسن بترجمته فى التاريخ هو (بداية القدماء وهداية الحكماء) ، وهو كتاب فى تاريخ العالم القديم ، وبعد ذلك قام أحد تلاميذه بترجمة كتاب (قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون) ، وهو فى تاريخ العصور الوسطى . أما فى تاريخ العصور الحديثة فقد كثرت الكتب ، ففى سنة ١٨٤١ تمت ترجمة وطبع (نظم اللآلى فى السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك) ، كما تمت ترجمة وطبع كتاب (مطالع شموس السير فى وقائع كارلوس الثانى عشر) ، وهو فى تاريخ مملكة السويد : وفى سنة ١٨٤٨ تمت ترجمة وطبع كتاب ثان فى تاريخ فرنسا من تأليف المؤرخ الفرنسى (مونيفورس) . وفى سنة ١٨٥٠ تمت ترجمة وطبع (الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر ايمبراطور الموسقو) فى تاريخ روسيا .

وعندما أنشئ قلم الترجمة الجديد فى سنة ١٨٦٣ بعد إلغائه أيام عباس كان رفاعة ناظراً له ، ولكن عناية رفاعة منذئذ كانت متجهة إلى التأليف فى علم التاريخ أكثر من عنايته بالترجمة فيه ، فقد كان التأليف لا الترجمة هدف رفاعة فى هذه المرحلة . وكانت خطة رفاعة فى التأليف التاريخى ترمى إلى إخراج مؤلف كبير من عدة أجزاء فى تاريخ مصر من العصور القديمة حتى العصر الحديث : وكان (أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق

---

(١) تخليص الإبريز ص ٢٤٤ .

جنى إسماعيل) هو أول كتاب فى هذه السلسلة ، وقد طبع فى سنة ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ — ١٨٦٩ م) ، وهو يتناول تاريخ مصر القديم منذ أقدم العصور حتى الفتح العربى . وهنا يختلف رفاعة عن سائر المؤرخين المصريين فى العصر الإسلامى ، فهم يبدءون تواريخهم بالفتح العربى أو ببدء الخليقة ، كما كانوا يجهلون حقائق التاريخ المصرى القديم ولا يعرفون عنه إلا خليطا من الخرافات والأباطيل ، أما رفاعة فكان أول مؤرخ مصرى يكتب هذا التاريخ طبقاً للأصول العلمية ، معتمداً فى ذلك على الكشوف الأثرية والمراجع الأجنبية ، بعد أن يخضع مادتها للتجريح والنقد والفحص والمقارنة مع غيرها من المصادر . هذا علاوة على أنه كان ينظر إلى تاريخ مصر نظرة شاملة ويدرك أنه تاريخ مستمر ، ويفهم الحضارة المصرية كسلسلة متصلة الحلقات على العكس من بعض الحضارات القديمة الأخرى(١) ، وهو الأمر الذى لم يصل إلى حدوده المؤرخون المصريون السابقون له .

أما الجزء الثانى فى سلسلة تاريخ مصر فقد كان (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) الذى تم طبعه فى سنة ١٨٧٤ ، وهو فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد بدأ بنشره على حلقات فى مجلة (روضة المدارس) فى سنتها الثالثة ، ولكنه مات قبل أن يتم طبعه فى مجلد مستقل ، وقد أشرف على هذا الأمر ابنه على فهمى ، والجديد فى هذا الكتاب هو الفصل الأخير الذى أفرده رفاعة للتحدث عن حكومة النبى صلى الله عليه وسلم ونظم الحكم الإسلامية بوجه عام كما وضعت فى زمنه .

وبوفاة رفاعة لم تكمل الأجزاء الباقية من تاريخ مصر : وغير هذين

---

(١) الدكتور جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر ص ٧٢ .

الكتابين نجد موضوعات تاريخية قيمة متناثرة فى كتب رفاعة الأخرى ، وبخاصة فى (تخليص الإبريز) و (مناهج الألباب) و (المرشد الأمين) .

رفاعة المربى :

ولرفاعة جهده فى ميدان التربية والتعليم ، فقد كان — بشخصيته الأزهرية التى صقلتها الثقافة الغربية الحديثة — له أثره الواضح فى إصلاح تعليم اللغة العربية بالبلاد ، واختيار أساتذتها بعد إجراء الامتحانات لهم ، وتأليف الكتب المناسبة للتلاميذ ، فقد وضع كتاب (التحفة المكتبية فى القواعد والأحكام والأصول النحوية بطريقة مرضية) بسط فيه قواعد النحو وخلصها من التعقيدات ليعفىَ التلاميذ من كتب النحو القديمة ذات الأسلوب العتيق . كما وضع للمطالعة كتاب (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) ، وهو فى الواقع تخطيط للإصلاحات الحديثة طبق فيه ما استخلصه فى رحلته إلى فرنسا من دروس عن كل ما يساعد على تقدم البلاد .

وكان رفاعة يقدر مهنة التعليم والقائمين عليها ، وجعل منها رسالة آمن بها ونهض بها « لتحسين حال الوطن الذى حبه من شعب الإيمان » ، ودعا إلى أخذ الشباب بما يعرف اليوم بالتدريب العسكرى ، وإلى تعليمهم (مبادئ العلوم الملكية السياسية) أو ما يعرف اليوم بالتربية القومية . ونادى بإدخال دراسة العلوم الحديثة ، ولا سيما العلوم التجريبية ، بالأزهر وسمّاها (العلوم الحكمية العملية) ، وأشار إلى أنها فى الأصل علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى بلادهم من أصولها العربية ، فكان أسبق من الشيخ محمد عبده إلى هذه الدعوة .

وقد شارك رفاعة فى النهوض بالتعليم الأولى الابتدائى أكبر مشاركة ، فكان يطوف بالأقاليم يزور المكاتب الابتدائية ويتخيّر أفضل تلامذتها .

ليأخذهم معه إلى القاهرة للالتحاق بالمدرسة التجهيزية : وقد أجابت الحكومة كثيراً من مقترحاته لرفع المستوى الصحى والغذائى لتلاميذ هذه المرحلة ، فقررت لهم أسرّة ينامون عليها بعد أن كانوا يفترشون الأرض ، وأتت لهم بالخضر واللحم بعد أن كان طعامهم فى أكثر الأيام العدس والفول ، وزادت لهم من كساوى الشتاء ، ورفعت مرتبات المعلمين تشجيعاً لهم ؛ ذلك أن رفاعة كان يقدر ضرورة نشر التعليم الابتدائى فى البلاد ، ولهذه الغاية وضع أول مشروع لنشر هذا النوع من التعليم فى سنة ١٨٥٤ ، وهو المشروع الذى سيتخذه على باشا مبارك بعد ذلك أساساً لمشروعه المعروف عندما يتولى شئون المعارف — هذا المشروع الذى تضمنته لائحة رجب ١٢٨٤ هـ ، وقد استعان على مبارك فى ذلك برفاعة فعينه عضواً (بقومسيون المعارف) ، وكان بمثابة المجلس الأعلى لشئون التعليم ، ثم رئيساً لمجلس تنظيم المكاتب الأهلية[1] .

وكان رفاعة يقسم مراحل التعليم إلى ثلاث مراحل : التعليم الابتدائى وكان يرى وجوب تعميمه بين أبناء الأهالى ، والتعليم الثانوى وكان يرى وجوب نشره بين القابلين له الراغبين فيه ، والتعليم العالى وكان يرى الاقتصاد فيه لأنه معد لتكوين أرباب السياسات والرئاسات وأهل الحل والعقد فى البلاد ؛ فقد كان يعتقد اعتقاداً راسخاً فى أن التفرقة بين أفراد الأمة واجبة ، ذلك أن قوماً خلقوا للحكمة وآخرين خلقوا للمهنة ، ولا يصلح هؤلاء لهذه ولا هؤلاء لتلك[2] .

---

(١) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : رفاعة المربى ص ١٨٥ — ١٨٦ من مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى .

(٢) رفاعة الطهطاوى · المرشد الأمين للبنات والبنين ص ٥٧ .

رفاعة والمرأة المصرية :

كان رفاعة أول ما دعا إلى النهوض بالمرأة في مصر الحديثة . ويحوى كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) كثيراً من آرائه فى المرأة ، كما يستوحى فيه النظام الديموقراطى الذى عرفه فى فرنسا ويسير على نهج الكتب التى قرأها هناك — كتب روسو ، وموتنسكيو ، وبورلاماكى . ويذكر رفاعة فى مقدمة الكتاب أنه قام بتأليفه بعد أن « صدر له أمر شفاهى من ديوان المدارس بعمل كتاب فى الآداب والتربية يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية » ؛ لذلك كان على رفاعة أن يرسم فى الكتاب الصـورة المثلى لتربيتهم . ولم يكن الكتاب فيما هو واضح من مادته موجهاً للبنين والبنات أنفسهم ، وإنما هو (مرشد) لمن يتصدى لهذه المهمة ، هو نوع من الكتب التى تُكتب للأساتذة ليسترشدوا به فى أداء مهمتهم[1] .

وقد يُقال أن (للمرشد) أثراً فى فتح مدارس البنات فى مصر ، والواقع أنه قبل صدور هذا الكتاب كان قد ظهر واضحاً الاتجاه إلى فتحها ؛ فإن (المرشد) لم يطبع إلا فى سنة ١٨٧٢ ، وافتتحت أول مدرسة للبنات بالسيوفية بالقاهرة فى سنة ١٨٧٣ ، وهى السنة التى توفى فيها رفاعة ، بعد أن بقيت فكرة تعليم البنات قاصرة لفترة طويلة على البيوت .

وهناك ما يؤخذ على رفاعة فى (المرشد) . فبينما نجد رفاعة فى (تخليص الإبريز) متفتح العين والنفس يرى ويحس ، نراه فى (المرشد) كثير السجع كثير النقل من غيره ؛ وفيما عدا ما كان يتعمد فيه الإفادة بالنقل فى (تلخيص الإبريز) كان طليقاً فى ملاحظاته حراً فى رسم صوره ، أما فى

---

(١) الدكتورة سهير القلماوى : المصدر السابق ص ٦٦ من : مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى .

(المرشد) فهو مقيد عجوز . وعلاوة على ذلك فلقد انتقـــل رفاعة فى (المرشد) إلى جو الماضى ، وما فيه من أحاديث أكثرها ضعيف السند ، وحكمة جافة وبعض معلومات من التاريخ غريبـــة ، ونكاد نحس أن نفس رفاعة قد تفتحت إلا فى فصل أو فصلين حيث يتحدث عما يجب أن يكون عليه بيت الزوجية من الوفاق بين الزوجين ؛ ونضيف إلى ذلك ، وهو ما عدته الدكتورة سهير القلماوى عيباً حقاً[1] ، أن رفاعة لا يكاد يذكر تجاربه ومشاهداته فى الرحلة فيما يختص بالمرأة الفرنسية فى كتابه الثانى (المرشد) إلا نادراً : كأن يذكرها عندما يقول إن أمم أوربا تعلم بناتها، فيذكر فرنسا ضمن سائر الأمم ويقول إنها درجت على تعليم بناتها فى أديار الرهبان . أو كأن يذكر موضوع الاختلاط فإنه يذكر هذه الظاهره بنفس ألفاظها تقريباً التى رصدها بها فى الرحلة . أما ما كان ينتظر من وقفات للمقارنة ، التى عبر عليها أو وقف عندها فى رحلته، فلا نجد شيئاً ، وكأنما مؤلف المرشد لم يذهب إلى فرنسا ولم يرصد من ملاحظات غاية فى الدقة فى شأن المرأة وحياتها وتربيتها ؛

ولكن هل كان رفاعة بكتابته عن المرأة الفرنسية يقوم بدور المصلح يريد أن يحمل إلى زميلتها المصرية ما يراه من وجوه الإصلاح ؟ . إن الدكتورة سهير القلماوى[2] ترى أن الاعتقاد فى هذا يميل إلى الشطط ميلا واضحاً ؛ فقد كان رفاعة فى رحلته واصفاً معجباً ، بل واصفاً مؤدياً رسالة المبعوث الذى يريد أن يسجل انطباعات الرحلة التى ستتقبل من ولى النعم بالتقدير ، ومن أهل البلد من بعده بالإعجاب أيضاً ، فقد كان رفاعة يعيش فى جوّ يذكّره أبداً أن ولىّ النعم ينفق أموالا طائلة على البعثة فلا بد

---

(١) الدكتورة سهير القلماوى : المصدر السابق ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٤ .

من البرهنة على أن هذه الأموال لا تنفق سدًى ، بالاجتهاد فى العلم أولا ، وبكتابة التقارير الوافية كل شهر ثانياً . ولم تكن الرحلة إلا من باب التقارير هذه . كل ما فى الأمر أن رفاعة أراد أن ينقل مدنية ، أما موضوع المرأة فلم يكن من الطبيعى أن يشغل رفاعة نفسه به فى هذا الوقت .

فإذا رجعنا إلى (المرشد) نجد رفاعة فى دعوته إلى النهوض بالمرأة المصرية يقف عند حدّ تحريرها من ربقة الجهل بتعليمها . والأدب هو العلم الذى يحبذ رفاعة أن تتعلمه المرأة ، ويسبقه فى الأهمية الدين الذى يتشبث رفاعة بأن تعرف المرأة أموره جيداً . أما الحجاب فهو يؤمن به ويتمسك . أما اختلاطها بالرجال فهو يبيحه للضرورة فقط عندما تضطر للنزول إلى ميدان العمل كالرجال — وإن لم يأت ذكر ذلك صراحة فى (المرشد) ؛ فإن روح رفاعة تقصر مهنتها فى الحياة على الزوجية والأمومة ؛ فإذا عملت المرأة مع ذلك ، وتحت هذه الظروف ، فلا يمكن أن تتولّى الإمامة والقضاء ، فهى ممنوعة منهما تماماً .

لقد كان رفاعة فى الحق أسبق من قاسم أمين فى دعوته إلى النهوض بالمرأة وتحريرها ، والطريق لم يُفتح أمام رفاعة لهذا العمل إلا بعد عصر عباس وسعيد (١٨٤٩ — ١٨٦٣) ، وهو عصر لم يكن لقضية المرأة فيه نصيب . والسنوات الخمسون أو تزيد التى تفصل بين رفاعة وقاسم أمين شاهدت أحداثاً وتطورات كبيرة فى البلاد فكرية واجتماعية ، منها : سرعة دوران المطابع على الكتب والصحف ، وإنشاء المدارس بأنواعها للبنين والبنات ، وعودة الكثير من المبعوثين من الأقطار المختلفة ، وتزايد عدد الخريجين والمتعلمين من المدارس المصرية ، وازدياد الشعور الوطنى وارتفاع حرارته ، وظهور أول مجلس لشورى النواب ، ولمعان زمرة كبيرة من الزعماء والخطباء والكتاب فى السياسة والوطنية والاجتماع ، وتجمع المستنيرين

من الوطنيين فى اتحادات وجمعيات وندوات . . . كل ذلك كان تمهيداً طيباً للطريق الذى اختطه قاسم لدعوته فى قضية المرأة وجعلها دعوة واسعة كبيرة . وفى الوقت الذى كان يقف فيه رفاعة وهو يكاد يقف وحيداً نرى قاسماً كانت تحيط به كوكبة من جلة الدعاة الكبار والمؤمنين بحرية المرأة ، من أمثال : محمد عبده وسعد زغلول وفتحى زغلول ولطفى السيد وحافظ إبراهيم وأحمد شوقى وخليل مطران . وزاد الدعوة حرارة وأكسبها حيوية ونشاطا أنه كان هناك معارضون لها من أمثال : محمد فريد وجدى وطلعت حرب ومحمد رشيد رضا : على تفاوت فى المعارضة واختلاف فى أسلوبها وعناصرها[1] .

رفاعة الصحفى :

ولرفاعة جهده فى ميدان الصحافة ؛ وتثبت الدراسات المقارنة أن إقامته فى فرنسا قد أفادته فى هذا الميدان ، فقد أخرج جريدة (الوقائع المصرية) على منوال الـ **Moniteur** الفرنسـية[2] . وقد وُكل إلى رفاعة تنظيم (الوقائع) بعد أن صدر قرار مجلس الشورى فى يناير سنة ١٨٤٢ بوضع خطة سديدة « تضمن صدور الوقائع على الوجه الأكمل كما هو الحال فى الممالك الأخرى » ؛ وقد عمل رفاعة على رفع مستوى التحرير بالجريدة ، واستعان فى ذلك بالمحررين والمترجمين والمصححين الممتازين ومنهم نخبة من تلاميذه بمدرسة الألسن من أهمهم أحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين ، كما عين لها المندوبين الذين يجمعون لها الأخبار فى دواوين الحكومة ؛ وكان رفاعة يمدّ الجريدة بمقالات من إنتاجه ، وجعل أصول المادة باللغة العربية ثم الترجمة للغة التركية ، وليس العكس كما كان الحال قبـل تعيينه رئيساً

---

(١) الدكتور محمد محمود الدش : رفاعة الطهطاوى ص ٦٢ — من مجلة العربى عدد ٩٣ (أغسطس ١٩٦٦) .

(٢) الدكتور أنور لوقا : رفاعة بين القاهرة وباريس ص ١٤١ — من مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى .

للتحرير ، وأصبحت اللغة العربية ناحية اليمين ، واللغة التركية ناحية اليسار ، على عكس ما كان قائماً من قبل . وعنى بالأخبار المصرية وقدمها على الأخبار الخارجية . ويرجع الفضل لرفاعة فى أن الموضوعات الهامة — كالحديث عن السياسة ونظم الحكم — قد أخذت طريقها إلى صفحات الجريدة بعد أن لم يكن بها غير الأخبار التافهة والعبارات الجوفاء ومديح الوالى : كما ضمّن رفاعة أعداد الجريدة قطعاً أدبية أخذت من الكتب العربية القديمة : ومن الجدير بالذكر أن الجريدة شهدت على يدىْ رفاعة أول محاولة لكتابة المقال فى الصحافة المصرية[1] .

وفى الواقع إن هذا التغيير فى تحرير (الوقائع) لم يزدْ عن عدة أعداد عادت الجريدة بعدها إلى ما كانت عليه بعد أن أمر محمد علىّ بذلك، فاختفت منها المقالات السياسية والاقتصادية والأخبار الخارجية ، وعادت تنحصر فى بعض القرارات الرسمية ; وأخبار العزل والنصب وحفر الترع وإقامة الجسور والقناطر ، وربما كان ذلك نتيجة من نتائج الأزمة المصرية سنة ١٨٤٠ التى انتهت بتحديد استقلال مصر وحرمانها من مكانتها الأولى المعروفة لها من قبل ، فأصبح من المتعذر على الحكومة المصرية أن تجيز لصحيفتها نشر أخبار أوربا السياسية والتعليق عليها بما قد يسىء إلى أية دولة من دولها — وإن أباحت نشر أخبار تلك الدول مجردة لا رأى لها فيها . كما يمكن إرجاع هذه الردة فى تحرير الوقائع إلى إرادة الوالى الذى لا يرضى عن نشر تلك الموضوعات التى تنبه الجماهير إلى استبداد الحاكم[2] .

وفى عهد إسماعيل قام رفاعة بالإشراف على مجلة (روضة المدارس) التى كان يحررها ابنه على فهمى ، وكان قد نيّف على السبعين ومع ذلك كان

---

(١) الدكتور عبد اللطيف حمزة : رفاعة الصحفى ص ١١٢ — ١١٣ من : مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى .

(٢) الدكتور حسين فوزى النجار : المصدر السابق ص ١٢١ .

يتحف القراء بنفثات من قلمه بين الحين والحين . وتثبت الدراسات المقارنة أن رفاعة نشر هذه المجلة على نمط المجلتين الأوربيتين : Journal Asiatique و Revue Encydopedique ، وكان رفاعة يلتهم أعدادها التهاماً وهو فى باريس[1] . وقد صدر العدد الأول من المجلة فى ١٥ محرم ١٢٨٧ هـ (١٧ أبريل ١٨٧٠ م) . وكانت المجـلة مجلة ثقافية علمية أدبية بعيدة عن الخوض فى السياسة أو فى أعمال الحكومة ، وتصدر مرتين فى كل شهر للنهوض باللغة العربية ونشر المعارف الإنسانية . وكانت تضم أخبار الطلبة وامتحاناتهم ، ومـا يُقال فى كل امتحان من الكلمات الافتتاحية والكلمات الختاميـة بما تتضمنه من منظومات شعرية فى مدح الخديو لافتتاحه المدارس . وكانت تفسح من صفحاتها لطلاب المدارس الذين برز من بينهم أحد طلاب (مدرسة الإدارة) ، وهو الطالب إسماعيل أفندى صبرى (الشاعر إسماعيل باشا صبرى فيما بعد) . كما كانت المجلة تضم أشتات من العلوم والمعارف المختلفة على شكل ملازم اختصت كل ملزمة بكتاب قام على تأليفه أو ترجمته متخصص ، وكانت تستعين بالرسوم والصور لتوضيح ما تكتب ، مثل الأجهزة العلمية وما إلى ذلك « وهكذا تهيأ للمجلة أبرز علماء العصر والمفكرين فى مصر كل منهم يصول ويجول فى فنه ومجال بحثه » وقد استمر صدور المجلة ثمانى سنوات قضى منها رفاعة ثلاث سنوات وشهرين ...

* * *

ها هو ذا رفاعة فى مصر وفرنسا ، أول رائد للنهضة الفكرية فى مصر الحديثة ، عملاقاً وبطلا رفيع المنزلة بين أبطال النهضات : ترجمة وتأليفاً وتعليما وتربية . لم تفتنه الحضـارة الأوربية ، بل نقل أسمى ما فيها إلى العربية ، وتمنى لو أخذنا بكل أطايبها . عاش طول حياته وفياً لوطنه ودينه ، وكان أصيلا فى حبه لهما . فقد كان حب الوطن عنده « من الإيمان

---

(١) الدكتور أنور لوقا : المصدر السابق ص ١٤١ .

ومن طبع الأحرار إحراز الحنين إلى الأوطان » . أما (وطنه الخصوصى) طهطا ، فإن بريق القاهرة وأضواء باريس لم تشغله يوماً من الأيام عنه، فقد كان دائم الحنين إليه ، وفى ذلك يقول : « وإنى إن ألبستنى المحروسة نعما، ورفعت لى بين أمثالى علما، وكانت أم الوطن العام ، وولية الآلاء والإنعام ، وأحبها حباً جماً ، لأنها ولية النعمى :

وقضيت فيها الأربعين مجاوراً   كرام السجايا والبحور الطواميا

فلا زلت أتشوق إلى وطنى الخصوصى ، وأتشوف وأتطلع إلى أخباره السارة وأتعرف ، ولا أساوى بطهطا الخصيبة سواها فى القيام بالحقوق وإكرام مثواها » .

ها هو ذا رفاعة فى مصر وفرنسا ، فماذا كان فى السودان ؟ ،

إنها فترة شهدت إبعاده عن مسرح جده واجتهاده فى القاهرة ، فلنعش معه هذه الفترة مطالعين قصة بعثته هناك ، ولنتقدم لها بالتعرف على أحوال السودان عند وصوله إليه ، فإنه مما لاشك فيه أنه كان لهذه الأحوال بأبعادها المختلفة أثرها على رفاعة وهو هناك .

رفاعة رافع الطهطاوى

فى

السودان

عصر رفاعة فى السودان

سلطنة الفنج فى السودان :

قامت سلطنة الفنج فى السودان فيما بين العقد الأخير من القرن الخامس عشر والربع الأول من القرن السادس عشر ؛ وكانت تمتد أيام ازدهارها إلى الجندل الثالث شمالاً ، وإلى فازوغلى على النيل الأزرق جنوباً ، وإلى ساحل البحر الأحمر شرقاً ، وإلى حدود مملكة دارفور غرباً ؛ وكانت السلطنة تتكوّن من مشيخات مستقلة، لكل منها رئيس يُدعى شيخاً أو مَكّاً، يعتمد السلطان تعيينه بعد اختياره من بين أفراد عائلة خاصة هى صاحبة السلطة ؛ وكانت السلطنة — فى الواقع — ضرباً من الحلف بين هذه المشيخات والقبائل تقوم تنظيمات الإدارة فيها فى نطاق يكفل تأمين المصلحة التجارية فقط ؛ فقد كان الاهتمام جدّ كبير بالتجارة الخارجية التى كان يحتكرها السلاطين والمشايخ ، والتى كان لهم — من أجل العناية بها — وكلاء فى القاهرة وأسيوط وبعض المدن المصرية الأخرى . ولم تحاول السلطنة — فيما عدا ذلك — تنظيم جهاز حكومى يثبت من أركانها ، بل تركت كل شىء يكيف نفسه وفق ظروفه الخاصة ، الأمر الذى أدى إلى انشغال السلاطين بأمورهم الخاصة عن مصالح الرعية .

وقد سار السلطان بادى أبو شلوخ (١٧٢٥ — ١٧٦٢) فى الحكم سيرة سيئة ، فثار عليه الجيش بقيادة الشيخ محمد أبو اللكيلك — الذى كان من جماعة الهمق — وعزله ، وكان ذلك بداية عصر الوزراء العظام الذين أصبح بيدهم الأمر دون السلاطين . وعمل هؤلاء الوزراء على التأسيس لأنفسهم ، فلجئوا إلى مطاردة وقتل المنافسين ومن يخافون على سلطانهم ،

وقد أدى ذلك إلى انتشار الفوضى فى البلاد ، وخروج المشيخات عن سلطة السلطنان ، ووقوع كثير من الحروب فيها نتيجة للتنافس على السلطان. وهذه مما يوضح حالة السلطنة فى السنوات الستين الأخيرة من عمرها ، ففيما بين عزل السلطة أبو شلوخ فى سنة ١٧٦٢ والفتح المصرى سنة ١٨٢١ كانت السمات الواضحة فى الدولة هى قصر مدد حكم السلاطين ، والحروب المستمرة بين أركان السلطة فى البلاد : من الوزراء والسلاطين والمشايخ ؛ بل إنه فى السنوات القليلة التى سبقت الفتح المصرى عظم الاضطراب وعمت الفوضى ، حتى لقد اختفى السلطان نفسه من ميدان الصراع ، وانحصر النضال فى سبيل الاستحواذ على السلطة بين اثنين من الزعماء هما الوزير عدلان ومنافسه حسن رجب ، لكل منهما أنصار وخصوم ، مما نتج عنه ظهور أحزاب متنافرة أدى الخصام بينها إلى سفك الدماء وتفاقم الأمور ؛

ونتيجة لذلك حرمت البلاد من الاستقرار ، وهو الأساس الأول لاستمرار تجارتها الخارجية . وأدى هذا إلى تلمّس كثير من القبائل الأمن خارج البلاد ، وقصد بعض المشايخ إلى مصر والتقوا بمحمد علىّ وبسطوا له حقيقة الحال فى الجنوب وطلبوا منه وضع حدّ لهذه الحال .

امتداد الإدارة المصرية إلى السودان :

امتدت الإدارة المصرية فى السوادن بعد ضمه إلى جنوبى مدينة الخرطوم بقليل وإلى كردفان فى الغرب ؛ وبعد ذلك — وعلى عهد محمد علىّ — ضُمّ إقليم التاكه (كسلا) ، وهكذا كانت حدود الإدارة المصرية طوال حكم عباس وسعيد ؛

أصبحت مدينة الخرطوم بعد ضم السودان إلى مصر عاصمةً للإدارة التى كان على رأسها حاكم عام يلقب بالحكمدار ؛ وكانت مهمة الحكمدارين

الأوّل إتمام الضّم وقمع الفتن والاضطرابات ، حتى إذا تسلّم على خورشيد (١٨٢٦ — ١٨٣٨) زمام الأمور بدأ عهد الاستقرار والعمران فى البلاد ، فعنى بتوطيد أركان الحكومة الجديدة وتنظيم إدارة البــلاد : وكان ذالك أمراً عسيراً ؛ فقد كان عليه لكى يبلغ هــذا الأمر أن يمسح عن الأهالى ما خلفته فيهم فترة (الفتح) من آثار عنيفة — وهو الأمر الذى أمضى فيه خورشيد السنوات الأربع الأولى من حكمه — حتى يرجعوا إلى أوطانهم بعد أن هرب الكثير منهم إلى حدود الحبشة ، وكان من وسائل ذلك سماحه لكبارهم عن الضرائب المفروضة على أراضيهم الزراعية .

وكان التقسيم الإدارى فى السودان مثله فى مصر ، وإن شابته البساطة ، فكانت البلاد تنقسمْ إلى عددٍ من المديريات على رأس كل منها مدير ، وكانت كل مديرية تنقسم بدورها إلى أقسام ، على رأس كل منها ناظر ، كما كان كل قسم ينقسم إلى أخطاط على رأس كل منها حاكم . أما البدو فقد ضموا فى كل مديرية إليها ، وكان يحكمهم مشايخهم المسئولون أمام المدير :

وكان الحكمدار يتمتع بكامل السلطتين المدنية والعسكرية فى البلاد ، وهو ممثل والى مصر فيها والمسئول الأول أمامه عن كل ما يتعلق بالبلاد ، وله هيئة من المعاونين على رأسهم وكيل الحكمدار وقائد عام الجند ورؤساء المصالح المالية والقضائية وغيرها ؛ ولم يكن هناك حجاب بينه وبين الأهالى ، فقد كان من الميسور على كل شاكٍ أن يقابله ويسلّمه شــكواه يداً بيد ، وكان يقضى فيها بسرعة بعد التحرّى عن موضوعها بدقة وأخــذ رأى الموظفين المختصين .

ومن المسائل التى اهتمت بها الإدارة بعد الفتح مسألة تنظيم الضرائب ؛ ولم يكن هذا بالأمر السهل ؛ فقد كان الأهالى يعملون بالرعى ولم يكونوا يدفعون شيئاً من الضرائب قبل الحكم المصرى ، لذلك سبّب فرض الضرائب

استياء عاماً بين الأهالى ساعد عليه وقوع كثير من حوادث العنف على أيدى جامعى الضرائب ، الأمر الذى أدى بكثير من الأهالى إلى هجر قراهم والهرب إلى الجبال ، وقد فُرضت الضرائب بشكل إجمالى على القبائل ، وتُرك لرؤسائها أمر جمعها ، ومن هذه الضرائب كانت تخصم مصاريف الإدارة ، وأهمها مرتبات رجال الجيش والإدارة ، فإذا حدث وتأخر دفع المرتبات كان الجند يثورون ، ولذا وكل إليهم أمر جمع الضرائب كى يكونوا على بينة من صحة جمعها(1) .

الإصلاحات المصرية فى السودان على عهد محمد على :

وقد حاول محمد على إصلاح المساوئ التى يشكو منها الأهالى ، وعمل الكثير فى سبيل ذلك عند زيارته للسودان (١٨٣٨ — ١٨٣٩) ، ومن ذلك تقييده سلطة الحكام وعزله الفاسدين منهم : وفى الواقع لقد عمل محمد على الكثير لتنظيم البلاد وجعلها امتداداً لمصر ، وذلك لتحقيق هدفه الخاص بجعل مصر خالصة له ، ومن أجل ذلك كان لابد من القيام بعدة مشروعات من أجل تحقيق هذا الهدف :

وكان الاهتمام بالزراعة على رأس هذه المشروعات ؛ فقد كانت مع عظم أهميتها فى أسوأ حال ، وخاصة بعد أن شُغل أصحاب الأمر على عهد سلطنة الفنج بالتطاحن فيما بينهم وأشركوا الأهلين فى حروبهم ؛ إذ كانوا ينتزعون الرجال عنوة من القرى والدساكر والحقول لملء صفوف الجيش ، فكثرت المجاعات التى أودت بحياة مئات الألوف فى سنار وكردفان خاصة : ومن أجل ذلك وُضعت بعد ضم السودان أسس الإصلاح الزراعى التى شجعت الأهالى على الاستقرار وعلى احتراف الزراعة بشتى الطرق ، وأرسل إلى

---

(1) الدكتور زاهر رياض : السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال (١٨٢١ — ١٩٥٣) ص ٧٠ .

السودان الكثير من الفلاحين والصناع والمهندسين ، وحُفرت الآبار وشقت الترع ، ووزعت الأراضى وأدخلت زراعات جديدة ، ونقل إلى البلاد كثير من صنوف الحيوان الأليف ، وتمّ التوسع فى زراعة قصب السكر ، وكان لذلك كله أثره فى عمران البلاد إلى حدّ استرعى انتباه الرحالة الذين زاروا السودان على عهد محمد على .

وقد عنى محمد علىّ منذ توليه حكم مصر بإعادة العلاقات التجارية بين السودان ومصر إلى سابق عهدها والعمل على دعمها وتوثيق أواصرها . فقد كان من أثر اختلال الأمن فى ربوع السودان فى السنوات الأخيرة من عهد الفنج ، وما كان يلاقيه التجار من مخاطر فى أثناء اجتيازهم طرق القوافل الذاهبة إلى خارج البلاد أن صاروا يؤثرون الخروج بمتاجرهم صوب البحر الأحمر فراراً من أعمال السلب والنهب التى كانت تتعرض لها القوافل ، فقل وصول القوافل إلى مصر عن ذى قبل لدرجة كبيرة وحرمت مصر أرباحاً طائلة كانت تجنيها من هذه التجارة .

وتحت الحكم المصرى فُتحت أركان بعيدة فى البلاد للتجارة ، وعمرت أسواقها ، وانتظمت المواصلات بها ، وعُرفت النقود فى جهات لم تكن تعرف عنها وعن فائدتها شيئاً ، وشقت متاجر جديدة طريقها — لأول مرة — إلى قائمة صادرات وواردات البلاد ، وتدفق عليها تجار من الأجانب لم ترهم من قبل ، وساد الأمن كل جهاتها .

وكان من أثر احتكاك تجار السودان بأفراد المجتمع الكبير فى الخرطوم وغيرها من المدن التجارية فى البلاد ، وبخاصة المصريين والترك والأجانب ، اختصار كثير من العملات والموازين والمكاييل والمقاييس بعد أن ظلت فترة طويلة بعد الفتح تحت الاختبار ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت أسواق هذه المدن لا تعتبر من هذه المقاييس جميعاً إلا ذوات القيمة المحددة ، هذا

فى الوقت الذى كانت فيـه جهات أخرى عديدة فى البلاد تعتمد مقاييس أخرى .

وإذا كان من أول نتائج الحكم المصرى قيام العاصمة الخرطوم فإن هذا قد غير بدوره من أهمية المراكز التجارية فى البلاد ، فبينما قلّت أهمية بعضها ازدادت أهمية البعض الآخر ، كما قامت مراكز أخرى جديدة لم تكن موجودة من قبل . كل ذلك فى الوقت الذى أصبحت فيه الخرطوم السوق التجارى الأول فى البلاد من حيث التسويق والتوزيع والاستيراد ، بل سوق كل المنطقة الممتدة بين وسط أفريقية وبحيرة تشاد والبحر الأحمر . أما أسواق السودان القديمة ذات الشهرة الكبيرة على عهد سلطنة الفنج — مثل بربر وشندى وسنّار فقد أصبحت تدور فى فلك النشاط التجارى لسوق الخرطوم وتقوم على خدمته ، وأصبحت مجرد محطات على طول خطوط القوافل الممتدة بين الخرطوم وجهات البلاد المختلفة .

وإذا كان الاحتكار على رأس سياسة محمد على التجارية فإن الحركة التجارية فى البلاد — مع ذلك — لم تتأثر كثيراً بهذه السياسة . والسبب فى ذلك أن القيم التى حددتها الحكومة لمعظم السلع التجارية التى تمّ احتكارها فى كردفان — مثلا — كانت تقل بقدر طفيف عنها فيما لو بيعت تلك السلع حرة فى سوق الأبيض ، وهذا مما أدى إلى تدفق متاجر كردفان إلى مصر والخرطوم . .

ولم تكن هناك على عهد سلطنة الفنج تجارة بالمعنى المعروف بين شمال السودان وجنوبه ، ولا شك أن تأخر المواصلات المائية فى السودان الشمالى كان له أثره فى تأخر علاقاته مع الجنوب ، وليس فى التاريخ ما يشير إلى أن السلطنة كانت تملك قوة بحرية تساعدها على حماية حدودها من غارات جيرانها الزنوج من الدينكا والشلوك الذين كانوا دائمى الإغارة عليها فى سرعة ومرونة كبيرتين . فلما حلّت الإدارة المصرية بالبلاد كانت مسألة الكشف

عن منابع النيل الأبيض من المسائل الهامة التى اهتمت بها ، خاصة وأن مجهودات جيمس بروس اقتصرت على كشف منابع النيل الأزرق . ومن أجل ذلك خرجت البعوث الحكومية وغير الحكومية منذ سنة ١٨٢٤ من الخرطوم لسبر غور النيل الأبيض ، وأقصى ما وصلت إليه فى تقدمها فى الجنوب الخط العاشر من خطوط العرض . فلما كانت زيارة محمد على للسودان (١٨٣٨ — ١٨٣٩) تحركت فى نفسه مسألة الكشف عن منابع النيل ، وتحت هذه الظروف قام البكباشى المصرى سليم قبطان برحلات ثلاث فى النيل الأبيض بين نوفمبر ١٨٣٩ ومارس ١٨٤٢ ، وأقصى ما وصلت إليه خط عرض ٢٤َ ٤° شمالا . ومع أن هذه الرحلات لم تصل إلى هدفها الخاص بالكشف إلا أنها نجحت فى مسألة أخرى هامة ، وهى فتح طريق الملاحة والتجارة إلى أعالى هذا النيل . وهكذا تهيأت الظروف لفتح باب التجارة على مصراعيه بين السودان الجنوبى والعالم الخارجى .

فتح أبواب السودان للأجانب:

وعندما تولى عباس الأول مقاليد الحكم ألغى احتكار الحكومة لمعظم المتاجر ، وكان ذلك نتيجة طبيعية لانصراف الحكومة عن احتكار التجارة فى مصر فى ذلك الوقت . وقد ترتب على ذلك اتجاه كثير من التجـار الأوربيين والسوريين إلى الجنوب لجمع العاج والاتجار فيه ، ثم لقنص العبيد عندما نضبت موارد العاج وقلّ الربح فيه ، محتمين فى ذلك بما كانوا يتمتعون به من امتيازات أجنبية ، حتى لقد شاركهم القناصل فى هـذه التجارة لقاء بسط حمايتهم عليهم . وأصبحت الخرطوم سريعاً مركز التجمع لكل التجار الأوربيين ، وكذلك المخاطرين والمبشرين الآتين من خارج البلاد .

ولقد صحب مجىء هؤلاء الأجانب نقص ملحوظ فى حقوق السيادة

الداخلية بسبب مطالبتهم بالتعويضات عند إصابتهم بأى سوء نتيجة الاعتداء عليهم أو غير ذلك ، الأمر الذى أرهق الخزانة إلى حدّ كبير وأدى إلى ارتباك مالية البلاد . ومع هذه الحال التى كانت عليها البلاد استمر نظام الضرائب الذى وُضع منذ أيام الفنج سارياً ، فى الوقت الذى ظهرت فيه شدة الحاجة إلى تعديل الضرائب من حيث توزيعها وتحديد فئاتها وإلغاء بعضها وتخفيف البعض الآخر وإعادة النظر فى طرق جبايتها . وهكذا كان المجال ما يزال متسعاً ، عند وفاة عباس فى يوليو ١٨٥٤ ، لإدخال ضروب الإصلاح المختلفة فى السودان ، وقد وقع عبء هذه المهمة على كاهل خليفته سعيد .

ومهما يكن فقد فُتحت البلاد على مصراعيها بعد فتح النيل الأبيض للملاحة لصنف آخر من الرجال ، هم الرحالة والمكتشفون الذين كانوا من جنسيات مختلفة ، وغطوا بكشوفهم رقعة كبيرة من حوض النيل . وقد لعبت الحكومة دور كبيراً فى تسهيل رحلاتهم الأمر الذى يختلف تماماً عما كانت عليه الحال قبل الحكم المصرى للبلاد . فقد كان الوالى يمنح الرحالة الفرمانات (أو تذاكر المرور) التى تضمن لهم مساعدة موظفى الحكومة طوال رحلاتهم ، وكانت الإدارة فى السودان تبذل كل غال فى سبيل تحقيق أوامر الوالى . ويكفى أن الرحالة هولرويد زار السودان سنة ١٨٣٦ وأقام فيه نحو ثمانية شهور استطاع فى خلالها أن يتجول فى إقليمىْ دنقلة وكردفان دون أن يصيبه مكروه على الرغم من أنه ظل محتفظاً بزيه الأوربى ، وهو أمر عدّه الكولونيل كامبل القنصل الإنجليزى فى مصر إذ ذاك « برهاناً ساطعاً على أن محمد علىّ قد غرس بذور المدنية والحضارة فى السودان » .

وصناعة هداية السياح من أبرز الصناعات التى ظهرت فى الخرطوم مع ظهور الرحالة والمكتشفين . فقد كانت رحلات الجنوب — مثلا — لا تغادر المدينة قبل أن تضم إليها عدداً من الدناقلة والجند الزنوج المرافيت (وهم الذين أتموا الخدمةالعسكرية) الذين تمرسوا فى مرافقة هذه الرحلات ،

لمعرفتهم بالطرق ولهجات أهل الجهات المقصودة . كما يجد الرحالة بين سكان الخرطوم من سبقهم إلى الجهات التي يقصدونها .

الحكم المصرى فى السودان على عهد محمد على فى الميزان :

ولا شك أن تحسن أحوال الأهالى نتيجة لاستقرارهم قد أسهم فى تقدم بعض المصنوعات المحلية ، هـــذا إلى جانب ما أصاب الزراعة والتجارة والعمران عموماً من تقدم على العهد المصرى — وهو ما سبقت الإشارة إليه . ولكن هناك من الصناعات ما ظهر مع الحكم المصرى ، مثل صناعة النيلة بعد أن أدخلت زراعة العظلم فى البلاد ، وصناعة الصابون وصناعة تنظيف وتصنيف الصمغ العربى حسب نوعه وحجم قطعه ، وصناعة تصنيف ريش النعام حسب جودته ونواحى استعماله ، والصناعات التى قامت على بعض الغلات الحيوانية مثل قرون الخرتيت وأنياب الفيل وأسنان فرس البحر ؛ هذا علاوة على صناعة بناء السفن التى بدأت منذ أنشئت ترسانة لصنع السفن على عهد الحكمدار على خورشيد (١٨٢٦ — ١٨٣٨) وبعد استقرار الأمور فى البلاد .

ومن الصناعات التى أينعت تحت الحكم المصرى صناعة حصر بذرة السمسم ، وصناعة صياغة الذهب والفضة . وكان محلات صياغة هذين الصنفين بالخرطوم أهم ما يطالعه الرحالة عند أول نزولهم المدينة ، وقد ازدحمت كتبهم بوصف تلك المحلات وعمالها المهرة والمصنوعات التى تنتجها من حلىّ للنساء وأدوات للمائدة وأخرى للزينة . وقد اطلع العالم الخارجى لأول مرة على مصنوعات السودان عندما عُرضت فى معرض باريس الدولى سنة ١٨٦٧ ، وقد حازت المشغولات الفضية المصنوعة فى الخرطوم إعجاب كل المشاهدين .

ولقد كان مما أثار إعجاب الرحالة لبسيوس(١) الذى وصل إلى الخرطوم فى شهر فبراير سنة ١٨٤٤ ذلك النشاط الظاهر فى بلدة الكاملين المنشأة حديثاً . فقد تحدث عن المصانع بها ، فتحدث عن مصنع للصابون والخمور يديره ألمانى ، ومصنع للسكر ، ومصنع للنيلة يديره أحد المواطنين . وهو يقرر أن إدارة هذه المصانع على أحسن ما يكون من النظام ، وأن النظافة فيها فائقة — وهو أمر غير مألوف فى البلاد .

وجملة القول أنه نتيجة للحكم المصرى فى السودان قامت الحكومة المستقرة فى الخرطوم ، وانبسط رواق الأمن والطمأنينة فى ربوع البلاد ، وارتفع ذكر بعض المدن القديمة وأنشئت مدن جديدة ، واستثمرت الموارد الطبيعية ، وجرى التنقيب عن المعادن ، وقضى على بعض العادات الهمجية : إذ اعتاد أهل فازوغلى — مثلا — التخلص من الطاعنين فى السن والعجزة والمرضى والضعاف بدفنهم أحياء . كما بذلت الحكومة الجديدة كل جهودها لتأمين الحدود ورد المغيرين عليها وبخاصة من ناحية الحبشة ، ولعجم عود قبائل البدو الجامحة وجعلها تألف الخضوع للقانون وأولى الأمر فى البلاد .

ومن الجدير بالذكر أن الحكم المصرى فى السودان كان يعتمد على ولاء السودانيين فى حكم البلاد ، فلم يكن لمصر بالسودان سوى قوة نظامية صغيرة ، وأصبحت سياسة إشراك العناصر الوطنية فى الحكم والإدارة — وهو ما انتهجته الإدارة المصرية منذ الفتح — أساساً للحكم فى البلاد . ويتضح هذا ، على سبيل المثال ، فى ذلك المركز الكبير الذى شغله الشيخ عبدالقادر ود الزين أيام محو بك (مايو ١٨٢٥ — يناير ١٨٢٦) وطوال الحكم

---

(١) Lepsius, Dr. R. ; Letters from Egypt, Ethiopia and Sinai, tr. by J. B. Horner. p p. 163-165.

المصرى بعد ذلك حتى وفاته ؛ فقد قلد وظيفة معاون الحكمدارية ومشيخة مشايخ عموم الجزيرة ، وقد استمرت هذه السياسة نافذة المفعول أيام عباس ؛ فكان المشايخ والزعماء يلقون كل حظوة لدى الحكمدارين ؛ كما أن عباس عين الشيخ على جلاّبى والشيخ محمد نور ضيف الله بمجلس الدعاوى — وهو بمثابة محكمة عليا ، كما عين الشيخ إبراهيم عبد الدافع مفتيا للمحكمة .

الثقافة العربية فى السودان

أدى فتح العثمانيين لمصر والشام والعراق إلى تحرك موجات من الهجرة من هذه الأقطار إلى السودان وسلاطينه من الفنج . وكان من بين المهاجرين جماعات من العلماء لقوا من هؤلاء السلاطين كل إكرام وترحيب ، منهم الشيخ إدريس بن محمد أحمد والشيخ حسن ودّ حسونه الأندلسى ، فكان هذا سبباً فى انتشار ثقافات عربية مختلفة فى البلاد كانت أقواها أثراً الثقافة المصرية . وكان من نتائج ذلك أن ارتحل كثير من السودانيين إلى مصر فى طلب العلم فى الأزهر بعد أن هدأت الأحوال فيها فى ظل الحكم العثمانى الجديد ، وبعد أن لمسوا النفوذ الكبير الذى يكتسبه الأزهريون السودانيون بين مواطنيهم بعد عودتهم من مصر وعند سلاطين الفنج .

ومع ذلك فإن الأثر الأكبر فى البلاد كان لأصحاب الطرق الصوفية ؛ ويرجع ذلك إلى الظروف التى مرت بها البلاد فى زمن سابق لعصر الفنج ، فقد أورث اشتداد الانقسامات الداخلية فى البلاد فى ذلك الوقت واشتعال العصبيات القبلية التى كانت تعمل على تمزيق البلاد كل ممزق فى نفوس السودانيين رغبة شديدة فى حياة بعيدة عن مزالق السياسة والعصبية ، فما أن وجدوا فى عصر الفنج فقراء زاهدين فى الدنيا ومشايخ يدعون إلى الانتظام فى سلك العبادة حتى لبّوا سراعاً فى ترحاب شديد وحماس بالغ . وهكذا

كانت الحالة فى السودان قبيل عصر الفنج أقوى عامل على انتشار الطرق الصوفية فى البلاد وخير تمهيد للدخول فيها والإقبال عليها[١] .

فلما كان عصر الفونج أصبح يشارك المكوك أو المناجل — رؤساء المشيخات — فى الشرف رهطٌ من (الفقراء) — أو (الفُقَرا) عند السودانيين ، وهم الزاهدون فى الدنيا ، والواحد منهم يدعى (الفقير) أو (الفَكى) ، واللفظ الأخير أكثر شهرة وهو محرف عن (الفقيه) ؛ وقد صار (الفَكى) منذ أواسط دولة الفنج معلم الطريق ومدرس القرآن ومرشد العامة فى كثير من أمور دينهم ودنياهم . وما أن مضت أجيال على قيام دولة الفنج حتى كانت فى سائر القبائل أسر دينيــة تلتزم سمت الفقر والصلاح وتأخذ بنيها بتعلم القرآن والتديّن ، والناس يُكبرونها ويجاونها لإجلالهم جدها الصــالح الأول واعتقادهم أن البركة حلت فى أفرادها بالوراثة[٢] .

وقد كان العلماء والصالحون فى مبدأ أمرهم طبقتين تتنافسان تنافساً شديداً : العلماء أهل الفقه يرون لأنفسهم فضلاً على الصالحين — وهم المتصوفة أهل الطريق ، وهؤلاء بدورهم يرون لأنفسهم فضلا على العلماء أهل الظاهر والشريعة الغائب عنهم علم الباطن والحقيقة .

وقد شجعت سلطنة الفنج هؤلاء الرجال جميعاً . ويُروى أن الشيخ عجيب ابن عبد الله بن جمّاع شيخ مشيخة العَبْدلاب (١٥٧٠ — ١٦١١) هو أول من حرص على العلماء ، وأكرم مثواهم وأقطعهم الضياع الواسعة ودر

---

(١) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث ص ٦٢ — ٦٣ .

(٢) الدكتور عبد الله الطيب : محاضرات فى الاتجاهات الحديثة فى النثر العربى فى السودان ص ٤ . ومن أقوال السودانيين : البركة ما بتقع فى التراب ، والبركة ما نزلت واطه .

عليهم أسباب الرزق . ولم يمض زمن طويل على السلطنة حتى نشأت طبقة من العلماء والصالحين تدّعي لنفسها شرفاً سماوياً موروثاً تناهض به الشرف الأرضي - الذي كان يزهو به السلاطين والملوك . ومن هؤلاء العلماء والصالحين من ادعوا لأنفسهم مجداً سابقاً لسلطنة الفنج ، فتبرأوا بهذا ونحوه من أن يكون لهؤلاء جميعاً أدنى فضل عليهم[1] .

وقد ظهر فى بعض القبائل العربية بالسودان فقهاء كبار كان لتقواهم وورعهم وإقامتهم خلوات العلم تأثير كبير فى تعمير الجهات التى أقاموا فيها ؛ وكان للمحس — على هذا الشكل — المركز الأول فى تعمير منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق حيث تقوم مدينة الخرطوم ، وقد بقيت لهم طوال العهـد المصرى (١٨٢٠ — ١٨٨٥) حرفتهم كفقهاء ومعلمين وأصحاب خلاوى ومعجزات ، وهذا مما أدى إلى رفع شأنهم عند ملوك الفنج والقبائل التى تخضع لهم واعتقاد الناس فيهم وفى شفاعاتهم ، ولهذا كثيراً ما منح هؤلاء الملوك مشايخهم الأراضى — الأمر الذى تثبته كثير من الوثائق . فمن الغَرْدَقاب نجد الفكى المشهور إدريس ود الأرباب الذى أسس والده مدينة العَيْلَفون التى اتسعت على أيام ولده بعد أن أقام فيها وجذب كثيراً من المحس إليها . ومن الخوجلاب الشيخ خُوجَلى عبد الرحمن الذى تُنسب إليه حِلّة خُوجَلى[2] ؛ واشتهر البُداناب بتأسيس بُرّى المحس[3] . أما نسل زيد بن عجم فقد عمّروا منطقة شمبات[4] وما حولها ؛ ويرجع الفضل إلى العوناب فى تعمير منطقة

---

(١) الدكتور عبد الله الطيب : المصدر السابق ص ٢ .

(٢) الحلة تطلق على المكان الذى يقوم فيه مائة منزل أو أكثر . وتقع حلة خوجلى على الضفة الشمالية أو الشرقية للنيل الأزرق فى مواجهة الخرطوم .

(٣) تقع حلة برى المحس شرق الخرطوم على مسافة غير بعيدة من ضفة النيل الأزرق الجنوبية أو الغربية .

(٤) تقع حلة شمبات على الضفة الشرقية للنيل الأبيض شمال الخرطوم فى مواجهة شمالى مدينة أم درمان .

البشاقرة(١) ، وقد ظهر فيهم الشيخ الكبير أرباب بن عون « الذى شدت إليه الرحال فى علم التوحيد والتصوف ، وبلغ عدد طلبته ألف طالب ونيف من دار الفونج إلى دار برنوا : تلامذته وتلامذة تلامذته تلامذته »(٢) .

والفقراء الصالحون أهل الطريق والدراويش أهل الطرق الصوفية طبقة كبيرة العدد ، وأصوات طبولهم تبدد سكون الليل فى السودان كله ، وكان عددهم فى الخرطوم سنة ١٨٥٠ — عند وصول رفاعة إلى المدينة — يوازى عدد المصريين والأوربيين معاً . وهم يقومون — علاوة على دورهم الدينى — بمعالجة الأمراض المستعصية ، وبخاصة الحمى والعقم والرمد . والقاسم المشترك فى وسائل العلاج عندهم هو تسجيل عدة آيات من القرآن على صفحة صغيرة من الورق أو الصينى ليغسلها المريض بالماء ثم يشربه ، أو تلف الورقة فى حجاب من الجلد . كما كانوا يقومون بإعطاء العهود للأهالى فيعاهدونهم — مثلا — على الامتناع عن التدخين وتناول المسكرات وفعل أى منكر مدى الحياة ، وهم أيضاً يسدون لهم النصح فى المشروعات الهامة قبل الإقبال عليها : كالسفر والصفقات التجارية والزواج وغير ذلك .

وعدد الدراويش ، أهل الطرق الصوفية ، أكبر من عدد الفقراء أهل الطريق ، وقد جاء معظمهم من خارج السودان ، وبخاصة من السودان الأوسط ومراكش وتونس وليبيا وشبه الجزيرة العربية وإيران . وهم يمثلون كل عقائد العالم الإسلامى ، وينتمون إلى أكثر من أربع وأربعين طريقة دينية . ولما كانوا من أجناس مختلفة فقد تباينت ملابسهم وأغطية رءوسهم

---

(١) البشاقره اسم لحلتين على ضفتى النيل الأزرق على مسافة غير بعيدة من جنوب الخرطوم .

(٢) محمد ضيف الله : كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ص ٣١ .

وما إلى ذلك . ولهم حرفهم التى يتعيشون منها ، فنجد من بينهم بحّارة ومتعهدى نقل بالقوافل وتجاراً ومعلمين للأطفال .

التعليم الدينى أو الأهلى فى السودان :

كان لمعاهد التعليم الدينى أو الأهلى فى السودان ، والتى كانت معروفة ومنتشرة فى معظم القرى الكبيرة فى شمال البلاد قبل الحكم المصرى ، أسماء مختلفة . ومن هذه الأسماء المسجد (أو المسيد) والجامع والمدرسة والمكتب والخَلْوَة ، ولكن الاسم الأخير كان أكثرها شيوعاً . والغالب أن المسجد أو الخَلْوة كان عبارة عن سور من القصب وفروع الشجر أو الطين يضم مربعاً أو مستطيلا به حجرات جانبية من القصب والأغصان أيضاً وراكوبات هى خلوات الحيران والفقهاء[1] .

وكان التعليم فى الخَلْوَة مجاناً ، ويُنفق على الحيران من دخل الشيخ وماله والهبات والنذور التى تقدم إليه . وصاحب الخلوة رجل من حفظة القرآن ينشئها فى بيته ويدرس فيها بنفسه وينفق عليها من عنده لوجه الله تعالى ، أو رجل من أهل اليسار — فقيهاً أو غير فقيه — فيؤجر فقيهاً براتب معلوم وينفق عليه وعلى تلاميذه ، وكثير من المشايخ كانوا أغنياء يملكون البهائم والأراضى الزراعية . وأحياناً يشترك فى إقامة الخَلْوة والإنفاق عليها أهل البلدة جميعاً فيختصونها بغرفة تلصق بالجامع . وإذا ازدحمت الخَلْوة بالحيران ولم يعد بها مكان للطلبـــة الغرباء فإن سكان الحلّة يقتسمونهم فيما بينهم ويبقونهم فى منازلهم ساكنين طاعمين .

---

(١) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية فى السودان الجزء الأول .
والراكوبة هى السقيفة تبنى من القصب ليجلس تحتها التلاميذ أمام حجرة من حجرات الخلوة ، والحيران هم التلاميذ .

وكان الحيران يخدمون شيوخهم فى الخلوة وخارجها بفلاحة الأرض وجمع الحطب ورعى الماشية وأحياناً إعداد الطعام ، على أنه لما كان نظام الرقيق سائداً فإن ذلك جعل من السهل إعداد الطعام للحيران . وكان الحيران يقدمون لمشايخهم شيئاً مادياً من حين لآخر على سبيل المساعدة والاعتراف بالفضل : ومن ذلك ما هو معروف باسم (الشرافة) ، وهى جعل من المال — عيناً أو نوعاً — يُقدّم إلى الشيخ بمناسبة وصول المتعلم إلى سورة خاصة من سور القرآن ، فإذا ما أتقن التلميذ قسما من أقسام القرآن زوّق لوحه وكتب عليه الآية الأولى من القسم التالى وحمله إلى أهله دلالةً على أنه حفظ قسما من القرآن فيرسلون معه إلى الفكى (الشرافة) . ومن ذلك ما هو معروف (بحقّ الأربعاء) ، وهو قدر من المال أو الحبوب أو الطعام يُقدم إلى الشيخ فى يوم الأربعاء من كل أسبوع ، وفى العادة يحمل كل تلميذ معه إلى الخلْوة فى هذا اليوم قليلا من الذرة فيسلقونها بالماء ويأكلونها مع الفكى ، وتسمى هذه الأكلة (كرامة الأربعاء) ، ويحمل الفكى معه إلى البيت قليلا منها على سبيل البركة ، وقد يأخذ كل ما يُقدم إليه إلى منزله[1]. وعلاوة على ذلك كانت تُقدم الهدايا إلى الشيخ فى المناسبات : كأيام الأعياد ، وعندما يفرغ التلميذ من التعلم .

وكانت طريقة التلقين والإملاء واستعمال اللوح الخشبى هى المألوفة فى الخلاوى . وكان الشيخ يجلس للدرس على العنقريب[2] أو الأرض فوق

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ج ١ ص ١٤٠ .
عبد المجيد عابدين : المصدر السابق ص ٨٥ — ٨٦ .

(٢) العنقريب عبارة عن إطار مستطيل من الخشب المنتج محلياً والمقام فوق أربعة أرجل ، ثم يملأ الإطار بشرائح رقيقة متشابكة من جلد الثور الرطب ، فإذا ما جف الجلد كان متيناً ومرناً فى نفس الوقت ، هذا ويملأ فراغ الإطارات فى العنقريبات الرخيصة بحبال الليف . وهذا النوع من العنقريبات لا ترتفع أرجله عن سطح الأرض إلا قليلا .

الفروة أو البُرش ، والتلاميذ يلتفون حوله فى حلقة على الأرض مفروشة أو غير مفروشة ، والفكى يُملى عليهم من الذاكرة عادة ، فيكتبون على الألواح ومعهم محابرهم وفى أيديهم أقلام من البوص ، حتى إذا استظهروا جزءاً محوه وكتبوا غيره مما يليه .

ومن المساجد والخلاوى ما يدرس فيها القرآن فقط أو العلم فقط ، وأغلبها كان لتدريسهما معاً . ولم تعرف فى هذه المعاهد مراحل التعليم بمعناها الفنى المعروف ، وكان التعليم يبدأ عادة بحفظ القرآن وقراءة بعض أحكامه ، ثم رتحل من حفظه إلى مسجد أو خلوة العلم أو يبقى فى نفس المسجد — إذا كان العلم يدرس به — حيث يتلقى علوم الدين . على أن كثيراً ممن شرعوا فى حفظ القرآن قد يتركون الخَلْوة قبل إتمامه . ومدة الدراسة فى الخلوة قد تصل إلى سبع سنوات .

والدراسة فى المسجد أرقى مستوى من الدراسة فى الخَلْوة . وقد جهد العرب فى السودان فى الفصل بين المرحلة الأولية التى كان مكانها فى الخَلْوة عادة وبين المرحلة العالية التى كان مقرها فى المسجد . وربما أطلقوا على تلاميذ الخَلْوة (فقراء القرآن) ، وتلاميذ المسجد (فقراء العلم)[1] .

والعادة أن تعمل الخَلْوة من شروق الشمس حتى غروبها ، ولكن كان هناك من الخلاوى ما يعمل أربع فترات فى اليوم : الفترة الأولى من الساعة الرابعة صباحاً حتى شروق الشمس ، والثانية من الثامنة صباحاً حتى التاسعة والنصف والثالثة من الساعة الواحدة بعد الظهر حتى الثالثة ، والرابعة من الغروب حتى الساعة الثامنة مساء .

ومن أهم الخلاوى بمدينة الخرطوم خلوة (صبّاحى) ، وهو أحد

(١) عبد المجيد عابدين : المصدر السابق ص ٨٤ .

الفتَيحاب من سكان المدينة ، وخَلْوَة الفَكى على ودْ إدريس « وهو محسي من جزيرة توتى ، والخَلْوة الملحقة بمسجد أرباب العقائد[1] » .

والخَلْوة إلى جانب أنها مكان للتدريس كانت مكاناً للتعبد والذكر والصلاة وهداية المريدين إلى طريق الصوفية — وهى الوظيفة الأولى التى اقترنت بها منذ ظهورها فى البلاد ، كما كانت منزلا ومحطاً للمارة والعابرين والطالبين للطعام والشراب والمنام .

عناية مصر بالتعليم الدينى أو الأهلى فى السودان على عهدىْ محمد على وعباس :

بعد ضم السودان إلى مصر كان الترك يدركون شيئاً من طبيعة النفوذ القبلى الذى كان يمثله المشايخ أو المكوك ، فعكفوا على إخضاعهم بكافة الوسائل والأساليب التى يلجأ إليها الفاتحون : كما كانوا يدركون بدرجة أقل طبيعة النفوذ الدينى ، فحرصوا على إكرام رجال الدين ؛ وربما اعتقدوا الصلاح فى بعضهم فصاروا لهم من جملة المحبين .

ومن أجل ذلك كانت العناية بالتعليم الأهلى فى السودان على عهد محمد علىّ ، فرُتبت المرتبات للفقراء حتى يتمكنوا من الإشراف على المساجد والخلاوى والقيام بتكاليفها والعناية بمن يؤمها من الحيران والفقراء وأبناء السبيل ؛ وحتى يتفرغوا لرسالتهم السامية دون أن يحسّوا ضيقاً فى العيش أو حاجة إلى السؤال تلهيهم عن جادة العمل . ومن ذلك أن الفقيه إبراهيم عيسى شيخ مسجد كُتُشْرانج بمديرية الخرطوم تقدم إلى الحكومة بشكوى من أن « الفقراء أخذت تتكاثر » فلم يعد المرتب الذى تصرفه له الحكومة يكفى

(١) فى رواية لإبراهيم صديق — ناشر طبقات ود ضيف الله — وعبد الرحمن جميل الله وأحمد على الإحيمر من حلة خوجلى : الزيارة فى شهرى أبريل ومايو ١٩٥٨ .

لمصروفات ذلك المسجد ، وأنه يريد علاوة شيء على ذلك المرتب »[1] ،
وقد قام المسئولون فى الخرطوم بالتحريات اللازمة ، وثبت لهم أن عدد الفقراء المتجمعين بالمسجد يبلغ واحداً وثمانين فقيراً ، وأن مرتباً قدره مائة وخمسون قرشاً مقيد من القديم باسم الشيخ . ونتيجة لذلك صدر أمر القاهرة « بإبقاء إبراهيم الفقى ناظراً بنفس المرتب مقيداً باسمه ، وأن يُسرّح أولئك المسنون والكبار الذين تجمعوا فى المسجد ، ويُقام بدلا منهم نحو خمسين صبياً ، على أن يُعطى لكل واحد منهم قرشان وربعتان من الذرة شهرياً : . : . ويقوم الشيخ إبراهيم بتعليم الصبيان القراءة والكتابة بكل نظر وتدقيق باذلا جهده فى ذلك »[2] .

وعندما رأى حكمدار السودان أن هذا المسجد فى حاجة إلى التجديد كتب إلى القاهرة « بطلب بناء عشر حجرات لسكنى الفقراء وإقامة سور للجامع من اللبن ، وأنه إذا أبدل الآجر باللبن يكون البناء أقوى وأمتن ، وأن تكاليف ذلك تبلغ ثمانية آلاف قرش »[3] . فكان ردّ القاهرة هو تنفيذ العملية فى الحال ، وبالآجرّ لا باللبن .

وعند وفاة الشيخ إبراهيم عيسى طلب الشيخ أحمد ابنه أن يخلفه فى وظيفته ، فقام حكمدار السودان « بسؤال قاضى بلاد السودان وعلمائها عن مقدار معلومات مقدم العريضة ، وعن أهليته وكفاءته ، فشهدوا بلياقته وكفاءته للقيام بخدمة المسجد المذكور فى محل أبيه المتوفى » . ولما كان لأبيه فى حياته

---

(١) دفتر رقم ٣٧٩ صادر ديوان المعية وثيقة رقم ٣٤٣٢
بتاريخ ١٤ ذى القعدة ١٢٦٠ إفادة إلى وكيل ديوان المالية .

(٢) دفتر رقم ٩٩٧ صادر ديوان المالية لمختلف الجهات وثيقة رقم ٧٦٧
بتاريخ ١٠ ربيع الأول ١٢٦٢ إلى حكمدار السودان .

(٣) دفتر رقم ٤٠٨ صادر المعية الإرادة التركية رقم ١١١٠
بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٢٦٣ إرادة إلى حكمدار السودان .

مرتب قدره مائة وخمسون قرشاً فى كل شهر ، علاوة على خمس عشرة جَدْعة فى السنة ، وكل جَدْعة قيمتها عشرون قرشاً[1] ، وكان أمر إحالة هـذا المرتب وتلك الجدعات إلى ولده وتخصيصها له منوطاً بالقاهرة ، فقد كان أمر القاهرة الصادر إلى حكمدار السودان فحواه « أنه ما دام الفَكى أحمد يسد مسد أبيه ، وأن القاضى والعلماء يشهدون بذلك ، فعليكم أن تقيدوا باسمه ما كان مرتباً لوالده . . . وهو أمر لا بد من إجرائه على وجه الاستحسان »[2] .

وقد استمر التعليم الدينى الأهلى هو التعليم الوحيد فى البلاد على عهد محمد على ، ولو أنه سافرت من السودان إلى مصر فى ذلك العهد بعثة ضمت ستة أشخاص من أبناء وجهاء تلك البلاد ، فصدرت الأوامر بإلحاقهم المدرسة التجهيزية توطئة لدراسة علم الزراعة ومعاملتهم معاملة ممتازة نوعاً عن التلاميذ الآخرين ، « نظراً لمجيئهم من بلاد بعيدة »[3] . ونحن لا نعرف شيئاً عن هؤلاء الطلبة إلا ما قال به رفاعة الطهطاوى[4] من أنهم « نُقلوا إلى مكتب الزراعة ثم إلى مدرسة الألسن . وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها فى بلادهم » . كما شاهد رفاعة بعض أفراد هذه البعثة — بعد رجوعها إلى السودان — يعملون كتبة بمديرية الخرطوم .

وقد دام اهتمام مصر بالتعليم الدينى فى السودان بعد وفاة محمد على ،

---

(١) الجدعة مساحة من الأرض قدرها خمسة أفدنة . وقد أعفى الشيخ من الضرائب المستحقة عن الأرض الزراعية التى فى حيازته ، والضريبة هنا عشرون قرشاً لكل جدعة .

(٢) دفتر رقم ٤٥٥ صادر المعية — المكاتبة التركية رقم ٣١٧ بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٦٤ — إلى حكمدار السودان .

(٣) دفتر رقم ٣٠٦ صادر ديوان المعاونة ـ جهادية — الوثيقة رقم ٩١٢ بتاريخ ٩ جمادى الآخرة ١٢٦٥ — من قلم الملكية فى الإسكندرية إلى مدير المدارس .

(٤) مناهج الألباب ص ٢٦٣ .

تلم تضن في عهد عباس الأول على مساجد العلم وبيوت الله بالإصلاح والتعمير ، بل والإنشاء . وكانت تبذل للمتعلمين السودانيين فى الأزهر نفقة الانتقال من مصر إلى السودان ، وتوصى الحكام الذين سيمرون بهم بحسن ملاقاتهم وتسهيل سفرهم ، كما كانت لا تضن على النابهين من أهل السودان بالوظائف مما كان له أثره فى تشجيع العلم والمتعلمين[1] .

(١) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤ — ٢٥ .

بعثة رفاعة إلى السودان

مدرسة الألسن فى أخريات أيامها :

لم يزل رفاعة ناظراً لمدرسة الألسن وقلم الترجمة ، يقود فى همة لا تعرف الكلل هو وتلاميذه الحركة العلمية فى مصر حتى أمر عباس باشا بإغلاق المدرسة وإرسال رفاعة ناظراً لمدرسة تقرر إنشاؤها فى الخرطوم .

وقد بدأت عملية إغلاق مدرسة الألسن بإلغاء قسم الفقه بها وفصل أساتذته وتحويل تلامذته إلى تعلم المحاسبة . وتلا ذلك (فرز) عدد كبير من طلبة المدرسة وفصلهم منها . وفى الشهر الأخير من سنة ١٢٦٥ هـ (اكتوبر ١٨٤٩ م) صدر الأمر بنقل المدرسة إلى مكان مدرسة المبتديان بالناصرية ، وبذلك حرمت المدرسة من مكانها الذى عاشت فيه أربعة عشر عاماً ، وكان محل فندق (شبرد) القديم أمام حديقة الأزبكية ؛ وقد ضاق بها مكانها الجديد حتى اضطروا إلى نقل (الكتبخانة الأفرنجية) (والأنتيكات) إلى المهندسخانة ببولاق . ولم تمض أيام على ذلك حتى أغلقت المدرسة — وكان ذلك فى شهر المحرم سنة ١٢٦٦ هـ (نوفبر ١٨٤٩ م) ، وضم تلامذتها إلى المدرسة التجهيزية قبيل إلغائها ، واقتصر عمل رفاعة على نظارة قلم الترجمة حتى صدر الأمر برحيله إلى الخرطوم[1] .

صدور الأمر بإنشاء مدرسة الخرطوم وناظرها رفاعة :

فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٦٦ هـ (مايو ١٨٥٠ م) أرسل المجلس الخصوصى إلى مدير المدارس يخبره بأنه يبحث موضوع إنشاء مدرسة بالخرطوم ، وأنه استحسن أن يُولَّى عليها أمير الآلاى رفاعة بك الموظف

---

(١) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر جـ ١ ص ٥٨ — ٥٩ .

بديوان المدارس ؛ حيث أن المدرسة المطلوب إنشاؤها ستكون « تابعة لأصول المدارس المصرية ونظامها المرغوب ، ولا سيما المبتديان والتجهيزية » ، هذا علاوة على أن رفاعة بك « ملم بأصول المدارس وتنسيقها كما ينبغى وتنظيمها نظاماً حسناً » ، وأن « له الخبرة فى اصطفاء المدرسين الذين تحتاج إليهم تلك المدرسة ، وبيان مصاريفها الشهرية والسنوية من المأكولات والملبوسات على النسق المتبع فى المدارس المصرية » . وبعد أسبوع واحد (يوم ١٣ رجب) أخبر مدير المدارس المجلس الخصوصى باتصاله برفاعة الذى قام بالمطلوب منه من انتخاب المدرسين من بين رجال أكفاء ، ووضع بياناً عن سائر الموظفين والملبوسات والفرش والجرايات والرواتب والتكاليف الإجمالية لذلك كله ، فبلغت ٣٣٨٠٣٣ قرشاً و٣٩ بارة سنوياً طبقاً لأسعار القاهرة : ونتيجة لذلك صـــدر قرار المجلس الخصوصى بإنشاء المدرسة فى اليوم الخامس عشر من رجب ، وبعد ذلك بيومين أصدر عباس أمره إلى ديوان المدارس بالمبادرة إلى تنفيذ قرار المجلس الخصوصى بكل اهتمام ؛ حيث أنه اطلع عليه ووافق على العمل بموجبه ووقعه ، « وحيث أن الأقاليم السودانية ديار واسعة ، ولم تُنشأ بها مع عظم مساحتها أية مدرسة »(١) .

وكان إنشاء المدرسة من أجل أبناء سكان البلاد الأصليين من مشايخ وأهلين ، وأولاد وأحفاد الأتراك الذين استوطنوا تلك الديار منذ سنين ، لإنقاذهم جميعاً « من حضيض الجهل وإعدادهم لاكتساب المعارف » ، على أن يقيد بها نحو مائتين وخمسين طفلا يخص كل منهم ستة قروش شهرياً .

وكان على حكمدار السودان أن يساعد فى تنسيق المدرسة وتنظيمها ، وأن

---

(١) محفظة رقم ٤ أوامر لديوان المدارس الوثيقة التركية رقم $\frac{\text{٤ أصلى}}{\text{١٧ مسلسل}}$

بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦ من الخديو عباس إلى مدير ديوان المدارس

، دفتر رقم ٥٩٧ ديوان الكتخدا المكاتبة رقم ١٦٩٦

بتاريخ ٦ رجب ١٢٦٦ إلى ديوان المدارس .

يقيد رواتب هيئة التدريس ومأكولاتهم وملبوساتهم وغير ذلك من حاجاتهم ، ابتداءاً من تاريخ قدومهم ، ويصرفها لهم عند حاول مواعيد صرفها طبقاً للكشف المرسل إليه من مدير المدارس ، وأن يخصص مكاناً مناسباً للمدرسة ، وأن يدبر باقي الموظفين « والخدمة من كاتب ووزّان ووكيل خرج وغسّال وسقاء وطاهٍ » ويختارهم من أهل البلاد :

وكان على رفاعة أن يسارع عند إبلاغه بالقرار إلى الانطلاق إلى محل مهمته مستصحباً الأحد عشر مدرساً والطبيب ، وألاّ ينقطع عن مراقبتهم وتذكيرهم دائماً بمهمتهم ، وأن يحمل التلاميذ دائماً على السعي والاجتهاد . وقد ضمّت قائمة رفاق رفاعة الأسماء الآتية :

١ — القائمقام محمد بيومى أفندى
٢ — الصاغقول أغاسى أحمد طائل أفندى
٣ — الملازم أول على محمد أفندى
٤ — الملازم ثان على عثمان أفندى
٥ — « « إبراهيم محمد أفندى
٦ — « « محمد مرسى أفندى
٧ — « « أمين أفندى
٨ — الشيخ رجب
٩ — « مكاوى — وكان الشيخ رجب وهذا الشيخ عالميْن بالأزهر
١٠ — « إسماعيل فرغلى
١١ — « أحمد (الواعظ) ، وقد اختفى عن عيون الإدارة على أثر تعيينه فعين بدله الشيخ محمد المكاوى .
١٢ — الطبيب سليمان السيوطى أفندى

وهكذا أصبحت بعثة رفاعة إلى الخرطوم حقيقة واقعة ، وبقى أن ترى المدرسة النور .

هل اتخذ إنشاء المدرسة ذريعة لإبعاد رفاعة إلى السودان ؟ :

والآن ، كيف تتفق نزعة عباس فى إغلاقه المدارس فى مصر مع قراره بإنشاء مدرسة فى الخرطوم ؟ :

يكاد يجمع كل من تصدى لترجمة حياة رفاعة على أن مدرسة الخرطوم قد خُلقت خلقاً لإبعاد رفاعة إلى السودان ؛ فإن عباساً — عندهم — كان يكره العلم والمتعلمين ، ولقد طالما ضاقت بالعلماء — أمثال رفاعة — صدور الحكومات الفاسدة والرجال الجهلة[1] . كما أن الحاكم الطاغية يحب أن يسود الجهل بين رعيته لتسهل قيادتهم ، فيركن إلى إغلاق معاهد العلم وينبذ أساتذتها :

ولكن الدكتور محمد فؤاد شكرى[2] يرى أن إغلاق المدارس على عهد عباس يتفق مع اتجاهه فى التعليم — هذا الاتجاه القائم على أساس إقامة مدرسة واحدة فى القاهرة (المفروزة ، وهى مدرسة تجهيزية حربية) ، وإقامة أخرى مثيلة لها فى الخرطوم ، والذى كان جزءاً من البرنامج التعليمى الذى اتبعه فى مصر ذاتها ، والذى انبرى بعض كبار الباحثين من علماء الإفرنج لتوضيح أغراضه بصورة لا تدع مجالا للشك فى أن عباساً لا يمكن أن يعمد إلى إلغاء معاهد العلم بجرة قلم دون تقدير للعواقب . ومعنى ذلك أنه إذا كانت (المفروزة) قد افتتحت بالقاهرة سنة ١٨٤٩ فالخطة — على هذا الأساس — أن تُفتتح زميلة لها فى الخُرطوم سنة ١٨٥٠ .

---

(١) محمد الصادق حسين : السياسة الأسبوعية السنة الثانية العدد ٦٤ ص ٢٠ .

(٢) الحكم المصرى فى السودان ص ٤٩ — ٥٠ .

وقد يتمشى مع هذا القول ويفسّره أن إغلاق المدارس أيام عباس يرتبط أكثر ما يرتبط بواقع الأحوال في الأعوام الأخيرة من عهد محمد عليّ . فقد كان افتتاح المدارس في ذلك العهد وإرسال البعثات إلى الخارج وإنشاء المصانع والاستعانة بالأساتذة والفنيين الأجانب بعد اقتباس النظم الأوربية في إدارة هذه المدارس والمصانع — كان كل ذلك في الدرجة الأولى وقبل كل شيء من أجل الجيش وبنائه وتطويره ، ومن أجل إدارة البلاد بعد ذلك : فلما نقص عدد الجيش في أواخر أيام محمد عليّ كان طبيعياً أن تغلق المدارس والمصانع التي لم تعد هناك حاجة إليها — وخاصة وقد انتهت الحروب مع السلطان وضمنت الدول الأوربية الحدود بين كل من أملاك محمد عليّ وأملاك السلطان .

لقد كانت المدارس الابتدائية في مصر قبل سنة ١٨٣٦ سبعا وستين مدرسة ، وفي سنة ١٨٣٦ — وطبقاً للائحة المدارس الابتدائية الصادرة في شهر ذي العقدة من سنة ١٢٥١ هـ — أصبحت خمسين مدرسة ، ثم أنقصت بعد ذلك إلى اثنتين وأربعين مدرسة فقط . وبعد أزمة الحكم الكبرى (١٨٣٩ — ١٨٤٠) حين استقرت الأمور ، وهدأ نشاط محمد عليّ العسكري ، وخفض عدد الجيش ، وصارت وظائف الحكومة والإدارة لا تتسع لهذا العدد الضخم الذي أتمّ تعليمه في المدارس ، وساءت الحالة الاقتصادية بما ترتب عليها من ضرورة الاقتصاد في النفقات — بعد هذه الأزمة تفاقمت أزمة التعليم ، مما اضطر الباشا إلى معاودة البحث في نظام التعليم على ضوء جديد . لذلك تألفت برياسة إبراهيم باشا لجنة اتخذت عدة قرارات وافق عليها الباشا في ١١ أكتوبر سنة ١٨٤١ (٢٤ شعبان ١٢٥٧ هـ) ، وألغيت بمقتضاها كل مكاتب المبتديان أي المدارس الابتدائية ، كما ألغيت المدرسة التجهيزية بالقاهرة ومدرسة الموسيقى .

وهكذا أصيبت المدارس الابتدائية من جرّاء هذا التنظيم (المعروف بترتيب ١٢٥٧ هـ) بأكثر مما أصيب ســـواها . ولكن لما كانت المدارس الابتدائية والمدرسة التجهيزية الملغاة هى الأساس الذى تقوم عليه المدارس الخصوصية فقد عُهِد إلى لجنة جديدة إعادة النظر فى أمر المدارس الملغاة حتى يُعاد منها ما تمسّ الحاجة إليه مع ملاحظة سياسة الاقتصاد ، وقررت هذه اللجنة إنقاص عدد التلاميذ بمعظم المدارس وإلغاء بعض الأقسام بها والاكتفاء بخمس مدارس ابتدائية ، ولم يتغير هذا العدد حتى نهاية عصر محمد علىّ[1] . والجدير بالذكر أن رفاعة كان عضواً فى معظم هذه اللجان .

كان عهد عباس فى ناحية التعليم إذن امتداداً للفترة الأخيرة من عهد محمد علىّ . كما كان على عباس أن يحل مشكلات عسيرة الحلّ بدون مال ؛ فقد كان عليه أن يرسل الهدايا إلى السلطان كواحدة من الوسائل ليحمله على التراجع عن تنفيذ سياسته فى نزع امتيازات مصر كما ظهرت فى محاولة تطبيق (التنظيمات الخيرية العثمانية)[2] تطبيقاً كاملا على مصر . وعلاوة على ذلك كان عباس فى حاجة ملحة إلى المال ليحلّ به مشاكله فى السودان — وهى مشاكل تراكمت فى فترة شيخوخة محمد علىّ .

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكرى ، عبد المقصود العنانى ، سيد محمد خليل : المصدر السابق ص ٩٩ .

(٢) صدرت (التنظيمات) ، وتعرف (بخط شريف كلخانه) فى نوفمبر سنة ١٨٣٩ ، وهى عبارة عن القوانين والأنظمة التى تكفل أمن رعايا الدولة العثمانية على أموالهم وأعراضهم وأرواحهم . وقد أثار الباب العالى أزمة (التنظيمات) بعد وفاة محمد على عند ما أراد تطبيق القوانين الإدارية للدولة العثمانية تطبيقاً كاملا على مصر (وممتلكاتها) ، وفى هذا فرض لرقابة دقيقة تحت إشراف حكومة الآستانة على كل شئون الحكم والإدارة فى البلاد وعودة بالبلاد — إذا ما نجح السلطان فى تطبيق التنظيمات فيها — إلى ما كانت عليه قبل إصدار فرمانات الوراثة بين سنتى ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ، فتفقد البلاد بذلك وضعها الممتاز بين أقاليم الإمبراطورية العثمانية وتصبح مجرد مقاطعة من مقاطعاتها .

كان السودان يقاسى منذ وفاة الحكمدار أحمد أبو ودان (أبريل ١٨٣٨ — أكتوبر ١٨٤٣) الكثير من المخاطر التى أججها تحول حكم البلاد إلى النظام المركزى على عهد خليفته الحكمدار أحمد باشا المنكلى (أكتوبر ١٨٤٣ — ديسمبر ١٨٤٥) ؛ فقد ترتب على هذا التحول فقدان الحكمدار الجديد لسلطة الإشراف والمراقبة على مديرى الأقاليم فى السودان بعد أن أصبح كل مدير مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالقاهرة . ولقد زادت الحكمدارية ضعفاً بضعف الحكمدار خالد باشا (ديسمبر ١٨٤٥ — أكتوبر ١٨٤٩) الذى عجز — كما عجز الحكمدار الذى سبقه — عن الكشف عن حقيقة الحالة فى البلاد للوالى فى مصر ، فبقيت الحال نفس الحال حتى عهد عباس حين بدأ الحكمدارون — والنابهون منهم بصفة خاصة — يفيضون فى وصف الصعاب التى تجابه البلاد ؛ ومن هذه الصعاب انبثقت مسألة وكأنها بنت الساعة ، وإن كانت فى الواقع ترجع إلى ما قبل ذلك ، وهذه المسألة خاصة بما تقاسيه البلاد من نقص فى الموظفين ، وهى ما حملت الحكمدار أحمد المنكلى على التوصية بضمّ مديرية سنّار إلى مديرية فازوغلى ، وكذلك حالت دون تنفيذ وصيته الخاصة بتقسيم مديرية دُنقله الواسعة إلى مديريتين (دُنقله وبربر)[1] ، وهى نفس وصية الحكمدار عبد اللطيف باشا (أكتوبر ١٨٤٩ — ديسمبر ١٨٥١) .

وقد استمرت المطالبة بالأمداد من الجند والموظفين طوال عهد عباس ، ووصلت حدّة الحاجة إليهم فى عهد الحكمدار إسماعيل أبو جبل (يونيو ١٨٥٢ — أبريل ١٨٥٣) ، مع الشعور باستبعاد سدّ هذه الحاجة وعجز الدولة عنه ، إلى درجة ذيّل معها هذا الحكمدار أحد تقاريره التى دبّجها بهذا الخصوص بهذه العبارات : « . . . . ولقد قيدت عريضتى هذه فى سجل

---

(١) دفتر رقم ٢٠٩ معاونة الأقاليم — الوثيقة رقم ١١٥٨
بتاريخ ١١ شوال ١٢٥٩ — إرادة إلى أحمد المنكلى .

خاص ، فلم أطلع عليها أحداً ولا سجلتها فى سجلات الحكمدارية ، فإذا اشتملت الأمور التى أشرت إليها موافقتكم السامية حصل المطلوب ، وإن لم تلق الموافقة فإنى مضطر إلى كتم إرادتكم السامية التى ستصدر سداً لباب اللغط الذى سيحدث فى هذه الديار »[1] .

ومنذ عهد الحكمدار خالد باشا (ديسمبر ١٨٤٥ — أكتوبر ١٨٤٩) ، حين عادت البلاد إلى نظام اللامركزية فى الحكم — وهو النظام الذى أثبتت التجارب الإدارية حتى ذلك الوقت أن فيه تقدم البلاد واستقرارها وسيرها فى طريق الحكم الصحيح — كان نجاح هذا النظام ومصير البلاد الإدارى مرتبطين بما يمكن أن توفره القاهرة من الجند والموظفين لكفالتهما وضمان التقدم والاستقرار فى البلاد . وكان من وسائل عباس لحل الأزمة إشراك العنصر الوطنى فى تدبير شئون الإدارة ، واختيار الأكفاء من الموظفين ما أمكنه الاختيار لمناصب الإدارة[2] . وأخيراً ، كان من وسائل عباس — بالإضافة إلى ذلك — فى حل هذه الأزمة افتتاح مدرسة بالخرطوم يمكنها أن تمد الإدارة المدنية فى البلاد بالكتبة بعد ثلاث أو أربع سنوات ، وكذلك القوة العسكرية بكتبتها (بلوك الأمناء) ، فإذا مضت أربع سنوات أخرى وتخرج تلاميذ القسم التجهيزى أصبح إمداد الإدارات المختلفة بمجموعات طيبة من الموظفين أمراً محققاً .

وهكذا تبدو أهمية قيام مدرسة بالخرطوم على عهد عباس لتسهم فى حل أزمة الإدارة فى البلاد — هذه الأزمة التى بدا حلها حتى ذلك الوقت غير ممكن بغير الاستعانة بخريجى هذه المدرسة . وهكذا نجد أنه بقدر ما فى

---

(١) محفظة رقم ١٨ بحر برا   الوثيقة رقم ١١٨
بتاريخ ٧ ذى الحجة ١٢٦٨   إلى الجناب العالى .

(٢) راجع الصفحات الأخيرة من هذا الفصل .

رأى القائلين « بأن عباساً — الذى أغلق المدارس فى مصر — إنما أسس مدرسة الخرطوم ليتخلص من رفاعة » من وجاهة نجد أن عدم التسليم بهذا الرأى ، بل ورفضه بشكل قاطع ، ليس فيه مجانبة للصواب . وإذا لم يقبل تفسيرنا بأن تأسيس المدرسة قائم على الحاجة إليها لأهميتها فى حل أزمة الإدارة فى البلاد ، فبم نفسر اهتمام عباس بافتتاح المدرسة بعد وصول رفاعة إلى الخرطوم كما سيظهر من الوثائق الرسمية ، فى حين أنه كان يمكنه ، وقد حقق قصده بوصول رفاعة فعــلا إلى الخرطوم على ما يقول القائلون ، أن يكتفى بذلك ولا يعبأ بالمدرسة بعد ذلك فتحت أم لم تفتح ؟ . وإذا أجيب على هذا بأن الباشا قد انقلب فقط إلى العناية بافتتاح المدرســة بعد وصول رفاعة إلى الخرطوم وصرف اهتمامه إليها — وكان الأصل فى تأسيسها هو إبعاد رفاعة كما يقول القائلون — يردّ على ذلك بأن تعبئة الجهود لتأسيس المدرسة ، وسيرها سيراً طيباً يحتق الغرض الملح من إقامتها كانا على درجة عالية من أول الأمر . وتتضح صحة ما نقول به فى أن قرار إنشاء المدرسة كان جامعاً لكل صغيرة وكبيرة عنها ، كما تتضح هذه الصحة إذا قارنا ما كانت عليه هيئة التدريس فى مدرسة الخرطوم بمثيلتها فى المدرسة الابتدائية فى مصر ، فهى فى المدرسة الأخيرة ذات المائة تلميذ تتكون من ناظر ووكيل ومدرسين [1]، وهى فى مدرسة الخرطوم ذات المائتين والخمسين تلميذاً — كما هو مقرر لها قرار إنشائها — تتكون من ناظر وأحد عشر مدرساً . وأخيراً ، هل يمكن أن نتصور أن عباساً يضحى بعدة ألوف من الجنيهات هى ميزانية المدرسة فى السنة — مع تصور قيمة الجنيه فى ذلك الوقت ، لكى تكون ثمناً لإبعاد رجل واحد إلى السودان ، حتى ولو كان هذا الرجل رفاعة الطهطاوى ؟ ؛ وبعد ذلك كله ، إذا لم نقبل الإقرار باهتمام عباس بالتعليم لتوفير الموظفين

---

(١) الدكتور محمد فؤاد شكرى ، عبد المقصود العنانى ، سيد محمد خليل : المصدر السابق ص ٦٣٩ — ٦٤٠ .

اللازمين للسودان والاهتمام بإنشاء مدرسة بالخرطوم من أجل هذا الغرض ، فبم نفسر الاستمرار فى إرسال البعوث إلى أوربا فى عهد عباس[١] ؟ .

لماذا كان اختيار رفاعة بالذات ناظراً للمدرسة ؟

ولكن كيف نقبل أن تكون هيئة المدرسة جماعة من أركان النهضة العلمية فى مصر وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوى زعيم هذه النهضة ، ومعه بيومى أفندى[٢] من قدامى أساتذة مدرسة المهندسخانة ورئيس قسم ترجمة كتب العلوم والرياضة بقلم الترجمة الملحق بمدرسة الألسن ، وأحمد طائل أفندى تلميذ بيومى وزميله والمدرس بالمهندسخانة والمتخصص فى ترجمة كتب هذين الفرعين ، وسليمان السيوطى أفندى الطبيب ذو الكفاءة العالية التى تبز معارف زملائه الأوربيين فى الحالات المرضية المستعصية[٣] . وكل ذلك فى الوقت الذى لن يتيسر فيه لتلاميذ المدرسة الاستفادة من هؤلاء العلماء وهم لا يزالون يحبون على أول مدارج العلم ؟ .

قد يقال إن المدرسة المراد إقامتها كانت مدرسة ابتدائية ، ولكن يجب أن نقول إن المرسوم لها أن تستمر الدراسة فيها لمن أتم الدراسة الابتدائية بنجاح لتكون مدرسة ابتدائية تجهيزية . ويكفى لأهميتها أنها مدرسة واحدة

---

(١) راجع : الأمير عمر طوسون : المصدر السابق ص ٤١٦ — ٤٨٧ .

(٢) ذكر أمين سامى فى تقويم النيل (الجزء الثانى : ص ٤٣٤ — هامش ١) أن حكومة فرنسا أرسلت فى سنة ١٨٥٠ (١٢٦٦ هـ) أحد أقران بيومى أفندى بمدرسة الهندسة التى كان بها فى فرنسا لزيارته فى الخرطوم ، وبعد زيارته طبع كتاباً عنوانه : بيومى أفندى فى منفاه ١٨٥٠ .

ويشير الدكتور جمال الدين الشيال فى « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على » (ص ١١٢ — هامش ٤) أنه بحث كثيراً عن هذا الكتاب ولكنه لم يوفق فى العثور عليه .

(٣) Hamilton, J. : Sinai, The Hedjaz and Soudan. p. 344

فى طول البلاد وعرضها ، وليس لها فى مصر — الدولة الأم — إلا مثيلة واحدة ؛ وتنظيم مدرسة تجهيزية فى ذلك الوقت ليس بالأمر السهل الذى يقدر عليه كل الرجال . « والمطلوب أن تكون المدرسة تابعة لأصول المدارس المصرية ونظامها المرغوب ، ولا سيما على نسق المبتديان والتجهيزية »[1] ، وما أحرى رفاعة رجل التربية والتعليم بالقيام على إخراج المطلوب على أحسن وجه ، وخاصة بعد أن أصبحت الحاجة إليه فى القاهرة أقل مما كانت عليه قبل إغلاق مدرسة الألسن ومعاهد التعليم المختلفة وركود حركة الترجمة من الفرنسية التى كان رفاعة وتلاميذه روادها .

ولكن إذا كان رفاعة ليس الخبير الوحيد فى البـــلاد بمثل المهمة التى أسندت إليه فلماذا اختير هو بالذات لرئاسة بعثة الخرطوم ؟ . يشير رفاعة إلى جواب هذا السؤال فيقول : إنه أُبعد « بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر »[2] ، كما يردد نفس الجواب عند قوله[3] :

وما خلت العزيز يريد ذلّى ولا يصغى لأخصـــام لداد

قياس مدارسى قالوا : عقيم بمصر ، فما النتيجة فى بعادى

والآن ، من يا تُرى هؤلاء الوشاة الذين حملوا عباساً على إبعاد رفاعة إلى الخرطوم ؟ . ولماذا كان لهم هذا الدور ؟ . إن المؤرخين المعاصرين لا يمدوننا بالجواب الشافى عن هذين السؤالين[4] .

---

(١) محفظة رقم ٤ أوامر لديوان المدارس الوثيقة التركية رقم ٤ أصلى / ١٧ مسلسل
بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦ من الخديوعباس إلى مدير ديوان المدارس .

(٢) مناهج الألباب : ص ٢٦٥ .

(٣) نفس المصدر : ص ٢٦٨ .

(٤) انظر — السيد صالح مجدى : حلية الزمن بمناقب خادم الوطن سعادت المرحوم رفاعة بك .
على باشا مبارك : الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وقراها ج ١٣ ص ٥٥ .
جرجى زيدان : مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر ج ٢ ص ٢١ .
تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

قد يكون هؤلاء الوشاة من الحاقدين على رفاعة الذين رأوا فى بعض كتاباته وآرائه ما لا يتفق مع طبيعة الحكم الاستبدادى فى مصر ؛ إذ لا يخفى أن كتابه (تخليص الأبريز) طبع للمرة الثانية سنة ١٢٦٥ هـ أى فى أوائل عهد عباس ، والكتاب يحوى مبادئ وآراء لا يرغب فيها الحاكم المستبد ، فلا بد أن الوشاة قد لفتوا نظره إلى ما فى الكتاب مما لا يروق له ، فرأى أن يبعده وأمثاله إلى الخرطوم ليبعد أفكارهم وثقافتهم عن مصر[١] .

ومن المحتمل أن يكون رفاعة قد لقى معارضة بعض المشايخ المتعصبين الذين ربما عدوه متطفلا على ميدانهم فى دراسة الشريعة والفقه ، ومن هنا تجمع الحقد عليه والكيد له ولمدرسته (مدرسة الألسن) ، فانتهى الأمر بغلق هذه المدرسة أولا ثم إبعاده إلى السودان بعد ذلك[٢] .

ويضيف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم[٣] إلى ذلك أن بعض الباحثين يرون أصبع علىّ مبارك — الذى عاد من أوربا مليئاً بالأطماع وكان ينفس على رفاعة ما أصاب من مكانة — فيما شاع من سوء التفاهم بين عباس ورفاعة . وقد يكون فى علىّ مبارك — علاوة على ذلك — ما قرّبه إلى نفس عباس ؛ إذ لم يكن مزاجه ثورياً بحكم منشئه وتربيته ، وكان مبدؤه الطاعة التامة لولى الأمر مهما كان[٤] .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى بك : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر جـ ٣ ص ٤٨٩ — ٤٩٠ .

(٢) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر جـ ١ ص ٥٨ .

(٣) نفس المصدر : ص ٥٧ — ٥٨ .

(٤) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ١٩٩ .

وراجع أيضاً : أحمد عرابى : مذكرات عرابى الجزء الأول كتاب الهلال العدد ٢٣ ص١٩٦ — ١٩٨ . ويشير الزعيم أحمد عرابى فى مذكراته إلى مراوغة على باشا مبارك فى تنفيذ قرارات المؤتمر العام الذى عقد فى القاهرة فى ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ أثناء الثورة العرابية ، وكان — وهو أحد أعضاء هذا المؤتمر — المكلف بحمل هذه القرارات إلى الخديو بالإسكندرية

ومصداقاً لأهمية الدور الذى قام به الوشاة لإبعاد رفاعة إلى السودان يقرر الدكتور على رفاعة الأنصارى (١) — وهو من عائلة رفاعة — أن المتواتر فى العائلة أن رفاعة تعجب عند تولية عباس أنه من سخرية القدر أن يتولى أمر البلاد من يدمن تعاطى الأفيون ، فما أن نقلت هذه الوشاية إلى الوالى حتى أصدر الأمر بإبعاده تحت ستار إنشاء مدرسة بالخرطوم .

وقد أشار بيومى أفندى زميل رفاعة فى السودان عند مقابلة الرحالة الإنجليزى ج : مللى فى الخرطوم أنه يلقى اللوم كله فى موضوع إبعاده إلى السودان على المحيطين بالباشا وعلى النمامين — ومن بينهم تلاميذ من تلامذته . ويقرر ج : مللى بعد هـذه المقابلة أن قصة بيومى وأمثاله تتلخص فى عمل هؤلاء النمامين على التخلص منهم ليحل محلهم تلامذتهم الذين سوف لا يتدخلون فى أعمال الباشا(٢) .

وقد يرجع إبعاد رفاعة إلى هذا الانشقاق المعروف فى البيت الحاكم فى ذلك الوقت : إذا تقرب أحد إلى بعض غضب عليه البعض الآخر ، يرضى محمد على وإبراهيم باشا عن الشيخ رفاعة فإذا جاء عباس غضب عليـه وأخرجه من إدارة مدرسة الألسن وعينه ناظراً لمدرسة ابتدائية تنشأ فى الخرطوم ، ويرضى عباس عن على مبارك ويقربه إليه ويعهد إليه فى تنفيذ أمور كثيرة ، فإذا جاء سعيد باشا غضب على على مبارك وأعاد الشيخ رفاعة وقربه إليه . . . . وهكذا(٣) .

ويسير فى هذا الطريق وعلى هذا الدرب الرحالة الأجانب ممن قابلوا

---

(١) فى زيارة لسيادته فى اليوم الأول من شهر يوليو سنة ١٩٧٢ .

(٢) **Melly, G. : Khartoum and the Blue and White Niiles, Vol. II. p. 100**

(٣) أحمد أمين : المصدر السابق ص ١٩١ .

وقال على باشا مبارك فى خططه « إنه كان لسعيد ميل إلى المترجم » — أى إلى رفاعة ، ج ١٣ ص ٥٥ .

رفاعة فى الخرطوم ، ففتح لهم قلبه وأفضى إليهم بسريرة نفسه : وهؤلاء الرحالة هم الرحالة الإنجليز : ج. هاملتن ، جورج مللى ، أندريه مللى ، والرحالة الأمريكى بايارد تيلور[1]. ويجمع هؤلاء الرحالة على أن رفاعة بك وزميله بيومى أفندى من رجال محمد علىّ الذين خدموه بكل طاقتهم : وبعضهم كان يرتبط بمحمد علىّ وأسرته بأكثر من ذلك ، مثل طبيب البعثة الذى كان طبيباً خاصاً لعائلة إبراهيم بن محمد على[2] . ويقرر أندريه مللى[3] أن علاقة رفاعة وبيومى كانت وثيقة للغاية برجالات محمد علىّ أمثال : لينان بك وكلوت بك ولمبير بك وحكيكيان بك[4] ، وأن الزمن قد عفا عليهم جميعاً وأُبعدوا إلى الأقاليم البعيدة بذهاب محمد علىّ .

وفى الحقيقة لقد كان رفاعة معجباً كل الإعجاب بمحمد علىّ : فهو عنده وحيد زمانه فى جميع أوصافه ، وفريد أوانه فى عدله وإنصافه[5] ؛

---

(١) ها هى ذى كتب رحلات هؤلاء الرحالة :

a) Hamilton J. : Sinai, the Hedjaz, and Soudan. London, 1857.

b) Melly, G. : Khartoum and the Blue and White Niles, 2 Vols. London, 1851.

c) Melly, A. : Lettres d'Egypte et de Nubie. London, 1852.

d) Taylor, B. : A Journey to Central Africa . New York, 1854.

(٢) Hamilton, J. ; op. cit. p. 344.

(٣) Melly, André ; Lettres d'Egypte et de Nubie. p.130.

(٤) Linant Bey, Clot Bey, Lambert Bey, Ekikian Bey

ولينان بك هو المهندس الفرنسى الشهير الذى خدم مصر أيام محمد على . وكلوت بك هو مؤسس كلية الطب وكبير أساتذتها ، ولمبير بك هو مدير المهندسخانة حتى نهاية عهد محمد على . وحكيكيان بك عمل فى أول الأمر مديراً للمهندسخانة ، ثم تولى عدة وظائف هامة منها نظارة مدرسة العمليات ، وقد تولى رئاسة (الجمعية المصرية) أكثر من مرة — وهى جمعية علمية أسست فى مصر سنة ١٨٣٥ . وقد اشتغل الثلاثة الأخيرون بالنواحى التعليمية ، وكانوا أعضاء فى لجان التعليم المختلفة . ومن الجدير بالذكر أن حكيكيان بك كان ذا أثر بارز فى لفت أنظار محمد على إلى موضوع تعليم البنات :

الدكتور محمد فؤاد شكرى ، عبد المقصود العنانى ، سيد محمد خليل : المصدر السابق ص ٦٦٦ .

(٥) مناهج الألباب : ص ٢٠٨ .

أما مصر فقد أدركت مرامها به ، « ولولا أن رزقت به لدُرست رسومها بالكلية »[1] ، أما ما يجب أن يكون عليـــه الرجال الذين يخدمون رجلا كمحمد علىّ فيرى رفاعة أن محمد علىّ « لو حظى فى أوائل توليته برجال يتصفون بالسياسة والرياسة وذكاء العقول لكان أعظم أبطال الدنيا »[2] ، ورفاعة فى ذلك يحس بينه وبين نفسه بالفخر والإكبار ؛ إذ يعمل فى خدمة هذا الرجل وأنه أهل لهذا العمل :

ويكاد يُجمع الرحالة الذين قابلوا رفاعة وبيومى فى الخرطوم[3] على أن النقطة الحسّاسة الفعّالة فى نفور عباس وكرهه لكثير من كبار الأتراك والمصريين هى أنهم كانوا لا يؤيدون مشروعه الخاص بوراثة العرش ، والقاضى بأن يخلفه ابنه إلهامى باشا من بعده بدلا من أرشد أفراد العائلة ؛ وهو سعيد باشا بن محمد على ، كما يقضى بذلك نظام وراثة العرش : ومن هنا لجأ عباس — بما عرف عنه من غرابة الأطوار وكثرة التطيّر وميله إلى القسوة — إلى نفى كل من استشعر أنه يقف حجر عثرة فى سبيل تنفيذ خطته لوراثة العرش ، وكان النفى دائماً إلى مدينة الخرطوم ، فإذا استبد سوء الظن بالباشا كان النفى إلى أعالى النيل الأزرق حيث يتربص الموت بالمنفيين من كل جانب ، وكان يتخذ لنفيهم إلى هناك صورة ظاهرة وهى الاشتراك فى إقامة القلعة الكائنة بمديرية فازوغلى[4]. وكان بعض المنفيين يفوّتون

---

(١) مناهج الألباب : ص ٢٣٧ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٢٢ .

(٣) انظر على سبيل المثال : Hamilton, J. ; op. cit. p. 343 & p. 401, Taylor, B.; A Journey to Central Africa. p. 292,

(٤) دفتر رقم ٦٦٣ ديوان الكتخدا — الوثيقة رقم ٤٢ بتاريخ ٢٢ محرم ١٢٧١ — من الجناب العالى إلى الكتخدا .
كشفت هذه الوثيقة عن قصة هذه القلعة بوضوح ، كما تتضمن أمر سعيد باشا بعد توليه العرش مباشرة بإبطال العمل فيها .

على عباس ما أراده لهم بالنفى إلى السودان فكانوا يهربون بعد وصولهم إلى هناك إلى سواكن أو مصوع التابعتين للسلطان فى ذلك الوقت[١] ، ولكن قليلا من المنفيين من كانت تسعفهم إمكانياتهم لتنفيذ هذه المحاولة .

ولقد كان رفاعة يرى وجوب المحافظة على قوانين الدولة ، وبخاصة ما ارتبط منها بسياستها العليا وقواعد الحكم فيها . كما كان يرى فى نظام وراثة العرش القائم نظاماً يضمن استقرار الأحوال فى البلاد ، ونحن نحس ذلك بحرارة عند ما يتحدث عن إبراهيم باشا أرشد أفراد العائلة وخليفة والده فهو يرى فيه خير خلف لخير سلف[٢] . وقوانين وراثة العرش عنده على رأس ما يجب المحافظة عليه ، فقد « اقتضت قاعدة كون درء المفاسد مقدماً على جلب المصالح اختيار التوارث فى الأبناء وولاية العهد على حسب أصول كل مملكة بما تقرر عندها ، فكان العمل بهذه الرسوم الملوكية ضامناً لحسن انتظام الممالك »[٣] ، وفى هذه العبارات إفصاح ما بعده إفصاح عن مشاعر رفاعة نحو محاولة عباس إحلال ابنه فى العرش من بعده دون أرشد أفراد عائلة محمد علىّ وصاحب الحق فى العرش .

ويجب ألا نقلل من كره عباس لمحمد علىّ وأبنائه ورجاله ، فلقد ملأ هذا الكره قلبه وملك عليه حياته : فكُره عباس بدأ من كرهه نظام وراثة العرش الذى يمنع ابنه من أن يخلفه ، إلى كرهه محمد علىّ وولده سعيد باشا ولىّ العهد ، إلى كرهه كل ما يحب سعيد ومنه السلاح البحرى الذى كان سعيد قائداً له فى عهد والده ، إلى كرهه كل من خدم محمد علىّ

---

(١) محفظة رقم ٢ معية ، الوثيقة رقم ٥٤٠ بدون تاريخ ، من حكمدار السودان .

(٢) مناهج الألباب : ص ٢١٣ .

(٣) نفس المصدر : ص ٣٥٤ .

من رجال وكل المحافظين على النظام القائم عموماً — ومنهم رفاعة الذى كان يقدس النظام ومارسه بجد ٍ فى كل أعماله بمصر وفرنسا .

وعلاوة على ذلك يكاد يجمع الرحالة الذين قابلوا رفاعة وبيومى فى الخرطوم على أنهما كانا على صلة بالسلطان . فهاملتن[١] يقرر أن السلطان كان قد دعا رفاعة ليملأ وظيفة شاغرة فى جامعة استانبول الجديدة ، ولكن الخديو عباس حال دون هذا الاستدعاء . ولقد وصل الأمر بـ . ج . مللى[٢] إلى أن يقرر أن اتصال رفاعة وبيومى بالسلطان لم يكن لمجرد تقديم الخدمات والخبرة فيما برزا فيه من علوم وفنون ، بل إنه كان هناك احتمال لتقبل الرواتب منه لأنهما كانا يؤازران سياسته تجاه مصر — هذه السياسة التى كان هدفها سلب الامتيازات التى تمكن محمد علىّ من نزعها من السلطان بعد جهد جهيد . ولقد كان مما أسرّ به رفاعة وبيومى إلى أندريه مللى[٣] ، وهما يجأران بالشكوى من عباس وينزلان عليه اللعنات ، أنهما يتمنيان لو يقضى أو يحدث بينه وبين السلطان ما يؤدى إلى عزله وإحلال سعيد باشا محله .

ومهما يكن الأمر ، يجب ألا نأخذ أقوال الرحالة الأجانب هذه على أنها قضايا مسلم بها ، فإن ما قادهم إلى هذا الرأى إلا ما كان بين السلطان وعباس من خلاف شـــديد بسبب محاولات السلطان الاعتداء على حقوق مصر ، واعتقادهم أنه كان على رجالات مصر أن يأخذوا إما جانب السلطان أو جانب عباس ، ومن الطبيعى — عندهم — أن رفاعة كان فى جانب السلطان ما دام قد أبعده عباس إلى السودان .

إننا نميل إلى أن تكون مسألة وراثة العرش فى مصر ، بحكم علاقات

---

(١) op. cit. p. 344.

(٢) op. cit. p. 101.

(٣) op. cit. p. 131.

رفاعة ومشاعره تجاه محمد علىّ ورجاله ، على رأس أسباب النفور بين رفاعة وعباس . ومن هنا كان فى إرسال رفاعة إلى السودان إصـــابة لعصفورين بحجر واحد : إبعاده عن مصر فهو من حزب سعيد باشا بدون أدنى شك ، وقيامه على إنشاء مدرسة بالخرطوم تُسهم فى حل مشاكل الإدارة فى السودان .

وهكذا قامت العمد التى امتد عليها صرح النفور بين رفاعة وعباس الذى زاد من صلابته أن رفاعة كان كبيراً فى وطنه ، وأن لكلمته دوياً وسط طلبته وزملائه . ويتضح هذا النفور فى الإجراءات السريعة لإرسال رفاعة إلى السودان ، فلم تمضِ أكثر من عشرة أيام بين بدء البحث فى إنشاء مدرسة الخرطوم (يوم ٦ رجب) وبين صدور قرار المجلس الخصوصى بإنشائها (يوم ١٠ رجب) ومطالبة ديوان المدارس تنفيذ هذا القرار (يوم ١٧ رجب) . وهكذا تمّ إبعاد رفاعة إلى السودان بعد أن نفخ فى خطره أعداؤه الذين يفيدون من هذا الإبعاد ، وهم ما قصدهم رفاعة عند قوله إن سفره إلى السودان كان « بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر » .

هل كان المقصود من نقل الموظف المصرى إلى السودان هو نفيه ؟

وعلى هامش إبعاد رفاعة إلى السودان يجب أن نقرر حقيقة : فقد جهد كثير من الكتاب الأجانب للربط بين سعى الموظفين المصريين بالسودان فى الرجوع إلى مصر وبين مشاعرهم نحو السودان البعيد عن مصر ، وانتهوا إلى أن المراد من نقل الموظف المصرى إلى السودان كان إطلاقاً نفيه فيه ؛ وليس بمستغرب أن يكون تفكير الكتاب الأجانب على هذا النحو ، فقد تضمنت كتب بعض الموظفين المصريين فى الخرطوم ما يفيد تبرمهم بالحياة فيها وشكواهم من الإبعاد إليها ، وبعض هؤلاء الموظفين ممن تيسّر لهم مقابلة الرحالة الأجانب فى الخرطوم هم المسئولون الأوّل عن ذيوع اعتقاد النفى وتوطينه فى عقول هؤلاء الكتاب .

وقد نبتت فكرة النفى هذه أيام عباس باشا عند ما كان يرسل إلى السودان بعض الموظفين المعاقبين والجند العاطلين والمجرمين ، وكذلك بعض كبار الترك والمصريين لأمر لا يتعلق بالعمل وما إليه ، بل — فى معظم الأحيان وكما أشرنا من قبل — لعدم تحمسهم لمشروعه الخاص بأن يخلفه على العرش ولده إلهامى باشا . وهذا الأمر بعينه — تحيط به وتغلفه أمور دفينة فى نفس عباس — هو الذى أملى عليـــه أن يشك فى كل المحيطين به من عائلة جده وأنصار عمه سعيد بما فى ذلك ابنه وأمه كذلك .

ويتضح من ذلك أن (النفى) إلى السودان لم يكن تعبيراً عن سياسة عباس ولا تجسيداً لها عنـــد ما كان يصدر أوامره بنقل (الموظفين) إلى السودان ، فإن (النفى) أمر (والموظف والوظيفة) أمر آخر ، ولا يمكن أن يكون وضع الموظفين فى هذه البلاد بالشكل الذى أراده لهم الكتاب الأجانب ، فقد كان هناك نظام للخدمة فى السودان منذ عهد محمد علىّ وُضع لضمان استقرار الموظفين والإسهام بشكل فعال فى تعمير البلاد ومراعاة العدل بين الأهالى[1] ، وآية ذلك أنه عندما تقدم ثلاثة من كبار الموظفين المصريين فى السودان على عهد عباس بالشكوى إلى الباب العالى طالبين العودة إلى مصر ، وعند ما طلب هذا من عباس نقلهم نجد عباساً يكتب إليه بأن « هؤلاء الرجال لم يرسلوا إلى السودان منفيين أو مبعدين ، وإنما أرسلوا ليكونوا حكاماً يتولون مناصب الحكومة برتبهم ومخصصاتهم — شأنهم فى ذلك شأن سواهم من الموظفين والحكام المعينين لمثل هـــذه الغاية فى البلاد . . . . فإننا لو استدعيناهم — خلافاً للأحوال المتبعة ولما تنته مدتهم بعد — لوجب تطبيق هذه القاعدة على سواهم من كبار الضباط والموظفين ، بل لوجب تطبيقها على الحكمدار نفسه . فإذا ما تم ذلك رأينا عمال الحكومة الذين يتطلب الأمر

---

(١) محفظة رقم ٣ أوامر لديوان الجهادية — وثيقة رقم ٢٣٨ مسلسل ، ٤٤ أصلى قرار مجلس العموم رقم ٩٨ المؤرخ فى ٢٢ محرم ١٢٦٤ .

ويقول هاملتن (ص ٣٤٨) : فى عهد محمد على كانت الخدمة فى السودان تحترم أكثر مما تخاف لأنه كانت تصحبها عادة ترقية ، وكانت مدتها ثلاث سنوات فقط يرقى بعدها الموظف مرة ثانية إذا أراد الاستمرار فى عمله بالسودان .

تعيينهم فى السودان يرغبون عن السفر إلى هناك »(١) .

وعلاوة على ذلك ، كان عباس — أحياناً — يسأل كبار الموظفين رأيهم فى قبول الخدمة فى السودان قبل إصدار الأمر بنقلهم إلى هناك(٢) : بل إنه كان مهتماً جد" الاهتمام باختيار الرجال الأكفاء لإدارة البلاد ، فقد أصدر أمره غداة توليته بأن يكون مديرو المديريات بالسودان ممن لا تقل رتبهم عن رتبة أميرالاى ؛ حيث أنه « مستغن عن التفصيل والبيان أن الملحقات السودانية قد صُرِف عليها إلى الآن أموال وفيرة ومساع جمة »(٣). ولا يمكن أن يريد عباس الخير للبلاد وفى نفسه تجاه الموظفين مشاعر النفى والإبعاد والتعذيب ، وهو الذى يقرر أنه ليس من المصلحة فى شيء أن تُهمل إدارة السودان وتضيع الجهود والأموال التى بذلت فى ترقيته منذ الفتح حتى عهده ، فإن هذا لو تم" « لما يشين سمعة الجناب الخديوى ويحط من قدر إدارته ، وهو مما لا يجوز بحال قبوله أو السكوت عليه »(٤) . وهو الذى يقول لسليم

---

(١) دفتر ٦٢٨ ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ١٨٣
بتاريخ ٢٢ محرم ١٢٦٨ إلى القبو كتخدا .

(٢) عند عزل الكدار لطيف باشا وتعيين رستم باشا مكانه أصدر عباس باشا أمره « بوجوب استقدام رستم باشا ولأخذ رأيه فى هذا الأمر ؛ إذ أن إرساله لهذه المهمة إلى السودان يجب أن يقوم على رغبته وقبوله لهذا المنصب » : دفتر رقم ٦٢٨ ديوان الكتخدا — الوثيقة رقم ١٨٥
بتاريخ أول صفر ١٢٦٨ إلى المهردار .

(٣) أمين سامى : تقويم النيل المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٢٤
إرادة للكتخدا فى ٢٤ شوال ١٢٦٥ (٢ سبتمبر ١٨٤٩) .

ولقد ترتب على تلك السياسة أن أصبحت أقاليم السودان — بالرغم من الصعاب والأخطار التى كانت تواجه إدارة البلاد فى ذلك الوقت — تتمتع بإدارة رجال أكفاء وحلوا كثيراً وزادت خبرتهم نتيجة لذلك : Melly, G. : op. cit. p. 102

(٤) دفتر رقم ٦٢٨ ديوان الكتخدا — الوثيقة رقم ١٨٣
بتاريخ ٢٢ محرم ١٢٦٨ إلى القبو كتخدا .

باشا صائب عند تعيينه حكمداراً للسودان : « واحفظ الرعية من أنواع التعدى والاختلال ، وابسط لهم بساط العدل على التمام كقوله عليه أفضل الصلاة والسلام : العدل إن دام عمر ، وكقوله : كلكم راعٍ وكل راعٍ مسئول عن رعيته »[1] . وهو الذى يقول فيه الحكمدار عبد اللطيف باشا — وهو يشكو إلى الرحالة بايارد تيلور من عدم انقياد الأهالى لأوامر الإدارة : إن عباساً سوف يفصله من عمله لا محالة إذا حاول أن يشتد عليهم قليلا[2] .

إن عباساً لا يمكن أن يريد لأهالى السودان الخير ويرميهم بموظفين منفيين ليجروا عليهم هذا الخير ويمدوا بينهم بساط العدل ، وفاقد الشىء لا يعطيه . إن انطباع (النفى) الذى سيطر على تفكير بعض المصريين فى السودان يرجع إلى عاطفة جارفة تتردد بين جنوبهم بالتعلق بمصر والالتصاق بأرضها وصعوبة الابتعاد عنها ، وهى طبيعة فى المصريين بعيدة الجذور ، وتمتد إلى أقدم العصور ، وقد قرظها الرحالة الفرنسى ب . تريمو[3] عند قوله : إن المصريين المقيمين فى السودان فى أحوالهم العادية — كالمصريين عادة — بشوشون مهذبون أجواد ، فإذا استبد بهم الشوق إلى مصرهم فإن اليأس يعتريهم ويعزب عنهم العدل . وهذا السيل من التماسات الموظفين الذين يطلبون فيها العودة إلى مصر عند انتهاء مدة خدمتهم فى السودان مرجعها إلى هذه الطبيعة بعينها . فإذا سُمح لهم بالعودة تركوا — فى معظم الأحيان —

---

(١) دفتر ١٠١ عربى . الأمر رقم ١٢٣ بتاريخ ١٦ رجب ١٢٦٩ .

(٢) Taylor, B. : op, cit. p. 391

(٣) Tremaux, p. ; Le Soudan. p. 32 & p. 37.

عائلاتهم السودانية — زوجات وأولاداً — إلى القدر . ومع أن رفض الزوجات اصطحابهم إلى مصر كان — في الواقع — اللبنة الأولى في هذا الاتجاه ، إلا أن هذا لم يمنع أنه بتقدم الزمن بالحكم المصري في السودان تزايد عدد المولدين من أب مصري وأم سودانية الآخذين عن أمهاتهم الطباع والمشاعر — وعلى رأسها كره مصر والمصريين ، وعن آبائهم بعض ما خفف من سواد بشرتهم .

افتتاح مدرسة الخرطوم

بعثة رفاعة تصل إلى الخرطوم :

فى يوم ٢٠ رجب ١٢٦٦ (أول يونيو ١٨٥٠) تم تبادل المكاتبات بين كل من ديوان المدارس وديوان الكتخدا ونظارة المالية وترسانة بولاق بشأن توفير وسائل ترحيل رفاعة وصحبه — من قوارب وجمال وغير ذلك — إلى السودان على وجه السرعة . وفى اليوم التالى أخطر ديوان الكتخدا ترسانة بولاق بتوفير (ذهبية) لترحيلهم من القاهرة حتى أسوان ، وكان عليهم أن ينقلوا بعـد ذلك بالقوارب إلى كروسكو ، ثم يمتطون الجمال إلى الخرطوم .

ويبدو أن رفاعة وصحبه لم يمكثوا فى القاهرة بعد صدور الأمر بترحيلهم ، إذ غادروها إلى السودان فى الثلث الأخير من شهر رجب (الثلث الأول من شهر يونيو) . وقد استقل رفاعة وصحبه (الذهبية) فى النيل بادئين رحلتهم ومعهم من مهمات المدرسة الأحرمة والسجاجيد وألواح الصفيح والمراكيب وغيرها . وهكذا أصبحت بعثة رفاعة إلى الخرطوم حقيقة ، وبقى أمر إنشاء المدرسة فى انتظار الخروج إلى حيز الوجود ، وهو الأمر الذى لن يتم قبل مرور ثلاث سنوات كاملة ، أى فى شهر يوليو سنة ١٨٥٣ .

والآن ، ما هى الحقيقة حول تأخير افتتاح المدرسة طوال هذه السنوات الثلاث ؟ . وما هى الظروف التى أدت إلى هذا التأخير ؟ . أكبار الرجال ممن كانت لهم علاقة بافتتاح المدرسة وارتبط مصيرها برأيهم وتدبيرهم — مثل حكمدارى السودان — قد كانوا وراء تأخير افتتاح المدرسة ؟ . أم هو رفاعة بطل هذا الدور ؟ . أم هو عباس الذى كان همه الوحيد — على

ما يقول القانون — من بعثة رفاعة إلى الخرطوم هو نفيه وإبعاده ولا شيء بعد ذلك وأبعد منه ؟ . أم هم التلاميذ قد لعبوا هذا الدور ؟ . أم أن هناك عوامل أخرى غير هذه العوامل والظروف جميعاً أدت إلى هذا التأخير ؟ .

ومحاولة لوضع النقاط فوق الحروف سنحاول البحث فى دور هؤلاء جميعاً فى تأخير افتتاح المدرسة .

هل الحكمدارون هم المسئولون عن تأخير افتتاح المدرسة ؟ :

أما عن الحكمدارين ، فقد أعطى الحكمدار عبد اللطيف باشا (اكتوبر ١٨٤٩ — ديسمبر ١٨٥١) مهمات المدرسة وطرابيشها إلى فرق الجيش . كما أن الحكمدار إسماعيل باشا أبو جبل (يونيو ١٨٥٢ — أبريل ١٨٥٣) أوضح للقاهرة أن إرسال مهمات بديلة من مصر إلى السودان « وإرسال أربعة خوجات وواحد حكيم بدل المتوفين ، وهذا وهذا جميعه بدون لزوم ، وفقط استجداد مصروفات على هذا الإقليم بدون فائدة »[1] ، وكان هذا الحكمدار قد أشار — قبل ذلك بيومين — إلى بعض الضباط « الذين استغنى عن خدماتهم فى المدرسة بحسب الترتيب الموضوع لها »[2] .

وعلاوة على ذلك كانت الحكمدارية تستغل هيئة التدريس فى الأعمال العامة بعيداً عن المدرسة وأعمالها ، ويقرر الحكمدار على باشا سرى (مارس — ديسمبر ١٨٥٤) فى أحد تقاريره المرفوعة إلى القاهرة تبريراً لذلك أنه « ليس لدينا مهندسون : : : . يقومون بإنشاء المبانى التى تدعو الحاجة إلى بنائها بالأقاليم السودانية وغير ذلك من الأعمال التى تختص بالهندسة .

---

(١) دفتر ١١٣ وارد المعية عربى من حكمدار السودان — الوثيقة رقم ٨ مرور ص ٣٠٨ بتاريخ غرة جمادى الأولى ١٢٦٩ .

(٢) راجع : دفتر ٦٤٠ ديوان الكتخدا إلى الباشا الباشمعاون — الوثيقة رقم ٩ بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر ١٢٦٩ .

أو يتخذون الوسائل الهندسية فى الجيش ، عندما يراد سوقه إلى جهة »[1] ؛

ولقد بلغ الأمر بالحكمدار إسماعيل باشا أبو جبل (يونيو ١٨٥٢ — أبريل ١٨٥٣) إلى أن يصدر أمراً بإرسال رفاعة بعيداً إلى الشمال للتقرير عن عدد السواقى وأشجار النخيل بمديرية دنقلة توطئة لربط الضرائب على الأهالى ، ولقد جاء الاعتراض على هذا التكليف من جانب القاهرة ، وكان من بين ما خاطبت به الحكمدار : « وقد استغربنا هذا الأمر ، فإنكم لعلى علم بأن رفاعة بك قد عُيِّن لتنظيم مدرسة الخرطوم ووضع أسس الدراسة فيها ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف تقدمون على استخدامه بمهمة تحقيق تعداد النخيل بحجة عدم وجود وظيفة له ، وعليه نطلب منكم إعادته إلى المهمة التى أرسل من أجلها إلى السودان — وهى تنظيم مدرسة الخرطوم ، كما نطالب منكم بيان الأسباب التى حملتكم على هذا التصرف الغريب »[2] ؛

هل رفاعة هو المسئول عن تأخير افتتاح المدرسة ؟ :

أما عن رفاعة، فليس هناك من شك فى أنه قد آلمه فى السودان شعوره بأنه منفى ، فقد كان ذلك الشعور يملأ نفسه ، ويفرض نفسه على فكره ، ويطل منه على لسانه ، فقد ظل رفاعة يشكو من الشكوى من وجوده هناك (بوسيلة نظارة مدرسة الخرطوم) ، ونقل شكواه هذه وشكوى زملائه — وفى طليعتهم بيومى أفندى — الرحالة الأجانب الذين قابلوهم فى الخرطوم . فقد فتح كل من رفاعة وبيومى قلبيهما لأندريه ملى[3] — على سبيل المثال — وأسرّا إليه بأن حالهما فى الخرطوم — مثل غيرهما من المنفيين فى السودان —

---

(١) صورة كتاب على باشا سرى حكمدار السودان رقم ٦٧ المرسل إلى كتخدا الخديوى فى ٤ من ذى الحجة ١٢٧٠ ، وكان ذلك الكتاب بعد صدور الأمر بإغلاق المدرسة .

(٢) دفتر رقم ٦٤٥ ديوان الكتخدا الوثيقة رقم ٩١ .
إلى حكمدار السودان بتاريخ ٣٢ ربيع الآخر ١٢٦٩ .

(٣) Melly. André : op. cit. p. p. 130-31.

أسوأ من حال العبيد ؛ لأن لهؤلاء — إذا حدث ما يكدرهم من سادتهم — الحق فى الابتعاد عنهم وفراقهم والانتقال إلى سادة جدد بالبيع ، فى حين إن الموظفين المصريين لا يمكنهم أن يرفضوا وظائفهم أو يقدموا استقالاتهم أو يتركوا البلاد ، بل عليهم أن يذهبوا إلى حيث يراد إرسالهم — حيث لا شىء غير العمل فى صمت وبلا شكوى . كما أفضى رفاعة إلى الرحالة الأمريكى بايارد تيلور[1] بأن اثنين من هيئة التدريس بالمدرسة قد توفيا متأثرين بسوء الجو ، وأن عباساً يرمى إلى التخلص من بقية هيئة التدريس — ومن بينهم رفاعة — على نفس هذا النحو . ويقرر هذا الرحالة أنه بعد أن استمع إلى هذا الحديث الذى أمّن عليه الدكتور ريتز (Dr. Rietz) — قنصل النمسا فى الخرطوم وأحد الحاضرين، وصديق رفاعة — أحسّ بمرارة اللعنات التى يكيلها رفاعة على رأس حاكمه الجلاّد .

ومما زاد من شكوى رفاعة وهو فى السودان تألمه لما أصاب معظم زملائه من مرض ووفاة ، وبخاصة بيومى أفندى صديقه وصفيّه فى مصر وفرنسا والسودان ؛ ويظهر ذلك فى قوله : « فلبثت (فى الخرطوم) نحو الأربع سنين بلا طائل ، وتوفى نصف من بمعيتى من الخوجات المصريين »[2]. كما يقول تلميذه ومترجم حياته السيد صالح مجدى[3] : « ولم يرجع معه رحمه مولاه إلى القاهرة المحروسة إلا من كان فى أجله فسحة » . وقد دهش الرحالة الإنجليزى هاملتون[4] الذى رأى رفاعة فى الخرطوم — وكان قد رآه

---

(١) Taylor, B. : op. cit. p.p. 292-930

(٢) مناهج الألباب : ص ٢٦٥ .

ويردد رفاعة نفس الحقيقة فى قوله :

وحسبى فتكها بنصيف صحبى كأن وظيفتى لبس الحداد

(مناهج الألباب : ص ٢٦٧) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) op. cit, p. 323.

ب مصر قبل ذلك بعدة سنوات — لعظم ما أصاب صحته من تدهور بسبب جوّ السودان .

وأخطر عامل — بدون شك — فى تشكيل حال رفاعة عند ما يبتعد عن مصر هو شوقه للوطن والأهل والعيال . أليس رفاعة هو الذى أنشأ القصائد يبدى فيها الحنين إلى مصر وهو فى باريس المبعوث المعزز المكرم ، حيث ألف الحياة هناك وألفته ، وحيث بهرته فنونها وشغل بتقصّى أسرارها ، أليس هو القائل — مع ذلك — وهو هناك :

مع أننى ، والله مذ فارقتهم ما طاب لى عيشى وصفو زمانى
لكننى صبّ أصـــون تلهفى حتى كأنى لست باللهـــفان
وبباطن الأحشاء نار لو بدت جمراتها ما طاقهـــا الثقلان
أبكى دماً من مهجتى لفراقهم وأود ألا تشـــعر العينـــان[1]

وإذا كان هذا حال رفاعة وهو فى باريس ، فماذا ننتظر أن يكون عليه حاله وهو فى السودان على غير المرام ؟ . من الطبيعى أن تشتد به العلّة هناك ، وفى ذلك نجده يقول وهو فى الخرطوم :

وقد فارقت أطفالا صغاراً بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكر فيهم سراً وجهراً ولا سمرى يطيب ولا رقادى
وعادت بهجتى بالنأى عنهم بلوعة مهجة ذات اتقـــاد
أريد وصـــالهم والدهر يأبى مواصلتى ويطمع فى عنادى[2]

ومما ساعد على شعور رفاعة بالحرمان ما أقدمت عليه سلطات القاهرة

---

(١) تخليص الإبريز : ص ٥٦ .

(٢) مناهج الألباب : ص ٢٦٧ .

من حجز مرتبه حتى يتم جرد الكتبخانة الإفرنجية بمدرسة الألسن[١] ؛

ولا شك فى أن إرسال بعض الموظفين المعاقبين إلى الخرطوم ، بما كان يرتبط بذلك من دوام شكواهم وتلون صورة النقل إلى السودان عندهم بصورة النفى أكثر من أية صورة أخرى ، كان له أثره فى شد أزر ما برفاعة من قلق وألم وهم ، وخاصة إذا كان بعض زملائه فى المدرسة من هؤلاء الموظفين المعاقبين مثل : إبراهيم أفندى سالم باشمهندس القليوبية السابق[٢] وأحمد أفندى طائل المدرس بالمهندسخانة[٣] . كما كانت الإجراءات التى تتخذ عند سفر الموظف إلى السودان ترسب فى ثنايا النفس مشاعر الإبعاد والنفى ؛ فمحمد موسى أفندى أحد أعضاء البعثة « والذى لم يكن حاضراً بأثناء سفر رفاعة بك قبض عليه بمعرفة الضبطية ، وأرسل إلى الديوان لأجل إرساله إلى الخرطوم »[٤] ؛

من أجل ذلك كله وصف رفاعة حاله فى السودان بأنه كان « مبلبل الخاطر ، وسحايب الهموم عليه مواطر ، بالبعد عن الأهل والدار ، والتعرض

---

(١) استمر هذا المرتب محجوزاً حتى بعد إغلاق المدرسة بأكثر من شهر . فقد أغلقت المدرسة فى ٢٧ شوال سنة ١٢٧٠ ، وفى غرة ذى القعدة من نفس السنة كتب إلى حكمدار السودان : « بحجز مبلغ عشرة آلاف قرش من استحقاقه وفك حجز استحقاقة » :

دفتر ١٦٠٩ وارد معية الوثيقة العربية رقم ٢١ ص ١١
من ديوان المدارس بتاريخ ٣ محرم ١٢٧١ .

(٢) دفتر ٥٩ صادر معية عربى الوثيقة رقم ٢١ ص ٣٢٢
إلى حكمدار السودان بتاريخ ١٨ رجب ١٢٦٧ .

(٣) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر ج ١ ص ١١٦ .

(٤) دفتر رقم ٢٣٩٤ وارد الدواوين والأقاليم الوثيقة التركية رقم ٢٣
من مدير المدارس بتاريخ ٢ شعبان ١٢٦٦ .

لحوادث للدهر والأخطار »[1]. وكان ذلك سبباً فى ضيق صدره بهذه الغربة الطويلة ، وفى أنه لم ير من السودان سوى الناحية المظلمة ؛ فلقد كان يود كما جاء على لسان السيد صالح مجدى[2] « لو بقى بمصر فى تلك الحقبة للنفع والانتفاع حيث لم ير لحبه فى وطنه فائدة لهذا الانتجاع ، ولذا كان ينشد بلسان الحال هذين البيتين :

يرومون لى غير المكان الذى له   خلقت وبعضى منكر ذاك من بعضى
فقولوا لبدر الأفق يترك سماءه   وتحيل من أجل التواضع فى الأرض»

ومن أجل ذلك أيضاً كان رفاعة فى حديثه عن بيئة السودان الطبيعية قاسياً كل القسوة ، كما يظهر فى قصيدة له نظمها بالخرطوم[3] :

وما السودان قطّ مقام مثلى   ولا سلماى فيه ولا سعادى
بها ريح السموم يشم منه   زفير لظى فلا يطفيه وادى
عواصفها صباحاً أو مساء   دواماً فى اضطراب واطراد

كما يظهر انطباع رفاعة عن بيئة السوذان الطبيعية — وذلك بعد أن رجع إلى مصر بمدة طويلة — فى قوله : « وإنما فقط لما توجهت بالقضاء والقدر إلى بلاد السودان ، وليس مما قضاه الله مفرٌّ ، أقمت برهة خامد الهمة جامد القريحة فى هذه الملمة ، حتى كاد أن يتلفنى سعير الإقليم الفاير بحرّه وسمومه ، ويبلعنى فيل السودان الكاسر بخرطومه[4] » .

أما انطباع رفاعة عن بيئة السودان الاجتماعية فقد برز فيه الأثر الدفين

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوى : مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك ص ٢٢ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) مناهج الألباب : ص ٢٦٧ .
(٤) مواقع الأفلاك : ص ٤ .

للشعور بالإبعاد والنفى إلى أقصى حدّ ممكن ؛ إذ لم ير فى تلك البيئة إلا كل قبيح مرذول ، ويظهر ذلك فى قوله[1] :

ونصف القوم أكثره وحوش وبعض القوم أشبه بالجماد
فلا تعجب إذا طبخوا خليطاً بمخ العظم مع صافى الرماد
ولطخ الدهن فى بدن وشعر كدهن الإبل من جرب القراد

ثم يميل رفاعة بعد ذلك إلى سرد بعض العادات المرذولة المنتشرة بين بعض الأهالى ، ويشير إلى أن هذه العادات من الكثرة لدرجة لم يتمكن معها من إحصائها وتقييدها على الورق ، وفى ذلك يقول[2] :

وشرح الحال منه يضيق صدرى ولا يحصيه طرسى أو مدادى
وضبط القول فالأخيار نزر وشرّ الناس منتشر كالجراد
ولولا البيض من عرب لكانوا سواداً فى سوادٍ فى سوادِ

وربما كانت فكرة رفاعة السابقة عن السودان وأهله — كما جاءت فى مقدمة (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز)[3] عند حديثه عن مراتب الخلق

= ويقصد رفاعة بالعبارة الأخيرة « ويلقى » . . . . » إنه كان يخاف أن يموت فى مدينة الخرطوم التى عرفت بهذا الاسم نسبة إلى خرطوم الفيل الذى يشبه فى الشكل لسان الأرض المحصور بين النيلين الأبيض والأزرق وحيث تقوم المدينة . وقد وصف أحد تلاميذ رفاعة — وكان يقيم فى الخرطوم — المدينة وصفاً أوضح فيه ما رأى رفاعة فيها وأكثر : انظر الملحق الثانى .

(١ ، ٢) مناهج الألباب : ص ٢٦٧ .

راجع : منتخبات من آثار رفاعة عن السودان : المنتخب الأول ص ١٤١ .

(٣) ص ٧ . ويقسم رفاعة مراتب الخلق إلى مراتب ثلاث : المرتبة الأولى وهى مرتبة الهمل المتوحشين ، والمرتبة الثانية مرتبة البرابرة الخشنين ، والمرتبة الثالثة مرتبة أهل الأدب والظرف والتحضر والتمدن والتمصر المتطرفين . ومثال المرتبة الأولى عند رفاعة همل السودان ، ويقصد بهم كل من جمتهم الهمجية من قبائل السودان . ومع ذلك فهو يضم إقليم سنار إلى المرتبة الثالثة .

من حيث المدنية ، قبل أن تطأ قدماه أرض السودان ويقترب من أهله ؛ مما شكّل فى عقله هذه الصورة عنهم ، فلما جاء إلى السودان والألم يعصر قلبه انبسطت أمامه الصورة وتطاولت ظلالها ؛

ولهذا كله كان رفاعة فى الخرطوم دائم الشكوى ، وحقّ له أن يلجأ إلى كل من يرى فيه أملا فى المساعدة فى الخلاص من المأزق الذى تردّى فيه ؛ وكان من بين من وضع رفاعة رجاءه فيهم حسن باشا كتخدا مصر ، فقد أنشأ قصيدة[1] برسمه « رجاء نشله من أوحال تلك الأحوال » ، ولكن لم يتيسر إرسال تلك القصيدة فخمّس قصيدة أخرى[2] يمدح فيها الرسول عليه الصلاة والسلام ويتوسّل إليه أن يرده سالماً إلى وطنه وأهله ، وختم هذا التخميس بقوله — وهو مما زاده على القصيدة :

رفاعة خمّس المنظوم مرتجلا قريضه وهو بالخرطوم قد وجلا
قالت هواتفه : بالله كن وجلا فإن جدّك طه للخطوب جلا
فأمر خطبك هذا الجدّ يحسمه
ماذا العناء وأهل البيت قد كفلوا عوداً جميلاً وما عن وعدهم غفلوا
لا تعن بالغير جدّوا السير أو قفلوا هم أجمعوا أمرهم للكيد واحتفلوا
والأمر لله : ما يرضاه يحكمه

ومن أجل الرجوع إلى مصر أيضاً حمّل رفاعة الرحالة الأمريكى بايارد تيلور ، وهو راجع من الخرطوم إلى مصر ، خطاباً إلى القنصل العام البريطانى فى مصر ، ومضمون الخطاب غير معروف إذ لم يشر الرحالة

---

(١) مناهج الألباب : ص ٢٦٥ — ٢٦٩ . وكل ما سجل فى الصفحات السابقة من أقوال رفاعة المنظومة منقول من هذه القصيدة . راجع : منتخبات من آثار رفاعة عن السودان : المنتخب الأول ص ١٤١ .

(٢) مناهج الألباب : ص ٢٦٩ — ٢٧٩ .

إليه ، إلا أنه يقرر أنه كان من أجل المساعدة فى صدور الأمر بعودة رفاعة إلى مصر[1] . كما حمّل رفاعة هذا الرحالة نفسه رسالة أخرى إلى أهله بطهطا ، وفحوى هذه الرسالة غير معروف ، وإن كان من الطبيعى أن يبث فيها رفاعة شوقه إلى أهله وأن يأمل فى قيامهم بمساعدته على العودة إلى مصر ، وكل ما سجّله الرحالة عن هذه الرسالة الأخيرة هو سطور قليلة تحكى قصة نزوله بمدينة طهطا لتوصيلها إلى عائلة رفاعة[2] .

ولقد نقل الرحالة چورچ مللى[3] أيضاً عدة خطابات لرفاعة إلى مصر ، ولكنه لم يفصح عمن هى مرسلة إليهم ولا عما تحويه .

وواضح أن استخدام رفاعة لهذين الرحالتين فى حمل مكاتباته إلى مصر يرجع إلى ما يمكن أن يستح لهما من فرص الاتصال بالمراجع السياسية الأجنبية فى مصر ، وإمكان التأثير عليها للسعى لدى الحكومة فى مصر من أجل التصريح لرفاعة بالعودة . كما يرجع إلى أن البوستة الحكومية لم يكن من عملها فى ذلك الوقت نقل المكاتبات الشخصية بين السودان ومصر ، فقد كان عملها قاصراً على المكاتبات الرسمية .

رفاعة هو المسئول الأول عن تأخير افتتاح المدرسة :

مما سبق تتضح الحال التى كانت تخيّم على حياة رفاعة فى الخرطوم . ولولا

---

(١) Taylor, B. : op. cit. p. 380.
ويدعى هذا الرحالة أن الحالة قد وصلت برفاعة فى الخرطوم إلى درجة أنه كان يشارك من يجتمع بهم من الأجانب تعاطى الخمر : Taylor, B. : op. cit. p. 291.

(٢) Taylar, B. : op. cit. p. 516.
وانظر أيضاً : فتحى رفاعة : من حياة رفاعة رافع الطهطاوى ص ١٩٢ — ١٩٣ من : مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى .
، راجع : الملحق الثالث ص ١٧١ .

(٣) Melly, G. : op. cit, p. 130.

هذه الحال ولها ثقل كبير فى الحكم له أو عليه ، ولولا الدور الذى لعبه بعض الحكمدارين فى تأخير افتتاح المدرسة لكان من الممكن الآن نعفى رفاعة من تحمل قدر أكبر من التسبب فى هذا التأخير ؛ وهكذا ، كان وزر تأخير افتتاح المدرسة يقع على عاتق كل من رفاعة وبعض أولى الأمر فى السودان من الحكمدارين — وإن كنت أميل إلى تحميل رفاعة القسط الأوفى منه .

إن افتتاح المدرسة لن يكون كثيراً على همة رفاعة إذا أراده . ويكفى أن نقول إن الحكمدار سليم باشا صائب (أبريل ١٨٥٣ — مارس ١٨٥٤) لم يستغرق افتتاح المدرسة منه وقتاً طويلا عندما أراده ؛ فقد وصـــل هذا الحكمدار إلى الخرطوم فى شهر شعبان سنة ١٢٦٩ وتم افتتاح المدرسة فعلا فى شوال التالى — هذا علماً بأن شهر رمضان شهر أجازة وراحة للموظفين[1]، ومعنى ذلك أن المدرسة استغرق افتتاحها شهراً واحداً من يوم وصول الحكمدار إلى الخرطوم . ولقد كان قرار رجب ١٢٦٦ الصادر بإنشاء المدرسة حاوياً لكل التنظيمات الخاصة بها : فقـــد فصّل وحدّد واجبات كل من رفاعة والحكمدار وكل الهيئات التى لها صلة بافتتاح المدرسة ، كما تحدث عن التلاميذ ، وسهّل ونظّم مسائل الطعام والملابس والمرتبات ، ووضع النقاط فوق الحروف فى موضوع الخدم والموظفين الذين لم يسافروا من مصر ، كما أن رفاعة كان قد اصطحب معه عند مغادرته مصر هيئة التدريس ومهمات المدرسة . وكان يمكن لرفاعة أن يستعين بتبعية الحكمدارية وديوان المدارس لإدارة واحدة — وهى ديوان الجهادية — فى دفع عجلة مهمته إلى حيز التنفيذ وإلى الأمام فى أقصر وقت . وكان يمكن لرفاعة أن يعترض على قيام الحكمدار بتوزيع أدوات المدرســـة ومهماتها على الجيش وأن يشكو الأمر

---

(١) دفتر ١٨٨٣ ج ٢ صادر الأوامر   الأمر الكريم رقم ٦
إلى حكدار السودان   بتاريخ ١١ شعبان ١٢٧١ .

للقاهرة ؛ فقد جاء إلى الخرطوم مسئولا عن تنفيذ مهمة خاصة ومحددة هو رجلها ، وكان موظفاً كبيراً ورتبته (أميرآلاى) ، وله فى رئيس مجلس الدعاوى قدوة ومثلا ؛ فقد رمى القفاز فى وجه الحكمدار لمجرد أنه كان يظن أن الأخير يريد أن يمحوَ ما للمجلس من سلطة [١].

وإذا كان كل ذلك كذلك فإنه يمكن الردّ على ما اعتبره الدكتور أحمد أحمد بدوى[٢] سبباً لقلق رفاعة وكونه لم ير من السودان سوى الناحية المظلمة ، وهذا السبب مرجعه عنده إلى ما قاساه رفاعة فى إنشاء مدرسة الخرطوم ، فى بيئة لم تعرف الدراسة النظامية من قبل ، وما عاناه من المتاعب فى تأسيسها . وعلى نفس الأساس يمكن الردّ على الرحالة الأمريكى بايارد تيلور — الذى قابل رفاعة فى الخرطوم أكثر من مرة ، إذ يقول بأن رفاعة قد أمضى فى السودان سنة ونصف سنة دون أن يصل إليه من القاهرة أى أمر بخصوص المدرسة [٣] . كما يمكن الردّ على رفاعة نفسه حين قال :

ثلاث سنين بالخُرطوم مرَّت	بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم تُرجى	هناك ودونها خرط القتـاد[٤] .

المساجلات بين القاهرة والخرطوم بشأن افتتاح المدرسة :

مضى عامان منذ غادر رفاعة وبعثته القاهرة إلى السودان فى الثلث الأخير من شهر رجب سنة ١٢٦٦ (الثلث الأول من شهر يونيو ١٨٥٠) دون أن تسمع القاهرة شيئاً عن افتتاح المدرسة ، مما حدا بها إلى الكتابة إلى حكمدار

---

(١) راجع الصفحات الأخيرة من هذا الفصل ، وهى التى تحت عنوان : لماذا أغلق سعيد المدرسة ؟ .

(٢) رفاعة رافع الطهطاوى ص ٥٠ .

(٣) Taylor, B. : op. cit. 292.

(٤) مناهج الألباب : ص ٢٦٨ .

السودان فى ٥ رجب سنة ١٢٦٨ « بأن إنشاء مدرسة الخرطوم لم يتحقق حتى اليوم مع ما لها من الأهمية القصوى ، وما يُرجى من تحقيقها من سعادة لأبناء السودان . . . . . ، ومن أجل ذلك نأمل منكم أن تبادروا إلى الأخذ بالأسباب والوسائل التى من شأنها أن تكفل تحقيق هذه الرغبة ، وأن توافونا بالخطة التى اتبعتموها لتحقيقها»(١) . وكانت القاهرة قد كتبت قبل ذلك بخمسة أيام إلى رفاعة فى السودان بأنه « قد مضت مدة من عهد ما توجهتوا لهذه الجهة ، ولم كان يحضر من طرفكم إفادة عما صار فى بحر هذه المدة من التعليمات ، وبيان ما اكتسبوه التلامذة من العلوم وما مقدار عددهم وبيان درجات كل منهم أيضاً ، حتى كان يعلم بهذا الطرف كيفية الجارى بالمدرسة من التحصيلات ، ويجرى العرض عنه كما هو مطلوب »(٢) .

ولم يطل انتظار القاهرة ، فبعد حوالى ثلاثة أسابيع أخبرها حكمدار السودان بأن المدرسة لم تُنشأ بعد ، وأن تلاميذها لم يُجمعوا ، وأن ملابسهم قد وُزعت على فرق الجيش بأمر الحكمدار السابق(٣) . أما رفاعة فقرر أن أغلب التلامذة الذين جُمعوا للمدرســة هربوا بمعرفة أهاليهم « بالجبال المستبعدة » ، فضلا عن أنهم « ناس غلايظ العقول » ، وأن ثلاثة من المعلمين قد توفوا ، وخلاصة الأمر أن المدرسة قد صارت « اسماً بدون جسم »(٤) .

---

(١) دفتر رقم ٦٢٩ ديوان الكتخدا بتاريخ ٥ رجب ١٢٦٨ — الوثيقة رقم ٨٧ إلى حكدار السودان .

(٢) دفتر ٢٠٩ (مدارس عربى) إلى ناظر الخرطوم — الوثيقة رقم ١٦٩٥ فى غاية جمادى الثانية ١٢٦٨ .

(٣) دفتر ٦٣١ ديوان الكتخدا من حكمدار السودان — الوثيقة رقم ٣٩٠ فى ٢٢ رجب ١٢٦٨ .

(٤) دفتر ٢٣٢ (مدارس عربى) من ناظر مدرسة الخرطوم — الوثيقة رقم ١ فى غرة شعبان ١٢٦٨ .

ويلوح أن رفاعة كان يأمل — مع هــذه الصورة المظلمة للمدرسة التى لا تبشر بالخير — أن يقنع المسئولين فى القاهرة بالعدول عن تجربة التعليم العصرى فى السودان ليعود هو وزملاؤه إلى مصر . وتخدم الظروف مساعى رفاعة ووجهة نظره فى المدرسة ومكان إقامتها ، فقبل مرور شهرين على إرسال تقريره هذا يصل إلى القاهرة خبر وفاة بيومى أفندى (قيمقام مدرسة الخرطوم)(١) ؛ وبعد أربعة أيام فقط يصل إلى القاهرة خبرٌ يفيد شدة وطأة المرض على أحمد أفندى طائل الرجل الثالث بالمدرسة ، وتقرير مفتش الحكما بأنه من غير الممكن أن يبلّ من مرضه وهو فى السودان لشدة الحرارة ، وأنه لا شــفاء له إلا بالتوجه إلى مصر ، ثم يُطلب من القاهرة بعد ذلك « صدور الأمر بما يستصوب »(٢) .

ولكن عباساً كان عنيداً ، فأصدر أمره إلى حكمدار السودان بضرورة افتتاح المدرســة ، وأنه لا يمكن أن تقف مهماتها التى وُزعت على فرق الجيش عقبة فى سبيل ذلك ؛ فقد جرت العادة على أن الملابس اللازمة للعساكر بالسودان لا تُرسل إليهم من مصر بل تُدبَّر فى السودان ، ولذلك فعلى الحكمدار أن يدبر للمدرسة ما تحتاج إليه من المهمات بدلا من تلك التى وزعت على الجند . كما أوصى عباس رفاعة بوجوب الرجوع إلى الحكمدار فى هذا الشأن ، وناشده بذل الهمة والاجتهاد فى العمل على افتتاح المدرسة والمبادرة إلى موافاة القاهرة بعدد التلامذة الذين التحقوا بها ، وإحاطتها أولا بأولا بأخبار سير الدراسة بها ، وجميع ما يختص بشئونها(٣) .

---

(١) دفتر ٩٤ وارد المعية عربى — الوثيقة رقم ٣٧
من حكمدار السودان ، فى ٢٣ رمضان ١٢٦٨ (وورد فى ٢١ شوال سنة تاريخه) .

(٢) دفتر ٩٤ وارد المعية عربى — الوثيقة رقم ٣٨
من حكمدار السودان بتاريخ ٢٥ رمضان ١٢٦٨ (وورد فى ٢٥ شوال) .

(٣) دفتر ٢١٥ مدارس عربى — الوثيقة رقم ٣٣٥٦
إلى ناظر مدرسة الخرطوم بتاريخ ٥ شوال ١٢٦٨ (وورد فى ٢٥ شوال) .
، دفتر ٦٤٥ ديوان الكتخدا — الوثيقة رقم ١١
إلى حكمدار السودان بتاريخ ٩ ذى الحجة ١٢٦٨ .

ولما كانت القاهرة تريد حقاً افتتاح المدرسة فقد سارعت إلى إرسال أساتذة بدل الأساتذة المتوفين . وكان قد توفى حتى ذلك الوقت — غير الطبيب سليمان السيوطى أفندى — أربعة أساتذة هم : بيومى أفندى وعلى أفندى عثمان ومحمـــد أفندى مرسى والشيخ إسماعيل فرغلى ، أما الأساتذة الجدد فكانوا[1] :

١ — الصاغقول أغاسى خليفة أفندى

٢ — اليوزباشى مصطفى سراج أفندى

٣ — اليوزباشى عبد الله حسين أفندى

٤ — الملازم أحمد عبد الله أفندى

هذا غير الطبيب القائمقام مصطفى السبكى أفندى .

وقد عملت الجهات المختصة — وبخاصة ديوان الكتخدا ومدير المدارس ومدير قنا وإسنا — على سرعة إرسال هؤلاء الموظفين إلى الخرطوم ليتم افتتاح المدرسة . وقد أدى إصرار القاهرة وهمة الحكمدار سليم باشا صائب (أبريل ١٨٥٣ — مارس ١٨٥٤) إلى افتتاحها فعلا . وقد زفّ هـــذا الحكمدار إلى القاهرة بشرى « فتح مدرسة التلامذة وإدارة العملية بها طبقاً لمرغوب إرادة ولىّ النعم الآصفى ، وما وجد من اللوازمات المقتضية جارى التدارك فى استحضاره » ، وطلب الحكمدار من القاهرة إصدار الأمر بإمداده بالأصناف الآتية حيث أنها غير موجودة بمخازن السودان ومعتاد جلبها من المحروسة :

---

(١) دفتر ٦٣٥ ديوان الكتخدا — الوثيقة رقم ٤٣٩
إلى مأمورية السكة الحديد بتاريخ ١٨ صفر ١٢٦٩ .
، دفتر ٦٤٣ ديوان الكتخدا — الوثيقة رقم ٣٢٣
إلى مدير قنا وإسنا بتاريخ ١٠ ربيع أول ١٢٦٩ .

عدد ٤ دفاتر لزوم عملية المدرسة

١٠٦ دستة ورق أبيض

٢٥٠ طربوش بتواعيده

٢٥٠ طقم جوخ آلاى مخيط طراز المبتديان والتجهزية

١ طقم مطبخ لغاية إلى ٢٥٠ نفر من القزان إلى القروانة حكم مرتب المدارس المصرية

١٣٥٠ أقة أرز مبيض كفاية مرتب التلاميذ سنة كاملة(١) ».

وكان ردّ القاهرة على طلب الحكمدار أن هذه الأصناف قد تمّ إرسالها إلى المدرسة مع رفاعة بك ، فإذا كان قد وزع منها شىء إلى جهة أخرى غير المدرسة بمعرفة الحكمدارية يُطلب منها بدلها ، « وأما عن الأرز وطقم المطبخ هذا يوجد بالباقرخانة وشون الغلال فيجرى ما يلزم بمعرفة المالية ، وكذا ما يلزم هذه المدرسة سوى كان من دفاتر وأوراق . . . »(٢).

مشكلة جمع التلاميذ:

وإذا كانت المدرسة قد افتتحت إلا أن البحث عن التلاميذ لم يكن سهلا . وكان حكمدار السودان قد أحاط كبار شيوخ السودان بوجوب إلحاق أولادهم بالمدرسة ، وعمل على ترغيبهم فى هذا الأمر ، ولاحظ الحكمدار أن هؤلاء الشيوخ سيلحقون أولادهم بالمدرسة إذا كانوا سيدرسون فيها العلوم الدينية ، أما إذا كان القصد من المدرسة إعدادهم للجهادية فإنهم يخشون

---

(١) دفتر ١١٧ وارد المعية — الوثيقة العربية رقم ٣٥
من حكمدار السودان بتاريخ ٧ شوال ١٢٦٩ .

(٢) دفتر ١٢١ وارد المعية — الوثيقة العربية رقم ٢
من ديوان المدارس بتاريخ ٦ الحجة ١٢٦٩ .

العاقبة(١) . ويبدو أن افتتاح المدرسة فى جنوب مدينة الخرطوم قريباً من معسكرات الجيش(٢) قد أوحى إلى الأهالى بوثيق صلتها بالجيش وأنه الموئل الطبيعى لخريجيها ، وكانوا يستكبرون أن ينضموا إلى الجيش علاوة على أنهم كانوا ينفرون من الجندية ؛ فقد كانت صورة الجندى غير النظامى بسوطه وغدارته وطربوشه ووجهه الصارم لا تفارق أذهانهم ، وترتبط فيها بحملات جمع الضرائب والقبض على الرجال فى الخرطوم وغيرها من المدن وإرسالهم إلى (الكاره) — وهى الثكنة العسكرية — للعمل فيها مسخّرين فى الأعمال اليومية العادية .

وقد جاء فى قرار إنشاء المدرسة أن يُقيَّد بها مائتان وخمسون طفلا من أولاد الأهالى فى كل جهات السودان ، ومن أبناء الترك الذين استوطنوا هذه الديار . ولكن ما أمكن جمعه من تلاميذ المدرسة لم يكن من أولاد الأهالى بل كانوا من أبناء موظفى الحكومة من المصريين العاملين هناك(٣) .

وقد وصلت صعوبة البحث عن التلاميذ إلى درجة رُئى معها أنه لا مانع من قبول المدرسة لتلميذ كان أبوه أحد ضباط الجيش بالسودان وتوفى بدلا من معاشـــه(٤) . كما أبلغ الحكمدار القاهرة « عما بدر من القرى المجاورة

---

(١) دفتر ٦٣٢ ديوان الكتخدا — الوثيقة رقم ٢١٢
من حكمدار السودان بتاريخ ٢٥ صفر ١٢٦٩ .

(٢) من رواية للأستاذ عبد الله عبد الرحمن أثناء زيارتى لسيادته بأم درمان فى شهر أبريل سنة ١٩٥٧ . وقد حدد الأستاذ مكان المدرسة فى الخرطوم الحالية بمحل قشلاق توفيق جنوب قنطرة (المسلمية) مباشرة .

(٣) مناهج الألباب : ص ٢٨٠ .
& Hamilton, J. : op. cit. p.p. 343-44.

(٤) دفتر ١١٩ وارد المعية — الوثيقة العربية رقم ٦٠٧
من حكمدار السودان بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٦٩

للخرطوم من جراء إلحاق أولادهم بالمدرسة[١] ، وأقل ما بدر منها هو تهريب الأولاد إلى الصحراء[٢] ، و « الجبال المستبعدة » كما يقول رفاعة . ومع ذلك فإن الحكمدار يقرر أنه متى تمّ تنظيم المدرسة فإنه سوف يعمل بالترغيب والتشويق على إكمال عدد التلاميذ إلى المائتين والخمسين[٣] .

وكان عدد تلاميذ المدرسة عند افتتاحها واحداً وثلاثين تلميذاً . وعلى الرغم من مجهود الحكمدارين فإن هذا العدد لم يزد بعد شهر ونصف شهر سوى سبعة تلاميذ . وحتى بعد مضى سبعة شهور على افتتاح المدرسة كانت المكاتبات بين القاهرة والخرطوم تدور حول « توريد باقى الأنفار اللازمة للمدرسة »[٤] . ويبدو أن عدد التلاميذ لم يزد فى أى وقت من العام الدراسى عن الثمانين إلا قليلا ، ويقرر الرحالة هاملتون[٥] بعد زيارته للمدرسة التى كان قد مرّ على افتتاحها ثمانية شهور أن عدد تلامذتها كان أربعة وثمانين تلميذاً . وكان التلميذ يُقبل بالمدرسة بين سن السابعة والثانية عشرة على أن يكون سليم البدن عارياً من الأمراض وبريئاً من السقامة متمتعاً بالصحة والعافية[٦].

نظام المدرسة والمواد الدراسية ونظم التدريس بها :

وقد ســارت المدرسة على نسق المبتديان فى مصر من حيث النظام ومواد

(١) دفتر ٦٣٢ وارد المعية — الوثيقة رقم ٥٢٤
من حكمدار السودان بتاريخ ٢٨ شوال ١٢٦٩ .

(٢) Melly, G. ; op. cit, p. 99.

(٣) دفتر ١١٩ وارد المعية — الوثيقة العربية رقم ٦٠٧
من حكمدار السودان بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٦٩ .

(٤) دفتر ٢٩٢ مدارس عربى — الوثيقة رقم ٤
إلى حكمدار السودان فى ٥ صفر ١٢٧٠ .

(٥) Hamilton, J. ; op. cit. p. 343.

(٦) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤ .

الدراسة ونظم التدريس . وكان المفروض أن ينتقل التلاميذ بعد الانتهاء من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة التجهيزية ، ولكن لم يتسن للمدرسة القيام بهذا الأمر لأن الدراسة فيها لم تستمر إلا سنة دراسية واحدة . وكان يتبع المدرسة خلوة من خمسة فصول لتعليم القرآن تضم الأطفال بين سن الخامسة والعاشرة . ويقرر الرحالة هاملتون أن الفقيه فى هذه الخلوة كان يدوّن الآية من القرآن على السبورة ، فينقلها الأطفال كأحسن ما ينقلون على ألواح من الصفيح تصرفها لهم المدرسة ، ثم يقومون بحفظها عن ظهر قلب وهم يتمايلون إلى الأمام والخلف بشكل رتيب، مصوّبين عيونهم على الألواح دون أن يكون معنى ذلك أنهم يعرفون معنى ما يرددون .

وكان التلميذ يلحق عند أول دخوله المدرسة بالصف الثالث من صفوف المبتديان ، فإذا نجح فى آخر العام يُنقل إلى الصف الثانى ، وبعد عام يُنقل إلى الصف الأول ، وهذا النظام يبين أثر النظام الفرنسى فى التعليم فى المدارس المصرية فى ذلك الوقت . وبعد إتمام الدراسة فى المبتديان يُنقل التلميذ إلى المدرسة التجهيزية . ومدة الدراسة على هذا الأساس ثلاث سنوات فى المبتديان ، ولكنها ربما زيدت إلى أربع سنوات لمن يحصل له عطل فى دروسه بسبب الأمراض وغيرها[1] . وكانت المدرسة داخلية على غرار مثيلاتها فى مصر . وكان يُصرف لكل تلميذ حصير وسجادة عسكرية ومخدة من القطن وحرام بلدى للغطاء[2] . ويجلس التلاميذ أثناء الدرس على حصر على الأرض .

والعمل فى المدرسة — كالعمل فى سائر إدارات الحكومة — من الصباح حتى قبل غروب الشمس بساعة وربع الساعة . وكان التلاميذ وهيئة التدريس

---

(١) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٥ .

(٢) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : التعليم فى عصر محمد على ص ٦٢٩ .

يتناولون طعام الغذاء جلوساً على الأرض المفروشة بالأبراش ، ثم يقومون لصلاة العصر ، وبعده تُستأنف الدراسة . وكانت الصلوات الخمس تُقام فى المدرســـة ما عدا ظهر الجمعة الذى كان لا بد من صلاته فى مسجد الخرطوم[١] .

وكانت العقوبات فى المدرسة هى التأنيب العلنى أولا والحجز فى المدرسة ثانياً ، والحجز مع الاقتصار على تناول الخبز والماء ثالثاً ، والكرباج أى الضرب على الأقدام رابعاً ، ومدى السلطة فى توقيع هذه العقوبات تحددها الأوامر واللوائح[٢] .

ومواد الدراسة بالمدرسة هى القرآن الكريم والقراءة والكتابة والنحو والصرف والحساب والهندسة والخط[٣] . ويزيد الرحالة هاملتن على ذلك اللغة التركية[٤] ، ويضيف الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد[٥] تعليم الفرائض الدينية . كما كان يُهتم بحسن الخط لدرجة كبيرة ، وقد لاحظ هاملتن[٦] ذلك الأمر عندما حضر أحد الامتحانات الدورية وعاين خطوط بعض التلاميذ . ويمكن أن نضيف إلى هذا كله التدريب العسكرى والأناشيد

---

(١) الشيخ محمود القبانى : مذكراته عن الحكم المصرى بالسودان .
ص ١٤٧ من الجزء الأول من كتاب : السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية لعبد الله حسين .

(٢) الدكتور محمد فؤاد شكرى ، عبد المقصود العنانى ، سيد محمد خليل : المصدر السابق ص ٦٤٠ .

(٣) الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : التعليم فى مصر محمد على ص ٦٨١ ، رفاعة رافع الطهطاوى : مناهج الألباب ص ٢٨٠ .

(٤) **Hamilton, J. : op. cit. p. 344.**

(٥) المصدر السابق ، جـ ٢ ص ٣٥ .

(٦) **op. cit. p. 345.**

العسكرية والوطنية ، كما كانت تُراعى فى المدرسة قواعد السلوك والنظام والنظافة إلى حد كبير .

ويظهر أن المدرسة لم تكن تصرف كتباً للتلاميذ ، وأنهم كانوا يستعينون فى الدراسة بالكتابة على الأوراق والألواح ، وإن كان الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد[١] يرى أن التلاميذ كانوا يقرءون فى كتب النحو والصرف والمدرس أمامهم يستمع إليهم : والحقيقة أن رفاعة كان قد طلب من مصر فى أثناء العام الدراسى إمداده بكتب فى اللغة التركية والنحو والصرف والحساب مما يُستعمل فى المدارس المصرية[٢] ، كما طلب كتباً جديدة فى أواخر العام الدراسى استعداداً للعام الدراسى الجديد وهى : مصاحف ، والسنوسية فى التوحيد ، وتحفة وتأديب الأطفال ، وهندسة ، وحساب ، وجغرافيا وخط . . . الخ[٣] .

وقد توسم رفاعة فى عشرة من التلاميذ التفوق على أقرانهم فخصهم بقراءة القرآن وحفظه وإعراب الأجرومية وحفظ مفردات وجمل تركية وخط الثلث والحساب ليكونوا « قريباً مقدمين على أقرانهم وقلفوات للمدرسة »[٤] . ولقد صادفت رفاعة عند افتتاح المدرسة مشكلة هؤلاء (القلفوات) ، فقد كان فى حاجة إلى عدد منهم يقودون التلاميذ من وراء الأساتذة . ولقد تقدم إلى المدرسة أحد التلاميذ وله من السن عشرون عاماً ،

---

(١) نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٥ .

(٢) دفتر ٣١٩ مدارس عربى — الوثيقة رقم ٢
من ناظر مدرسة الخرطوم فى ١٧ جمادى الأولى ١٢٧٠ .

(٣) دفتر ٣٢٩ مدارس عربى — الوثيقة رقم ١٠
من مدرسة الخرطوم فى ١٣ رمضان ١٢٧٠ .

(٤) دفتر ٣١٩ مدارس عربى — الوثيقة رقم ٦
من حكمدار السودان فى ٣ ربيع ثان ١٢٧٠ .

وكان رأى رفاعة أنه لما كان هذا التلميذ يبلغ من العمر هذا السن « وحسن الخط وذا دراية فى القراية فاستصوب أن يكون ريس فرقة تلامذة برتبة اسبران ثانى بماهية شهرى مائة قرش ومرتبات تفر ، ويكون مساعد إلى الخوجة الخطاط الموجود الآن بالمدرسة ، وأوضح أيضاً عن لزوم اثنين رويسا فرق خلاف الشخص المذكور بماثلة الجارى بالمدارس المصرية ، وأراد ترتيبه أوْلى من حضور مثله من المحروسة ، وبلائحة ترتيب مدرسة الخرطوم لم مذكور عن ترتيب رويسا فرق . . . »[1] .

نظام الامتحان فى المدرسة :

وكان المفروض أن يقوم بالتفتيش على المدرسة كل ثلاثة أشهر مندوب من شورى المدارس ثم يرفع تقريراً إلى هذا المجلس، ولكن لم يُعثر بالوثائق على مندوبين قاموا بزيارة مدرسة الخُرطوم ، ولعل بُعد الشقة بين الخُرطوم والقاهرة قد حال دون هذه الزيارة . وكان هناك سجل يُعرف منه مدى تقدم جميع التلاميذ بكافة المدارس تُرفع بياناته سنوياً إلى الشورى حتى يمكن الوقوف على مدى تقدمهم ويُقرر نقلهم إلى مدارس أرقى ، كما كان المفروض أن يُعقد امتحان سنوى تحت إشراف أحد أعضاء الشورى لاختيار التلاميذ الذين يُنقلون إلى المدارس التجهيزية[2] ، ولكن مدرسة الخُرطوم لم تستمر الدراسة فيها حتى ينتهى التلاميذ من الدراسة الابتدائية .

وكان الامتحان يُعقد عادةً فى اليوم الخامس عشر من شهر شعبان ، وفى شهر ربيع الأول ١٢٧٠ — وهو الشهر السادس من العام الدراسى —

---

(١) دفتر ١١٩ وارد معية — الوثيقة العربية رقم ٦٠٧ ص ٩١٩ من حكمدار السودان بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٦٩ .

(٢) الدكتور محمد فؤاد شكرى ، عبد المقصود العنانى ، سيد محمد خليل : المصدر السابق ص ٦٤٠ .

أبلغ رفاعة ديوان المدارس « أنه حصل الاجتهاد فى تعليم التلاميذ ، وإن شاء الله فى شهر شعبان ١٢٧٠ يصير تقدم التلاميذ وعمل امتحان بحضور أرباب العرفان »[1] . وقد سُرت القاهرة لهذا الأمر : وعقد الامتحان فى موعده فى اجتماع حافل حضره حكمدار السودان ورئيس مجلس الدعاوى والأعيان والعلماء والعُمد والقاضى كما أُرسِل جدول الامتحان إلى القاهرة .

ولم يُسجل شىء عن نظام الامتحان ، ولكن الشيخ محمود اقبانى كفانا مشقة البحث فى هذه المسألة ، فوصف امتحان مدرسة الخُرطوم التى كان أحد تلامذتها على عهد الخديو توفيق ، فقال :

« أول امتحان شهدته فى السنة الأولى استعداد المدرسة واستعدادنا ، . . . ، وينتظر الامتحان نحواً من عشرة أيام ، جاءت موسيقى الخرطوم ودُعى الحكام وأكابر الموظفين فدخل الحكمدار رءوف باشا وحوله جميع الموظفين العظام وصدحت الموسيقى بالسلام ، ثم قُدم لهم الشربات والقهوة والسجاير ، ثم تقدم اثنان من تلامذة وأنشدا قصيدة بأصوات شجية من نظم الباشخوجة الجداوى ، وكانت القصيدة رائية ومطلعها :

بشموس أشرقت الدار ... أم لاحت فيهـا أبدار
وإلى تجليــه أباديــر ... وحسين طالت الأعمار
ويدوم ســعادة باشانا ... ويبلغــه ما يختــار

ثم أثنى الحكمدار على النظام وفتش صفوفنا وانصرف ، وتشكلت لجان : لجنة لامتحان العربى ، ولجنة لامتحان الفرنسى ، ولجنة للحساب ومعهم ضباط وموظفون .

---

(١) دفتر ٣٢١ مدارس عربى — الوثيقة رقم ٤ ص ٩٢٠ من ناظر الخرطوم بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٧٠ .

ولا يذهب الممتحنون لبيوتهم للغذاء ، ولكن تقدم لهم الخراف والديكة والحلويات مدة أيام الامتحان .

وتقدمت للامتحان فامتحنونى شفهياً — وكان كل الامتحان شفهياً ، والحساب على التختة ، والخط يقدم (فى) كراسة الخط التى تسمى غرلمة : وكنت أنا قــد اجتزت الامتحان بتفوق فى الفرنسية والعربية والحساب ، ولكن خطى لضعف فى يدى لم يكن جيداً فأرادوا أن يسقطونى فى الامتحان . وكان الفـــائز إذا خرج يُعرف بضرب الموسيقى ، ويستمر هــكذا الامتحان »[1] .

صدور الأمر بإغلاق المدرسة :

لم تستمر الدراسة فى المدرسة غير سنة دراسية واحدة طولها حوالى عشرة

---

(١) من ذكريات الطفولة فى السودان للشيخ محمود القبانى :
ص ٣٠ — ٣١ من التربية فى السودان » ج ٣ الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد .

وأبادير وحسين اللذان جاء ذكرهما فى القصيدة هما ولدا رءوف باشا حكمدار السودان . ويقرر القبانى أنه كان فى السنة الثانية ويلبس كسوة التشريفة .

وانظر أيضاً : التربية فى السودان ج ٢ ص ٩١ — ٩٢ .

وكان هذا الامتحان الذى تحدث عنه الشيخ القبانى سنة ١٢٩٧ هـ (وبدأ فى ١٨ شعبان) وقد جاء وصفه فى جريدة الوقائع المصرية نمرة ٩٣١ (٢٤ شوال ١٢٩٧ = ٢٩ سبتمبر ١٨٨٠) . وكما جاء وصف امتحان سنة ١٢٩٨ هـ (وبدأ فى ٢١ شعبان) فى الجريدة نمرة ١١٩٤ (٢٣ رمضان ١٢٩٨ = ١٨ أغسطس ١٨٨١) .

وكان فى المدرسة التى تعلم فيها الشيخ القبانى قسمان : قسم داخلى مجانى ، وقسم برانى بمصروفات . وكان الشيخ من تلاميذ القسم البرانى الذى كانت تدرس فيه اللغة الفرنسية اختيارياً . أما المدرسة أيام رفاعة فكانت كلها داخلية ، ولم يكن يدرس بها اللغة الفرنسية : راجع « التربية فى السودان » ج ٣ ص ٢٧ .

شهور ، كما قطعت حوالى شهرين من عامها الدراسى الثانى ، فقد زف الحكمدار سليم باشا صائب خبر افتتاح المدرسة إلى القاهرة بتاريخ ٧ شوال ١٢٦٩ وبدأت الامتحانات فى ١٨ شعبان ١٢٧٠ ، واستمرت الدراسة بالفرقة الثانية بالنسبة للتلاميذ الناجحين طوال شهر رمضان الذى كانت تقتصر فيه الدراسة على النصف الأول من اليوم حتى الظهر[1] — مع أنه كان أجازة لكل الموظفين . وفى ٢٧ شوال ١٢٧٠ (٢٣ يوليو ١٨٥٤) صدر الأمر بإغلاق المدرسة[2] بعد وفاة عباس مباشرة وتولية سعيد باشا بأسبوع واحد ، ومعنى ذلك أن المدرسة استمرت حوالى ثلاثة عشر شهراً هى كل عمرها ، وأن رفاعة أمضى فى الخرطوم أربع سنوات .

ولم يمكث رفاعة فى الخرطوم حتى تجرد حسابات المدرسة بل غادرها إلى مصر ومعه من بقى من الأساتذة تاركاً وراءه على أفندى محمد المهندس والمدرس بالمدرسة — وكيلا عنه ليراجع حساباتها ويختم دفاترها ؛ لأنه « صفر اليد بحيث لا يستطيع الحصول على الزاد الذى يمكنه من الوصول إلى تلك الديار (أى مصر) ، وقد رضى واختار البقاء هنا ريثما تنتهى الحسابات المذكورة على أن يصرف له مستحقه للمدة التى تمضى خلال قضاء تلك الحسابات ولوازم السفرية فيرسل إلى القاهرة أسوة

---

(١) الشيخ محمود القبانى : من ذكريات الطفولة فى السودان ص ٣١ من ج ٣ من « التربية فى السودان » للدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد .

(٢) صدر أمر إغلاق المدرسة بالأمر السامى رقم ٢ ، وجاء ذلك فى كتاب حكمدار السودان إلى كتخدا الخديوى رقم ٦٧ بتاريخ ٤ ذى الحجة ١٢٧٠ .

أنظر أيضاً : محفظة ٤ معية تركى — الوثيقة رقم ١٥٠ ص ٢٠٥ ، بتاريخ ١٩ محرم ١٢٧١ .

هذا وقد توفى عباس فى ١٨ شوال ، وصدر أمر الإغلاق فى ٢٧ شوال .

بأمثاله[١] : وكان ديوان المدارس قد أمر بصرف بعض استحقاق رفاعة — الذى كان محجوزاً — لسداد الديون البرّانيّة وتجهيز لوازم السفرية ، « ولأجل عدم تكدير المير الموى إليه »[٢] .

وهكذا رجع رفاعة إلى مصر ، وانتهت قصة مدرسة الخُرْطوم أيام عباس بعد أن سقط صريعاً فى الميدان خمسة من أساتذتها توفوا بالخُرْطوم ودفنوا بها ؛ وهم :

١ — القائمقام محمد بيومى أفندى ؛
٢ — الملازم ثان محمد مرسى أفندى
٣ — الملازم ثان على عثمان أفندى
٤ — الشيخ اسماعيل فرغلى
٥ — الطبيب سليمان السيوطى أفندى

لماذا أغلق سعيد المدرسة ؟ :

والآن ، ما هى العوامل التى حملت سعيداً على إغلاق مدرسة الخُرطوم؟ ؟

قد يقال إن العامل الأول فى ذلك هو الرغبة فى استقدام رفاعة إلى مصر ، فهو من (رجالات محمد على) ورأيهم معروف فى أحقية سعيد للعرش بعد وفاة عباس ، وهذا ما دعا سعيداً كذلك إلى إبعاد علىّ مبارك

---

(١) صورة كتاب على باشا سرى حكمدار السودان المرسل إلى كتخدا الخديوى نمرة ٦٧ فى ٤ ذى الحجة ١٢٧٠ .

(٢) دفتر ٣٣٣ مدارس عربى — الوثيقة رقم ٢ ص ٥٤
إلى حكمدار السودان فى ٨ ربيع الأول ١٢٧١ .

(رجل عباس) إلى شبه جزيرة القرم ضمن الحملة المصرية الذاهبة لمحاربة روسيا ، معتمداً فى ذلك على أنه من المهندسين العسكريين المتخصصين فى هذا الفن ، ومتناسياً خبرته بالتعليم وقيامه على شئونه فى عهد عباس . ويُردّ على ذلك بأن سعيداً كان يمكن أن يرسل إلى الخرطوم بديلا لرفاعة لو كان يريد استمرار المدرسة ، أو على أبسط الفروض يرسل علىّ مبارك بعينه بدلاً منه وقد كان (أمير آلاى) مثله .

والواقع أن سعيداً أغلق المدرسة لأنه كان يرى هذا الأمر ؛ فعهده فى التعليم كان أسوأ من عهد عباس فى مصر والسودان على السواء . فإذا كان عباس قد افتتح (المفروزة) فى مصر سنة ١٨٤٩ ومدرسة الخرطوم سنة ١٨٥٠ ، فإن سعيداً قد أغلق هذه سنة ١٨٥٤ وتلك فى السنة التالية . ولكن كيف يتفق سلوك الوالى هذا مع تلك الضجة الكبرى حول حاجة السودان إلى الموظفين كما ظهرت وبشكل ملحّ على عهد عباس ؟ .

لقد كان السودان فى الحقيقة يعج بمشاكل عديدة على رأسها الناحية الإدارية :

فقد كان بعض الموظفين يختفى فجأة عن الأبصار عندما يُراد إرسالهم إلى السودان[1] . ولم يكن أمر الموظفين الذين يكرهون العمل فى السودان ويريدون العودة منه يقف عند حدّ إرسال طلبات العودة المتلاحقة إلى مصر أو الاستعانة بالسلطان لبلوغ هذا الأمر ، بل كان بعضهم يسبب كثيراً من المتاعب لحكومة السودان ويسىء إلى الأمن فى البلاد عندما يخيب مسعاه[2] . وعند

---

(١) عند تعيين الشيخ أحمد (الواعظ) مثلا — كما جاء فى ص ٦٨ — عضواً ببعثة رفاعة إلى السودان اختفى ولم يعثر له على أثر ، وعين محله الشيخ محمد المكاوى حتى يلحق بالبعثة قبل أن تغادر البلاد .

(٢) عند ما لم يستجب عباس إلى طلب السلطان بإرجاع الموظفين الثلاثة الكبار العاملين فى السودان إلى مصر — كما جاء فى ص ٨٤ — هرب أحدهم ، وهو محمد حسيب بك مدير =

وفاة عباس وتولية سعيد العرش كان تبادل الاتهامات بين حكمدار السودان ورئيس مجلس الدعاوى ، الشخصية الإدارية الثانية فى البلاد ، قد مرّ عليه وقت ليس بالقصير . وإذا كان الحكمدار ، على ما كان يظن رئيس المجلس ، يريد أن تكون له اليد العليا وأن يمحوّ ما لمجلس الدعاوى من سلطة فقد كان بعض ما استند إليه رئيس المجلس فى ثورته « أنه وحده الذى عينه مجلس الأحكام والمالية ، وأن الحكمدارية منسوبة إلى جهة أخرى »(1) . كما كان رئيس المجلس ومعه الأعضاء يتهمون الحكمدار بتعاطى الرشوة ، والعجيب أن الحكمدار اعترف بذلك ، بل وأضاف أن ما يأخذه من أى شخص يثبته

= بربر إلى سواكن ، وكانت تتبع السلطان فى ذلك الوقت ، وبعد هربه ضبط الحكمدار عدة مكاتبات صادرة منه إلى كل من : نائب القنصل النمسوى بالخرطوم ، ورئيس مجلس الدعاوى ، وأحد كبار التجار بالخرطوم . وكان رأى الحكمدار فى هذه المكاتبات إمكان قيام الأخيرين ببث بذور الشقاق والنفاق بين الموظفين والأهالى والعمل على فرارهم إلى سواكن (ا) .

وربما كان الحاج حسيب بك فى الرجوع إلى مصر له اتصال بالعمل على تحطيم مساعى عباس فى إحلال ابنه من بعده على العرش ، فقد كان حسيب بك كما يقول بايارد تيلور (ب) « ابن سقاء قامت بتبنيه وتربيته أرملة إسماعيل باشا بن محمد على » .

(ا) محفظة رقم ٢ معية — الوثيقة رقم ٥٤٠

وقد أرفق الحكمدار مع خطابه الذى أرسله إلى مصر متضمناً الحادث أربعة خطابات موجهة من حسيب بك إلى كل من :

١ — هجلن القنصل النمسوى — بتاريخ ٣ شعبان ١٢٧٠

٢ — حضرة أخينا أبو هلى (وهو التاجر) — بنفس التاريخ

٣ — هجلن القنصل النمسوى — بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٧٠

٤ — عائلته فى الخرطوم — بدون تاريخ

(ب) op. cit. p. 290.

(١) محفظة رقم ٢ مجلس الأحكام — الوثيقة رقم ٣٥ بتاريخ ٧ شعبان ١٢٦٩ .

دفتره ويعرضــه على عباس باشا بعد بيان سبب أخذه(١) :

كان كل ذلك مما أقلق سعيداً إلى حد كبير ، لدرجة بدا فيها أنه قد فقد الثقة فى الموظفين المصريين بالسودان المنقولين من مصر ، الأمر الذى ادعى معه الكتاب الأجانب أن سعيداً الغارق فى هذه المشاكل قد فكر فى ترك السودان وإرجاعه إلى مشايخه الوطنيين يديرونه كما كان عليه الحال قبل الفتح المصرى . والواقع أن هذا الادعاء ليس فيه ظل من الحقيقة ، فإن سعيداً كان قد وجد الحل لمشاكل البلاد — ومنها مشكلة الموظفين — كما هداه تفكيره وعلى طريقته الخاصة . وقد أعلن هذا الحل عند زيارته للسودان (بين نوفمبر ١٨٥٦ ، وفبراير ١٨٥٧) ، ففى ٢٦ يناير سنة ١٨٥٧ أصدر فى الخرطوم مراسيم أربعة(٢) ضمت كل التوجيهات التى رآها تصلح من حال البلاد فى جميع النواحى ؛ وقد كان من هذه الإصلاحات الاستعانة بالمشايخ ورؤساء النواحى والقرى والعشائر فى حكم البلاد ، والسير بهمة فى سودنة الوظائف وطرد الموظفين الذين ثبت إهمالهم — وعلى رأسهم حكمدار السودان ورئيس مجلس الدعاوى . وكان من رأى سعيد أن فرصة تنفيذ هذه الإصلاحات مواتية أكثر فى حالة الرجوع إلى مركزية الحكم فى البلاد(٣) .

---

(١) محفظة رقم ٣ معية — وثيقة رقم ٣٢٣ عريضة شكوى خاصة بسوء تصرفات الحكمدار من رئيس مجلس الخرطوم وأعضاء المجلس بتاريخ ١٩ ذى الحجة ١٢٧٠ .

(٢) Abbate, Le Dr. O. ; De l'Afrique centrale, ou Voyage de S. A. Mohamed Said Pacha dans ses Provinces du Soudan. Paris, 1858, p.p. 29-46.

(٣) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى الوثيقة رقم ٢٠ أمر إلى حكمدار السودان ٢ جمادى الثانية ١٢٧٣ .

جربت مصر طريقتين لحكم السودان :

أما الطريقة الأولى فهى أن يمثل الوالى فى البلاد حاكم عام (حكمدار) يقوم على رأس =

ومعنى ذلك أن سعيداً جابه مشكلة نقص الموظفين فى السودان ، وتجنب بعضهم طريق العمل القويم بنقل إدارة البلاد تدريجياً إلى الجنس الوطنى ، وتقليل حاجة البلاد إلى الموظفين بتحويل الإدارة فيها إلى النظام المركزى بما يستتبعه من إلغاء الحكمدارية ومكاتبها فى الخرطوم . وعلاوة على ذلك اتجه سعيد إلى العمل على ضمان إقبال الموظف على العمل فى السودان وقيامه بعمله خير قيام بإصلاح شروط الخدمة فيه ، فأصدر لائحة جديدة للخدمة فى السودان كان أهم ما فيها مكافأة العاملين هناك من الضباط الجهادية بحسبان السنة سنتين فى المعاش والسماح لمن يريد منهم الإياب إلى مصر بالرجوع فى أى وقت يشاء(1) :

= الإدارة بمثابة نائب ملك ، ويتولى جميع السلطات المدنية والعسكرية فيها ، ويكون همزة الوصل بين السودان والقاهرة . وقد جرب العمل بهذه الطريقة معظم أيام الحكم المصرى تقريباً . والحكم على هذا الشكل لامركزى لأن سلطاته هنا فى أيدى الحاكم العام المقيم فى الخرطوم .

ويشار إلى الطريقة الثانية بالمركزية فى الحكم ، لأن سلطات الحكم هنا مركزة فى القاهرة والعلاقات الإدارية بين السودان وحكومة القاهرة قائمة عن طريق مدير كل مديرية مباشرة - حيث أن صلة الوصل بينهما ، وهو الحكمدار ، لا وجود له . وقد جرى العمل بهذه الطريقة أكثر من غيرها أيام سعيد باشا .

(1) دفتر ٧ عربى أوامر جهادية - الوثيقة رقم ٢٨٦
إلى ناظر الجهادية بتاريخ ذى الحجة ١٢٧٩ .

ويجب ألا نقلل من خطورة تخلف الموظفين المنقولين من مصر عن السفر إلى السودان الذى عالجه سعيد على طريقته ، فقد أدى تخلف أحد الموظفين الكبار عن تسلم عمله فى السودان على عهد إسماعيل إلى تغيير نظام الإدارة فى البلاد . فمنذ وفاة الحكمدار موسى حمدى باشا (مايو ١٨٦٢ - مايو ١٨٦٥) صدر الأمر بتعيين الحكمدار جعفر باشا صادق خلفاً له . ولكن نظراً لاتساع الحكمدارية فى أواخر أيام موسى حمدى فقد رأى الخديو إسماعيل تقسيمها إلى مناطق ثلاث يحكم كل منها حكمدار مستقل ، على أن يتعاون الحكمدارون الثلاثة فيما بينهم على المصالح المشتركة ، ويكون كل منهم مسئولا مباشرة أمام القاهرة . ولكن لم يقدر لهذا التقسيم أن ينفذ ، ويبدو أن من أسباب ذلك امتناع أحد الحكمدارين الثلاثة - وهو حكمدار الخرطوم - عن الذهاب إلى السودان معتذراً بمرضه . فرجع إسماعيل ثانية إلى حكم البلاد على أساس الحكمدارية الواحدة ، وثبت جعفر باشا صادق حكمدارا : =

وهكذا عالج سعيد أمر الموظفين المنقولين من مصر للعمل فى السودان بمنحهم بعض الحوافز المادية وطمأنتهم على العـــودة إلى مصر أى وقت يشاءون ، وبما يتفق مع نظرته إلى العــلم والمتعلمين ويتضمن اغلاق المدرسة :

= دفتر ٥٣٧ معية تركى — وثيقة رقم ١
إرادة صادرة إلى حكمدار جزيرة سنار ، بتاريخ ٩ محرم ١٢٨٢ .
ونفس الدفتر ، ص ٦٦
إرادة صادرة إلى حكمدار السودان ، بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٨٢ .

بعثة رفاعة الطهطاوى فى الميزان

حصاد مدرسة الخرطوم أيام رفاعة :

والآن ، ما هو حصاد مدرسة الخرطوم أيام رفاعة ، وما هى الآثار التى نتجت عن رحلته إلى السودان ؟ .

عند زيارة الرحالة الإنجليزى هاملتن[1] للمدرسة دهش للقـدر الذى استوعبه التلاميذ من المعارف فى عام دراسى واحد ، وهو يقرر بعد الزيارة أن السنوات الطويلة التى تضيع فى التعليم فى الشرق حتى يصبح المتعلمون شيئاً مذكوراً تُختصر هنا فى الخُرطوم إلى حـدّ كبير ، وأن السرعة الملحوظة عند الأولاد فى الحفظ والاستيعاب قد تمت الاستفادة منها إلى أكبر درجة ممكنة .

وإذا كانت المدرسة لم تستمر إلا عاماً دراسياً واحداً فإن حصـادها كان أكثر من أن يُقاس بتلك المدة البسيطة ، وفى ذلك يقول رفاعة : « وكذلك قد تعلم فقهاء الخُرطوم ممن معى من المشايخ تجويد القرآن الشريف وعلم القراآت حتى صاروا ماهرين فى ذلك » .

ولقد كان من أثر وجود رفاعة فى الخرطوم واحتكاكه بالطبقة المثقفة من الوطنيين ما ظهر فى المكاتبات الرسمية المتبادلة بين الحكمدارية والقاهرة من طلب الأولى المستمر للكتب لصرفها إلى القضاة (والنوّاب) بالثمن ، وظهر النشاط فى مصر فى البحث عن هذه الكتب فى المطابع الأهلية ومطبعة بولاق والكتبخانة وعند الأفراد (والكتبية) لإرسالها إلى السودان . ومن هذه الكتب : مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ، وحاشية الصاوى على

---

(1) op. cit. p.345.

الجلالين ، وحاشية الطحطاوى على الدّر المختار . وقد وصل الاهتمام بإمداد قضاة السودان وعلمائه بالكتب المطلوبة إلى درجة أخذت معها مطبعة بولاق على عاتقها طبع بعض هذه الكتب(١) .

ولكن ، أليس هناك من أثر يدلنا على تلاميذ المدرسة ، وماذا كان من أمرهم بعد أن تركوا المدرسة إلى ميدان الحياة الواسع ؟ .

يشير رفاعة إلى أن بعض طلبة المدرسة قد وُظفوا فى المدارس التى افتتحها إسماعيل باشا فى السودان بعد ذلك(٢) . وربما كان من تلاميذ المدرسة بُساطى بك الذى يقول فيه غردون باشا أثناء حكمداريته الأولى (فبراير ١٨٧٧ — يناير ١٨٨٠) — وكان بُساطى بك سكرتيره : « إنه تعلم فى مدرسة الخرطوم على يد علامة مشهور ، ووصل إلى درجة من العلم تجعله يقف على قدم المساواة مع خريجى أرقى معاهد أوربا ، فقلما يوجد موضوع لا يمكنه التحدث فيه بطلاقة ، وهو يعرف حكومة البلاد وضرائبها وتاريخها ، كما يمكنه الكتابة بعدة رموز دون النظر إلى مفاتيحها(٣) .

رفاعة الخرطوم غيره الذى عرفناه فى مصر وباريس :

إن هذا الذى أشرنا إليه حصاد قليل فى الواقع لأربع سنوات أمضاها رفاعة فى الخرطوم .

---

(١) تضمنت إحدى المكاتبات « ورود الإفادة من المطبعة بأن طبع من حاشية الطحطاوى ٣٣ ملزمة من أصل ٤٩٥ ملزمة » : دفتر ٧٤ وارد معية — المكاتبة العربية رقم ٢١ ص ٢٥ ، من ديوان المدارس بتاريخ ٢٨ القعدة ١٢٦٨ .

(٢) مناهج الألباب : ص ٢٨٠ .

(٣) **Hill, G. B.; Colonel Gordon in Central Africa, 1874-1879. footnote of p. 398 & p. 273 & p. 399.**

فقد كانت الخُرطوم عند الأجانب مزيداً من الكسب المادى والعلمى ، وقلعة للمدنية على حواف البربرية . وكان أكثر الأوربيين من تجـار الخُرطوم يمضـون خمسـة شهور فى رحلـة الجنوب وباقى السنة فى الخرطوم يتنفسون نسيم الراحة والإستجمام بعد عناء السفر والانتقال بينما هم يستعدون فى نفس الوقت للرحلة الجديدة . وهذا هو شأن المدينة عند جماعة الرحالة والمغامرين والمكتشفين من المقيمين الأوربيين الذين كانت المدينة عندهم محطة البدء والنهاية لرحلاتهم وكشوفهم(١) .

أما الخرطوم عند رفاعة ، فقد كانت الجحيم الذى أرسله عباس إليه ، فلم يرَ فيها إلا كلَّ نقيصة وسيئة . ففيها كان يشكو الإبعاد ، والحنين إلى الوطن والأهل ، وحجز المرتب ، ووفاة الخلاّن . ولقد كان فى طبيعة المدينة ما ساعد على تكوين حال رفاعة ، فقد كان العيب كل العيب الذى يشكو منه سكان المدينة هو انخفاض سطحها وتجمع ميـاه الأمطار فى المنخفضات التى تتخلله ، مع عدم وجود أسلوب مجد لتصريف هذه المياه التى كانت تملأ الجو بأبخرتها العفنة التى تسبح فيها جيوش البعوض الذى لم يكن قد اكتشف دوره فى ذلك الوقت فى الإصابة بالحمى المتقطعة ، وهى أخطر الأمراض على حياة السكان . وفى الحقيقة لقد كانت نوبات الأمراض والأوبئة مظهراً حتمياً من مظاهر الحياة فى مجتمع الخُرطوم ، وقد قيل

---

(١) كانت الخرطوم — على هذا النحو — عند شاييه لونج ، وكانت تذكره بباريس : فحلاتها تزخر بكل المطالب من خمر ودخان وملابس جاهزة الأمر الذى يذكره بمحلات (الباليه رويال) ، وحدائقها تمتلىء بكل أصـناف الفاكهة وهو ما يذكره بحدائق (الشواليزيه) ، وضفاف النيل الأزرق تظل عليها أشجار النخيل من عل فتذكره بالشوارع الرئيسية بباريس :

Chaillé Long, Col. C.; Central Africa: Naked Truths of Naked people, p. 218 & p.p. 220 - 21.

إن أمراض الصيف تقضى بشكل منتظم على نصف سكان المدينة من البيض فى كل عام . كل هـذا فى الوقت الذى عُرف فيه عن رفاعة شدة التطير[١] .

لهذا عاش رفاعة فى الخرطوم فى معظم أحواله خامد الهمة . فأين هو من أيام باريس حين أمضى خمسة أعوام فى دأب علمى منقطع النظير ؟ ، وأين هو من أيام مدرسة الألسن حينما «كان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء أو عند ثلث الليل الأخير ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة أو فنون الإدارة والشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية ، وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس كتب فنون الأدب العالية . . . . ، ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة أو التأليف ، وكانت مجامع الامتحانات لا تزهو إلا به ؟ »[٢] .

وهكذا جنحت برفاعة نفسه وهو فى الخرطوم فكان رفاعة آخر غير الذى عرفناه فى مصر وباريس ، وهو الذى قال فيه تلميذه السيد صالح مجدى[٣] : «كان مجلسه رضوان الله عليه مجلس مسرات وأفراح ، وطال ما حضرته وسمعت فيه من لطيف المزاح ما يشهد له برقة المزاج ويقضى بأن سحره الحلال يقوم للعليل مقام العلاج .

---

(١) يظهر هذا التطير فى هرب رفاعة إلى بلدته طهطا وإقامته بها عدة أشهر عندما ظهر مرض الطاعون فى القاهرة سنة ١٨٣٤ . وإنه ليلج أحد الأبواب ذات يوم إلى قاعة صديق فإذا القارئ يتلو (أينما تكونوا يدرككم الموت) ، فتشاءم ولم يدخل :

على عزت الأنصارى : رفاعة فى أسرته ص ١٩٦ — ١٩٧ من : مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى .

٥ انظر الملحق الرابع ص ١٧٤ : « وصف لمدينة الخرطوم سنة ١٨٥٣ » أثناء وجود رفاعة بها .

(٢) مناهج الألباب : ص ٥

(٣) المصدر السابق .

يذكرنى فى أنفاسه رائد الصبا ويذكرنى فى أسفار أسفاره الفجر
وما رق زهر الروض إلا تبسمت لناظر عينى منه آدبه الزهر » .

لذلك نجد رفاعة مع قدرته الفائقة فى تذوق الغث والثمين من نظم الحياة فى المجتمعات الجديدة التى يحل بها بعاداتها وتقاليدها ، كما ظهر فى كتاب رحلته إلى باريس — لم يستوقف نظره أثناء إقامته بالخرطوم من نظم الحياة والعادات والتقاليد فى السودان ما أثار قلمه[1] ، وكان مجال الكتابة فيها غنياً كل الغنى . ولو كان رفاعة فى أحواله العادية ما فاته أن يسجل ما رأى ، وأن يخرج أسفاراً لرحلته يعبر فيها عن انفعالاته بالسكان والمكان ، وله فى مجتمع الخرطوم خير عون وأطيب رصيد من نفثات القلم وصولاته :

فلو كان رفاعة فى أحواله العادية ما فات قلمه أن يسجل حدثاً تمت فصوله عندما كان فى الخرطوم — وهو بناء سراى الحكومة أعجوبة أهل الخرطوم فى ذلك الوقت ، وأعجوبة مشايخ العرب من زوارها الذين كانوا لا يصدقون أنها من عمل الإنسان وحده[2] ، والتى تعرض لقصة بنائها كل من زار الخرطوم من الأجانب وكتب عن هذه الفترة ، وكان الحكمدار عبد اللطيف قد أعاد بناءها من جديد مستعيناً بالآجرّ المنقول من بقايا مدينة سُوبا وبعض المبانى القديمة فى أبى حراز ترجع إلى العهد المسيحى ، وتم له ذلك كله فى تسعة أشهر فقط . وما كان يفوت رفاعة أن يسجل قلمه لمحة عن حدائق المدينة ، وكانت علماً عليها ، وعن عمارتها وتجارتها وسوقها الذى أجرى ألسنة الأهالى بعبارة « ايش معدوم فى سوق الخرطوم » وأجرى ألسنة الأجانب بالعجب مما جاء بكل تلك البضائع إلى منطقة كالخرطوم فى داخل إفريقية .

---

(١) نرى رفاعة لم يكتب فى هذه الناحية إلا وهو فى انطلاقة نفسية عارمة ضمن نفثاتها قصيدته إلى حسن باشا كتخدا مصر .

(٢) Taylor. B. ; op. cit. p. 277.

ولو كان رفاعة فى أحواله العادية ما فاته وصف النيل الأزرق متعة أهل الخرطوم ، وما فاته وصف جزيرة توتى القريبة من (المُقْرن) ، وهى منطقة التقاء النيلين الأزرق والأبيض وجنة الله فى أرضه ، وما فاته التعرض لمجالس الرواية الشفهية حيث الحديث الصادق الطلىّ عن تاريخ البلاد ، وما فاته الانتقال من الخرطوم لمسافات قصيرة حيث رياسات القبائل والمشيخات ، ليستقصىَ تاريخها مذ هاجرت من شبه جزيرة العرب ، ويتعرف على عاداتها ، ويستمع إلى ملامحها حتى تم لها الاستقرار فى أوطانها وسط موجات الطامعين والمنافسين ، وما فاته أن يسجل لنا خبر (تأجوج ومحلّق)[1] — ؟ وهى قصة حب حقيقية رواها كل من تعرض لمجتمع السودان ، وكانت معروفة جيداً فى أيامه ؟

ولو كان رفاعة فى احواله العدية ما فاته الحديث عن ملامح الحكم المصرى فى السودان : فيجرّحه ، وبما له من أصالة فى الرأى وعمق فى الملاحظة يبين ما له وما عليه ، ويذكر مدناً جديدة ظهرت إلى الوجود كنتيجة حتمية لذلك الحكم على رأسها الخرطوم نفسها ، ومدناً أخرى أخذت فى الاندثار مذ بدأ ، ويشير إلى حمى التجارة مع الجنوب التى بدأت قوية عملاقة مع فتح النيل الأبيض للتجارة الحرة منذ سنة ١٨٥٠ بعد تمام كشفه ، وقد عاصر الحدث كله ؟

ترجمة « وقائع تليماك » هو العمل الوحيد لرفاعة فى الخرطوم :

والخلاصة أن رفاعة خرج من رحلة السودان برصيد عامى ضئيل

---

(١) طالع هذه القصة فى : نعوم شقير : المصدر السابق ج ١ ص ٥٩ — ٦٠ .
، الدكتور محمد عوض محمد : السودان الشمالى — سكانه وقبائله ص ١٥٧ — ١٥٨ .

A. Harwood, F. L. : "The Story of Tajoj",
Sudan Notes and Records, vol. xxiv, 1941, p.p. 197-99.

لا يتناسب مع قدر ما مارس من تجربة فيه سجّله بعد أن أصبحت رحلة السودان ذكرى باعد الزمن بينها وبينه ، وهـــذا يصدق على ما كتب عن السودان بعد رجوعه منه ، اللهم إلا عملا واحداً قام به وهو هناك — وهو ترجمة (وقائع تليماك)[١] . فإنه إذا كان الرصيد الثقافى الذى خلفه لنا رفاعة يتمثل فى الثقافة العربية كما كانت معهودة فى مصر إبان حياته ، وفى المعارف التى كانت سائدة فى عصره فى البيئة الأوربية كما تتمثل فى الثقافة الفرنسية ، وفى الأفكار التقدمية — بالقياس إلى عصره — التى كانت تشع فى ثنايا كتاباته ، إذا كان ذلك كذلك فإن نشاط رفاعة وهو فى الخرطوم لم يعدُ الناحية الثانية من هذا الرصيد كما تمثل فى هذه الترجمة . ويبدو أن الترجمة عند رفاعة كانت بالقياس إلى الأعمال الأخرى فى الدرجة الأخيرة من حيث المجهود اللازم لها ، وفى الدرجة الأولى من حيث الميل إليها ، عندما تغرقه الهموم ويعجز عن لمّ شمل النفس ، فيتيسر له التمكن منها لخفة المجهود اللازم لها ، ولذلك اقتصر عمله وهو فى السودان على الترجمة ولم يحدث أن ألف فيه شيئاً[٢] . واقتصار عمل رفاعة على الترجمة عند الملمات يفسر ما قام به فى أثناء إقامته فى بلدته طهطا بعد أن غادر القاهرة سنة ١٨٣٤ عند ظهور الطاعون فيها ، فقد ترجم

---

(١) وتعرف الترجمة (بمواقع الأفلاك فى وقائع تليماك) ، وقد ظهرت الطبعة الأولى للكتاب فى باريس سنة ١٦٩٩ تحت عنوان :

Fenelon : Les Aventures de Telemaque, Paris 1699.

وقد طبعت الترجمة مرتين فى بيروت : الأولى فى المطبعة السورية سنة ١٨٦٧ وكانت فى ٧٩٢ صفحة ، والثانية فى المطبعة اللبنانية (تنقيح وضبط المعلم شاهين عطية) سنة ١٨٨٥ وكانت فى ٤٣٩ صفحة .

(٢) يقرر السيد صالح مجدى فى ترجمته لرفاعة أنه وهو فى السودان ألف وترجم عدة كتب من ضمنها كتاب تليماك ، ولكن رفاعة فى الواقع لم يقم هناك بغير الترجمة الأخيرة . وفى ذلك يقول على مبارك أيضاً : « وربما كان رفاعة قد ترجم فى الخرطوم كتباً أخرى غير هذا الكتاب » :

الخطط التوفيقية الجديدة ج ١٣ ص ٥٥ .

هناك الجزء الأول من جغرافية (ملطبرون) وكان قد بدأ فترجم منه صفحات وهو في باريس .

يقول رفاعة فى (وقائع تليماك) : « ومع أن مدة الإقامة بتلك الجهات (أى فى السودان) كانت لمجرد الحرمان من النفع الوطنى فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن سفرى لم يضع هباءً منثوراً ؛ فتمد اعتنيت فى مدتى هناك بترجمة وقائع تليماك »[١] . وفى مكان آخر من مؤلفاته يقول رفاعة : « فما تسليت هناك إلا بتعريب تليماك وتقريب الرجا بدور الأفلاك ، وقلت لنفسى إن تعريب تليماك بكل من فى حماك »[٢] .

و (وقائع تليماك) كما يقول رفاعة فى مقدمة الكتاب « مشتمل على الحكايات النفايس ، وفى ممالك أوربا وغيرها عليه مدار التعلم فى المكاتب والمدارس ؛ فإنه دون كل كتاب مشحون بأركان الآداب ومشتمل على ما به من كسب أخلاق النفوس الملكية وتدابير السياسات المالكية . . . . ، وهذه أساليب فى قالب الترجمة معتادة عساه أن ينفع فى سائر البلاد المشرقية التلامذة ، وأن يكون كتاباً جيداً من كتب العربية تعتمد عليه فى التعليم الأساتذة ، لا سيما فى الديار المصرية »[٣] .

ويعتذر رفاعة فى مقدمة الكتاب لأنه عرّبه وهو فى السـودان مبلبل الخاطر ، ثم طرحه فى زوايا الإهمال حتى علم به بعض طلابه فاقتصر على أن أرسل إليه « بنسخة مقابلة على أصلها إذ كان أحق بها وأهلا »[٤] . وقد تصرف رفاعة فيه بالزيادة والنقص والتزم فيه السجع مع حسن الوضع

---

(١) مناهج الألباب ص ٢٧٩ .

(٢) وقائع تليماك ص ٤ .

(٣) « « ص ٥ .

(٤) « « ص ٢٣ .

حتى « بدا كأنه لم ينسج له نظير على منوال ، وغدا من المؤلفات العديمة المثال »[١] .

والكتاب لقسيس فرنسي يدعى (فنلون) ، كان مربياً لحفيد الملك لويس الرابع عشر ، استقاه من الميثولوجيا اليونانية ليقرأه الأمير الشاب فتنمو فضائله ويقوّم اعوجاجه . ويرى الدكتور حسين فوزى النجار[٢] فى إقبال رفاعة على ترجمة (تليماك) فى محنته تنفيساً عما يصدره من عنت الحاكم المستبدّ الذى طوّح به إلى السودان ، فالكتاب فى مرماه تقويم للحاكم ونصح للسلطان ، وهو من هذا الأدب الرمزى فى نقد الحكم والاستبداد فى أوربا إبان يقظتها القومية .

ويرجح الأستاذ محمد خلف الله أحمد[٣] أن الكتاب كان أول كتاب من نوعه فى تاريخ الترجمة العربية قديمها وحديثها ، وأنه يمثل أول محاولة جريئة فى تقديم الأدب الأسطورى اليونانى باللغة العربية ، وأن رفاعة قد بدأ بهذا الكتاب عهداً جديداً فى الثقافة العربيـــة وصلتها بأدب اليونان وأساليبهم ، ووضع أمام الخيال العربى لأول مرة فى كتاب ضخم قصة يونانية حافلة بالأحداث والمغامرات والعشق والأسر والضيق والفرج والنقد الاجتماعى واستخراج العظات من حوادث الأيام ومقارنة النماذج البشرية فى الحكم والسياسة ووصف طبائع البلاد المختلفـــة وعادات أهلها وتطور معارفهم وفنونهم ، وقد كانت هذه من غير شك بداية لها ما بعدها ، فهى من ناحية قصص ، وهى من ناحية أخرى لون من ألوان التراث

---

(١) السيد صالح مجدى : المصدر السابق .

(٢) رفاعة الطهطاوى ص ١٣٥

(٣) جانب من صور رفاعة فى تجديد اللغة والفكر والأدب ص ١٥٥ — ١٥٦ من « مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى » .

اليونانى ، وكلا هذين كان له شأن فى تطور دراسات التاريخ والآداب القديمة ، وفى نمو أدب القصة والمسرح فى العالم العربى فى القرن العشرين :

السودان فى كتب رفاعة :

وتبدو آثار رفاعة عن السودان فى كتابه (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) ، وكان حديثه فيه منصبّا على ناحيتين :

الناحية الأولى : على نفسه حينما كان مبلبل الخاطر يدعو الله أن يردّه سالماً إلى مصره ، كما ظهر فى القصيدتين الطويلتين اللتين يتوسل فيهما إلى النبى عليه الصلاة والسلام وإلى كتخدا مصر للرجوع إليها .

والناحية الثانية : حينما غاص بنفسه فى بعض نواحى السودان وكان له فيها آراء سديدة . ومن ذلك ما سجّله عن السبب الرئيسى لرحلة محمد علىّ إلى السودان ؛ وهو محاولة التوصّل إلى نتيجة حاسمة فى موضـــوع استخراج الذهب الذى يكثر بالبلاد[1] . ومما تعرض له رفاعة أيضاً مسألة الكشف عن منابع النيل على عهد محمد علىّ[2] . كما تحدث عن التجارة بين داخل إفريقية ومصر ووضع رأيه فى وسائل إنعاشها[3] .

وكان لرفاعة رأيه فى التعليم الأجنبى فى مصر الذى غزت مدارسه كثيراً من المصريين وأغرتهم بأن يرسلوا إليها أبناءهم ، ومن ذلك أنه كان قد

---

(١) مناهج الألباب : ص ٢٥٥ ، وراجع أيضاً ص ٢٤٩ — ٢٦١ .
راجع المنتخب الثالث ص ١٥٣ .
(٢) نفس المصدر : ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .
راجع المنتخب الرابع ص ١٥٦ .
(٣) نفس المصدر : ص ٣٢٠ — ٣٢١ .
راجع المنتخب الخامس ص ١٥٨ .

بدأ بمدّ إشرافه على هذه المدارس بالاشتراك فى امتحاناتها وحفلاتها العامة .
وفى الخرطوم شاهد رفاعة مولد الإرسالية الكاثوليكية ومدرستها ، مع ما صاحب ذلك من مكاتبات ومداولات بين الخرطوم والقاهرة لم تكن بعيدة بلا شك عن سمع وبصر كبار رجالات الخرطوم ، ومنهم رفاعة[1] .
وفى هذه المدينة رأى رفاعة من أعمال هذه الإرسالية ما يستوقف النظر ، مثل عملها على تنصير الصغار وتشجيع العبيد على الهرب من سادتهم ، الأمر الذى أقام رجالها من أجله ملجأ بمبنى الإرسالية لهؤلاء العبيد الفارين .
فهل كان لمثل هذه الأعمال أثر فى تكوين رأى رفاعة فى المدارس الأجنبية عموماً ؟ .

ويعقد رفاعة فى (المرشد الأمين للبنات والبنين) فصلا كاملا فى سرعة تزويج المرأة واستحباب القليل من الصداق ، بل إنه ليروى حديثاً يقول بأن المرأة التى تخفف من صداقها لها الأجر والثواب . وربما كان الوقت الذى عاشه رفاعة فى الخُرطوم لا يزال به مسكة من الدعوة التى نادى بها الحكمدار أحمد أبو ودان (أبريل ١٨٣٨ — اكتوبر ١٨٤٣) — سعياً وراء زيادة عدد السكان بالبلاد — بالحض على الزواج ، وهو الأمر الذى خفّض من أجله مهور البنات وجعلها بين خمسة وسبعين قرشاً ومائة وخمسين قرشاً[2] . وربما كان لحقائق الحياة العامة فى المجتمع السودانى بعض الأثر فيما قرر رفاعة فى هذه الناحية .

---

(١) راجع : الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٥ — ١١٠ .

ولقد كان لكل من بعثة رفاعة فى الخرطوم والبعثة الكاثوليكية فيها طريقه وأهدافه :

انظر الملحق الخامس : قصة البعثة الكاثوليكية فى الخرطوم ومدرستها ص ١٥٨ .

(٢) سعد ميخائيل : السودان بين عهدين : اتفاقية ١٨٩٩ ومعاهدة ١٩٣٦ ص ٢٠٦ .

وكان موقف رفاعة كما جاء فى (المرشد الأمين) صريحاً من التعـــدد والتسرّى . فهو يقبلهما و يرى لهما عللا(١) . فهـــل كان لوجوده فى الخرطوم ثمة أثر فى هذا الموقف ؟ . قد يكون الأمر كذلك ، وخاصة إذا علمنا أن تجارة الرقيق كانت مزدهرة فى الخرطوم . وقد عاش رفاعة هذا الجوّ فى المدينة ، وعندما رجع منها صحبه إلى مصر مواليه الذين اشتراهم وهو فى السودان . ويقرر على عزت الأنصارى(٢) أنه كان منهم سُمّاره ووكلاؤه ، وأن بعضهم اشـــتغل بالعلم والأدب مع أولاده وآلهـ ، وقد نبغ منهم الأديب خليل نظير الذى كان زجله منقطع النظير .

* * *

رفاعة ومجتمع الخرطوم :

ومهما كانت آثار الإقامة فى السودان ، وما تركته فى نفس وعقل رفاعة فإنه لم ينسَ أنه نجم من نجوم مجتمع الخرطوم ، فكان يشـــارك فى المناسبات العامة ، ومن ذلك ، الحفل الذى أقامه أمام منزله بمناسبة خطبة ابنة السلطان إلى ابن والى مصر ودعا إليه أعيـــان الخرطوم من الوطنيين والأجانب وعلى رأسهم رئيس مجلس الدعاوى ومدير الخرطوم(٣) . ومن ذلك أيضاً ، الاشتراك فى (صالونات) الأوربيين التى لم يفوتها الانفعال بالأحداث الجارية والمناسبات القومية . كما كان لرفاعة (صالونه) الذى

---

(١) راجع ص ١٤٩ من المرشد .

(٢) رفاعة فى أسرته ص ١٩٧ من « مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى » .

(٣) جاء فى وصف هذا الحفل :

رُصّت (العنقريبات) للمدعوين على طول جوانب ثلاثة من الساحة التى أمام منزل رفاعة ، أما الجانب الرابع فكان مسرحاً لجماعة الطرب والرقص والموسيقى . وكان العامة يقفون فى حلقة كبيرة وراء السادة الجالسين ، وتنير لهم المسرح مصابيح قوية =

كان يجتمع فيه المثقفون من رجالات الخرطوم والعاملون فى التجـــارة والرحلات ، وفى السلك القنصلى على وجه الخصوص . وكان رفاعة يلبى دعوات كبار رجال الخرطوم ويشارك فيما يقام من الاحتفالات ، فها هى ذه السلطانة (نصرة) ابنة آخر ملوك سنار والمقيمة فى الخرطوم تقيم حفل عشاء (سنة ١٨٥٢) احتفاءً بمقدم الرحالة الأمريكى بايارد تيلور إلى المدينة ، وتدعو إليه رفاعة ونائب القنصل النمسوى وبعض صحبه ، وتقدم إليهم بعد العشاء المشروبات الوطنية ، فإذ انتهى الحفل أتحفت كلا منهم بهدية(١) .

ومن الرحالة أصدقاء رفاعة نجد الدكتور بنى (Dr. Peney) الفرنسى كبير أطباء الحكومة . ومن الرحالة أيضاً زوار الخرطوم وأصدقاء رفاعة چورج مللى وأندريه مللى وهاملتن الإنجليز ، وبايارد تيلور الأمريكى ، وشـــارل ددييه الفرنسى — وكلهم ذكروا رفاعة فى كتب رحلاتهم فى السودان ويعرفون فضله العلمى ، ومن ذلك ما تحدث به الأخير عن اطلاع رفاعة وعلمه الواسع ومعرفته بالفرنسية ومكانته عند العارفين بها(٢) : ومن رجال الدين الأجانب والمكتشفين فى نفس الوقت نجد الدكتور نوبلخر (Dr. Knoblecher) رئيس البعثة الكاثوليكية بالخرطوم . ومن رجال السلك القنصلى بالخرطوم أصدقاء رفاعة نجد الدكتور ريتز (Dr. Reitz) نائب القنصـــل النمسوى بين سنتى ١٨٥١ ، ١٨٥٣ ، وخليفته هجلن (Heuglin M. T. h V.) . ويبدو أن ريتز كان صديقاً حميماً لرفاعة فقد

= وكان الموسيقيون يجلسون على الحصير ، ووراءهم المرددات من النسوة المحجبات اللائى كن يصفقن مع الأنغام ويغنين باصطحاب الموسيق . وأمام الموسيقيين وفى وسط المسرح كانت حلبة الرقص حيث الرقص بأنواعه المختلفة ، ومن أهمها وأكثرها جاذبية الرقص بالسيف :

Didier, Charles; «Khartoum»,

Nouvelles Annales des Voyages de la Geographie , de l'Histoire et de l'Archeologie, Année 1856, tome Deuxieme. p.p. 79-80.

& Hamilton, J.; op. cit. p.p. 324 - 25.

(١) Taylor, B.; op. cit. p.p. 293 - 96.

(٢) Didier, Charles; op. cit. p. 72.

رأيناهما فى كتاب رحلة بايارد تيلور(1) يغادران سراى الحكومة فى إحدى الأمسيات وأحدهما يتأبط ذراع الآخر آخذين طريقهما إلى منزل رفاعة ، كما كان ريتز يستمع دائماً وكله إنصات إلى شكوى رفاعة من الإبعاد ويردد صدق فحواها ويؤيدها عندما يبسطها رفاعة فى أحد المجالس ، وربما كان ذلك مما قرب ريتز إلى قلب رفاعة .

(١) op. cit. p. 292.

وريتز هو قسطنطين ريتز (١٨١٩ – ١٨٥٣) شخصية ذات نفوذ فى الخرطوم ، كان صياداً وفارساً كبيرا ، واشتهر بنشاطه الفائق . فى سنة ١٨٥١ صحب الحملة العسكرية التى أرسلت لإخضاع قبيلتى الحلانقة والشكرية فيما بين مدينة كسلا ووادى نهر عطبرة . وكان وكيلا لشركة تكونت بقصد استخدام البواخر الصغيرة فى النيل الأبيض للأغراض التجارية . وقد مات بالحمى فى الخرطوم عند عودته من رحلة فى الحبشة كان زميله فيها (هجلن) الذى خلفه كنائب قنصل النمسا بالخرطوم . وجنسيته غير معروفة ، وإن كان يظن أنه من أصل بولندى :

Richard Hill : A Biographical Dictionary of the Anglo Egyptian Sudan, p. 316.

خاتمــة

التعليم فى السودان ومدرسة الخرطوم

بعــد رفاعة

التعليم الرسمى أو الحكومى :.

والآن ماذا عن مدرسة الخرطوم بعد رفاعة ؟ :

استمر عهد سعيد باشا دون أن يشهد السودان مدرسة حكومية . فلما جاء الخديو إسماعيل كتب إلى الحكمدار موسى حمدى باشا (مايو ١٨٦٢ — مايو ١٨٦٥) بخصوص « تنظيم مكتب على طرف المدير بالخرطوم ليعلموا فيه قدر خمسماية نفر تلامذة ليؤخذ منهم من يلزم فى وظائف الكتابة والمعاونين بحسب اللزوم » . ولكن موسى حمدى رأى توزيع هذا العدد على المديريات الخمس ، وبذلك تقرر افتتاح خمس مدارس فى مديريات : الخرطوم ودُنقله وبربر وكردفان والتاكه (كسلا) ، بدلا من مدرسة واحدة فى الخرطوم[1]. وأنشأ الحكمدار المكاتب الخمسة فى محرم سنة ١٢٨٠ (يونيو سنة ١٨٦٣) ، ورتب لمكتب الخرطوم مائتى تلميذ . والغالب أن تلك المدارس كانت تشبه فى نظمها المدارس الإبتدائية فى مصر ، وكان يُسمح للمتفوقين من تلاميذها بالالتحاق بالمدرسة التجهيزية والمدارس الأخرى فى مصر[2] .

---

(١) دفتر ٥٢٦ فركى — الوثيقة رقم ٢٢
بتاريخ ١٠ ذى القعدة ١٢٧٩

(٢) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٧٤ — ٧٦ ، ص ٧٨ .

وكانت مدرسة الخرطوم قسمين[١] : الأول برّانى بالمصروفات ، وقدرها ريال مجيدى فى الشهر (١٦ قرشاً) . والثانى داخلى بالمجان ، ونظامه عسكرى . وكان القسمان يتعلمان فى فصول واحدة مشتركة ، ويتلقون نفس المواد إلا اللغة الفرنسية فكانت اختيارية للقسم البرانى . ومواد الدراسة هى اللغتان العربية والتركية والحساب والعلوم الهندسية والرياضية ، وكان يعنى بالخط عناية شديدة . وكان تلاميذ القسم الداخلى يعينون كتبة فى السلكين العسكرى والمدنى ، أما تلاميذ القسم البرّانى فهم مُخيرون ، ومن يطلب منهم وظيفة يعين كاتباً أو صرّافاً . وأغلب التلاميذ من المصريين أولا ثم من أولاد الجند السودانيين بعد ذلك . وفى آخر العهد بالمدرسة كان عدد تلاميذ القسم البرانى أكثر من ثلاثمائة تلميذ ، وتلاميذ القسم الداخلى نحو مائتين . وكان يحتفل بامتحان التلاميذ كل عام ، ومن يرسب فى مادة الخط لا ينجح : هذا ويتبع المدرسة خلوةٌ من فصلين لتعليم القرآن ، وهى داخلية .

وظلت المدرسة محل عناية كبيرة من المسئولين ، وشهد بذلك غردون باشا سنة ١٨٧٤[٢] . ولا صحة لما قيل من أن غردون أثناء حكمداريته الأولى (فبراير ١٨٧٧ — يناير ١٨٨٠) أصدر أمراً بغلق المدارس الأميرية فى البلاد بدعوى أنها تكلف الحكومة نفقات طائلة[٣] ، فإن مدرسة الخرطوم استمرت فى عملها حتى سقوط المدينة فى يناير سنة ١٨٨٥ فى يدىّ المهدى ، وتحدث عنها غردون نفسه فى يومياته فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨٤[٤] ، بل

---

(١) انظر حديث الشيخ محمود القبانى عن مدرسة الخرطوم فى :
التربية فى السودان للدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد ج ٢ ص ٩٣ ؛ ج ٣ ص ٢٨ .
، السودان المصرى والإنكليز المتحدث : ص ٨٨ .

(٢) Hill. G. B. ; Colonel Gordon in Centrel Africa, 1874-1879. p. 6.

(٣) راجع — إسماعيل داشا سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٣٣٥.

(٤) Hake, A. E. : The Journals of Maj.-gen. C. G. Gordon, C. B., at khartoum. p. 6.

إن غردون — علاوة على ذلك — قد افتتح مدرسة حربية فى الخرطوم فى أثناء حكمداريته الأولى[١].

ولم تمض على المدارس التى افتتحت فى عهد الخديو إسماعيل سبع سنوات حتى كان خريجوها يعملون كتبة فى دواوين الحكومة ، كما أن بعضهم كان مستمراً فى تعلم فنى الهندسة والبرق[٢] . وقد حاول الحكمدار جعفر باشا مظهر (ديسمبر ١٨٦٥ — سبتمبر ١٨٧١) تعليم بعض الخريجين الطب والصيدلة دون نجاح . وقد تحققت آمال جعفر مظهر فيما بعد عندما افتتحت مدرسة للطب فى الخرطوم فى عهد الخديو توفيق[٣] ، وإن كان الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد[٤] يميل إلى أن هذه المدرسة لم تفتح أبداً ، فى حين يقرر كازاتى[٥] أنها قد افتتحت فعلا ولكن عمرها كان قصيراً جداً .

التعليم الدينى أو الأهلى :

وإذا كان سعيد باشا لم ينشىء بالسودان مدارس حكومية فإن رغبته فى تشجيع التعليم الأهلى كانت قوية ومتصلة[٦] . ومن ذلك أنه أصدر أمراً بزيادة مرتب إمام بجامع الخرطوم — وقدره مائتان وخمسون قرشاً — أربعة أرادب حب ذرة ، كما هو مرتب لأقرانه ، ولقيامه بالإمامة وتعليم أولاد المسلمين[٧] .

---

(١) Casati Major G. : Ten Years in Equatoria, vol, I, p. 16.

(٢) دفتر ١٨٣٩ معية عربى قيد وارد العرضحالات — الوثيقة ص ٤٤ بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٢٨٧.

(٣) الوقائع المصرية : رقم ٨٢٣ بتاريخ ٢٣ شعبان ١٢٩٦ (١١ أغسطس ١٨٧٩) .

(٤) المصدر السابق : جـ ٢ ص ٩٣ هامش ٢ .

(٥) Casati, Major G. ; op. cit. p. 16.

(٦) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٩ — ٤٢ .

(٧) دفتر ١٨٩٧ صادر الأوامر — الأمر الكريم رقم ١ ص ٢٥ بتاريخ ٦ ذى الحجة ١٢٧٧ .

ولما جاء إسماعيل زادت العناية بالتعليم الأهلى ، وأقبل الفقهاء والشيوخ على تعمير المساجد والخلاوى للعبادة وتدريس القرآن والعلم ، ووجَّه الخديو إلى هذه الطائفة كل تشجيع ممكن . وكان من السهل على من تحدثه نفسه بأن ينال مساعدة سهلة باسم العلم والدين أن يكتب للحكمدار ، فيكتب هذا إلى الوالى بدوره فيوافق على منحه المساعدة . وقد ترتب على ذلك أن اشتد الضغط وكثرت الالتماسات وتضخمت المساعدات ، ودخلت زمرة الفقهاء والعلماء جماعة ادعت العلم والقيام على التعليم وهى منهما براء . وكان من نتيجة ذلك أن أخذ الحكمدار جعفر مظهر (ديسمبر ١٨٦٥ — سبتمبر ١٨٧١) بسياسة إرسال الطلاب إلى مصر للدراسة فى الأزهر ، كما اقترح على الخديو أن يقوم بالتفتيش على أصحاب الخلاوى والمساجد ويبحث عن مؤهلاتهم ، وأن يقطع مرتبات وإعانات وأعطيات من لا علم لهم — يريد من ذلك وضع سياسة واضحة وخطة حكيمة للإدارة الثقافية للبلاد . وقد وافقت القاهرة على إلغاء الإعانات المالية وإعانات الحبوب على أن يحلّ محلها نوع آخر من الإعانات كان معروفاً من قبل ، وهو رفع أموال الحكومة عن الأراضى التى يزرعها الشيخ[1] . وقد سار الحكمدارون بعد جعفر مظهر على طريقه .

وقد لعب جامع الخرطوم دوره فى التعليم ، ولكنه لم يقم بهذا الدور إلا فى عهد الخديو إسماعيل ، فكان به مدرسون من شيوخ الأزهر ومن السودانيين ، يعطون دروساً بحسب حاجة التلاميذ ويتناولون مرتباتهم من الحكومة ، كما كان قاضى القضاة وبعض القضاة يعطون دروساً عامة للجمهور فيه . وكان هذا الجامع علاوة على كونه موئلا للعلم مقاماً للذكر[2] ، كما

---

(١) الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٢ — ٧٠ .

(٢) عبد المجيد عابدين : المصدر السابق ، ص ١١٥ .

كان هناك فى ذلك العهد شيخ للفقهاء يُعطَى راتباً ويعلم الناس التجويد ، وتقوم خلوته أمام منزله (١)

وقد بدئ فى بناء جامع الخرطوم فى سنة ١٨٢٩ على يد خورشيد باشا ، « ولما زادت العمارة فى الخرطوم وكثرت الخلايق هده من أساسه »(٢) ، وذلك سنة ١٨٣٧ ، وأنشأ محله جامعاً أوسع منه استعان فى بنائه بالآجر المنقول من بقايا مدينة سُوبا . ولما كان الحكمدار خورشيد قد غادر البلاد قبل الانتهاء منه فقد أكمله الحكمدار أحمد أبو ودان (أبريل ١٨٣٨ — أكتوبر ١٨٤٣) ، ولكن يبدو أن مئذنته لم يتم بناؤها قبل سنة ١٨٦٠ .

تعليم البنات :

وكانت بالخرطوم مدارس للبنات أهلية مُقامة فى البيوت ، تديرها نساء متعلمات مصريات ومولّدات ، ترسل إليها البنات وهن صغيرات ليتعلمن فيها التطريز والطبخ وأنواع المعارف المنزلية ؛ وكانت هذه المدارس منظمة وبالأجر ، كما كانت تُقدم للمعلمة هدية عند زواج التلميذة . وكان بالخرطوم أيضاً بعض نساء قارئات للقرآن يعلّمن بنات علية القوم القرآن والدين والخط فى بيوتهن(٣) .

---

(١) الشيخ محمود القبانى : ذكريات الطفولة فى السودان ص ٣٠ ، ٣٢ من ج ٣ من كتاب الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد .

(٢) أحمد كاتب الشونة وآخرون : تاريخ ملوك سنار ص ٢٩ ، ٣١ .

(٣) الشيخ محمود القبانى : ذكريات الطفولة فى السودان ص ٣٢ من ج ٣ من كتاب الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد .

منتخبات

من آثار رفاعة عن السودان

---

١ ــ سفر رفاعة إلى السودان ، ونظمه قصيدة تشير إلى أحوال تلك البلاد وعوائدها :

٢ ــ استعداد أهالى السودان للمعارف والكمالات ، ووجود التعاون عندهم على طلب العلم .

٣ ــ رحلة محمد علىّ إلى السودان .

٤ ــ كشف منابع النيل .

٥ ــ ورود قوافل أفريقية إلى مصر للتجارة .

مطلب : سفرى للسودان ونظمى قصيدة تشير إلى أحوال تلك البلاد وعوائدها

« وفى سنة سبع وستين ومائتين وألف كنت (قد) سافرت إلى السودان بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم ، فلبثت نحو الأربع سنين بلا طائل ، وتوفى نصف من بمعيتى من الخوجات المصريين ، فنظمت هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا[1] مصر ، رجاء لشلى من أوحال تلك الأحوال ، فلم يتيسر إرسالها ، ثم أسعد (أسعد) الحال بتبديل مرة الماضى بالحال الذى هو حال ، وذلك عقب تخميسى لقصيدة نبوية برعية متوسلا فيه بشفاعة خير البرية ، وها هى القصيدة الأولى :

« ألا فادع الذى ترجو ونادى	يجبك وإن تكن فى أى نادى
فمن غرس الرجا فى قلب حرة	أصاب جنى النجا غب الحصاد
ومن حسن الخلائق سله صنعا	جميــــلا فهو أوفى بالوداد
وحدث عن وفا خل وفى	بمرسل حبه فى القلب بادى
ورب أخ تلاهى عنك يوماً	فرب وداده أبداً ودادى[2]
بنو الآداب إخوان جميعاً	وأخدان بمختلف البــــلاد
خلائف عنصر كل تغــذى	بأثداء العــلا دون اقتصاد[3]

---

(١) الكتخدا هو الوكيل عن الباشا .

(٢) يتحدث رفاعة فى هذا البيت والأبيات السابقة له عن حسن باشا كتخدا مصر .

(٣) يتحدث رفاعة فى هذا البيت والبيت السابق له عن حب الأدب الذى جمع بينه وبين حسن باشا .

وآداب الفتى تعليه يوما ... إلى الأنجاد من بعد الوهاد
وآدابى تسامى بى الدرارى ... على شعثى وتبلغنى مرادى
وما لى لا أتيه بها دلالا ... وقد دلت على نهج الرشاد
إلى سبل الفخار تقود حزمى ... وفى ميدانه عزم انقيادى
عصامى طريف المجد سعياً ... عظامى شريف بالتلاد
سوى نسب العلوم لى انتساب ... إلى خير الحواضر والبوادى
حسينى السلالة قاسمى ... بطهطا معشرى وبها مهادى[١]
لسان العرب ينسب لى نجاراً ... ويدنينى إلى قس الأيادى
وحسبى أننى أبرزت كتباً ... تبيد كتائباً يوم الطرادى
فمنها منبع العرفان يجرى ... وكم طرس تحبر بالمدادى
على عدد التواتر معرباتى ... تفى بفنون سلم أو جهاد
وماطبرون يشهد وهو عدل ... ومنتسكوا يقر بلا تمادى
ومغترفو قراح فرات درسى ... قد اقترحوا سقاية كل صادى
ولاح لسان باريس كشمس ... بقاهرة المعز على عمادى[٢]
ومحيى مصر أحيا كان قدرى ... وكافأنى على قدر اجتهادى
سأشكر فضله ما دمت حيا ... وما شكرى لدى تلك الأيادى
رعى الحنان عهد زمان مصر ... وأمطر ربعها صوب العهاد[٣]

---

(١) يشير رفاعة فى هذا البيت إلى أصله الشريف الذى يرجع به إلى الإمام الحسين بن السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، كما يشير فى الأبيات السابقة له إلى طول باعه فى الأدب والعلم .

(٢) يشير رفاعة فى هذا البيت والأبيات السابقة له إلى ما أدى للبلاد من خير ، فعدد معرباته ، وكأنه يتساءل أى ذنب اقترف حتى يقابل بنكران أعماله الجيدة ويرمى به فى السودان .

(٣) يتذكر رفاعة فى هذا البيت والبيتين السابقين له ما كان عليه حاله على عهد محمد على ، ويذكر هذا العهد بكل خير .

رحلت بصفقة المغبون عنها ... وفضلى فى سواها فى المزاد
وما السودان قط مقام مثلى ... ولا سلماى فيه ولا سعادى
بها ريح السموم يشم منه ... زفير لظى فلا يطفيه وادى
عواصفها صباحاً أو مساء ... دواماً فى اضطراب واطراد
ونصف القوم أكثره وحوش ... وبعض القوم أشبه بالجماد
فلا تعجب إذا طبخوا خايطاً ... بمخ العظم مع صافى الرماد(١)
ولطخ الدهن فى بدن وشعر ... كدهن الإبل من جرب القراد(٢)
ويضرب بالسياط الزوج حتى ... يقال أخو بنات فى الجلاد(٣)
ويرتق ما بزوجته زماناً ... ويصعب فتق هـذا الانسداد(٤)

---

(١) يذكر رفاعة فى هذا البيت (الويكاب) ، وهو نوع من المرقة يصنع من الماء والرماد ، أى رماد سيقان الذرة بعد حرقها .

(٢) يتحدث رفاعة فى هذا البيت من عادة (الدلكة) وهى مسح الأهالى البدن والشعر بالدهن عند التزين ، ويشبههم فى ذلك بالإبل المريضة بالجرب عند دهنها بالدواء لتبل من مرضها .

(٣) يحكى رفاعة فى هذا البيت عادة تعرف (بالبطان) كانت تجرى أكثر ما تجرى بين شباب الدناقلة ، وقد اندثرت فى الوقت الحاضر . وفحواها أنه كثيراً ما يقع شجار بين شابين يتنافسان على حب فتاة ، وعلى أيهما أحق بلقب (أخو البنات) . فإذا حدث ذلك يكون الحد بينهما نوع من المبارزة يعرف (بالبطان) . وبعد أن يعين كل منهما شاهده يؤتى بعنقريب (سرير) ، ويقف كل منهما عارى الصدر عند أحد طرفيه وقد أمسك بسوط من جلد فرس البحر ، ثم يتبادلان الضرب حتى يتفجر الدم منهما وتتناثر شظايا رقيقة من جلدهما فى الهواء ، ويكون لقب (أخو البنات) للغالب الذى يتماسك ولا يسقط على الأرض حتى آخر الجولة . وكانت الجماعات من المواطنين تجتمع لمراقبة ومشاهدة المبارزة دون التدخل فيها :

نعوم شقير : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٦

(٤) يحكى رفاعة فى هذا البيت عادة (الخفاض) فى السودان ، والتى تنسب خطأ إلى الفراعنة فتعرف أحياناً (بالخفاض الفرعونى) على أساس أن المصريين القدماء هم أول من مارسوها . وتقوم هذه العادة على إجراء عملية جراحية بواسطة امرأة متخصصة يتم فيها إزالة الجزء الخارجى لفرج البنت . ثم يضم الساقان بعد ذلك ويربطان متجاورين بقوة بعد وضع =

وإكراه الفتاة على بغــاء مع النهى ارتضوه باتحاد
نتيجته المولد وهو غال به الرغبات دوماً باحتشاد(١)

= غابة وسط الجرح تسمح بفتحة ضيقة ، وهكذا يستمر الحال حتى يندمل الجرح . فإذا تزوجت البنت وحملت يشق مكان العملية عند الولادة ، ثم تخاط مرة ثانية بعدها مباشرة ، وتبقى فى السرير حوالى أربعين يوماً لا تبرحه ، وهكذا عند كل ولادة . والمقصود من هذه العملية فى السودان الشمالى (العربى) هو زيادة اللذة الجنسية عند الجماع ، أما فى السودان الجنوبى (المتزنج) فأغلب الظن أن المقصود منها هو المحافظة على عذرية البنات . وهذا الخفاض فى الغالب له أهميته عند تبادل أو بيع الرقيق .

انظر — حكومة السودان : مذكرة عن الخفاض فى السودان الإنجليزى المصرى .
نعوم شقير : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٦ .
التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ٢٠٢ .

& Sudan govenment; Female Circumcision in the Anglo-Egyptian Sudan.

Pallme. L. ; Travels in Kordofan p. p. 84-86

(١) ربما يقصد رفاعة فى هذا البيت والبيت السابق له عادة جاء ذكرها فى بعض كتب الرحالة زوار السودان ونسبوها لبعض قبائل غرب السودان . وتقول هذه العادة بأن البنت لا يسمح لها بالتزوج حتى تهدى طفلا إلى خالها يساعده فى عمله بعد أن يشب ويكبر ، وأنها هى التى تختار الرجل الذى تنجب منه هذا الطفل بملء حريتها ، وأن هناك اصطلاح شائع يصف هذه العادة ، فيقولون : « إن البنت أعانت خالها » ، كما يعرف الطفل من هؤلاء الأطفال بـ (عوين خاله) ، أى (معين خاله) .

انظر — التونسى : نفس المصدر ص ١٩٦ — ١٩٧
نعوم شقير : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٨ .
إبراهيم فوزى باشا : السودان بين يدى غردون وكتشنر جـ ١ ص ١٠٣ — ١٠٤
الدكتور محمد عوض محمد : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

& MacMichael, H. A. . A History of the Arabs in the Sudan, I. pp. 223-24-

هذا وينكر الدكتور محمد عوض محمد هذه العادة معتمداً فى ذلك على سؤال الكثيرين من السودانيين عن صحتها :

انظر : هامش ١ ص ٢٠٤ بنفس المصدر .

لهم شغف بتعليم الجوارى ... على شبق مجاذبة السفاد

وشرح الحال منه يضيق صدرى ... ولا يحصيه طرسى أو مدادى

وضبط القول فالأخيار نزر ... وشر الناس منتشر كالجراد

ولولا البيض من عرب لكانوا ... سواداً فى سواد فى سواد

وحسبى فتكها بنصيف صحبى ... كأن وظيفتى لبس الحداد(1)

وقد فارقت أطفالاً صغاراً ... بطهطا دون عودى واعتيادى

أفكر فيهم سراً وجهراً ... ولا سمرى يطيب ولا رقادى

وعادت بهجتى بالنأى عنهم ... بلوعة مهجة ذات اتقاد

أريد وصالهم والدهر يأبى ... مواصلتى ويطمع فى عنادى

وطالت مدة التغريب عنهم ... ولا غنم لدى سوى الكساد(2)

وما خلت العزيز يريد ذلى ... ولا يصغى لأخصام لداد

لديه سعوا بألسنة حداد ... فكيف صغى لألسنة حداد

مهازيل الفضائل خادعونى ... وهل فى حربهم يكبو جوادى

وزخرف قولهم إذ موهوه ... على تزييفه نادى المنادى

فهل من صيرفى المعنى بصير ... صحيح الانتقاء والانتقاد

قياس مدارسى قالوا : عقيم ... بمصر ، فما النتيجة فى بعادى(3)

وكان البحر منهج سفن عزمى ... فكدت الآن أعرف فى الثماد

ثلاث سنين بالخرطوم مرت ... بدون مدارس طبق المراد

وكيف مدارس الخرطوم ترجى ... هناك ودونها خرط القتاد

---

(1) يشير رفاعة فى البيت إلى وفاة بعض هيئة التدريس فى السودان بسبب مساوىء الجو هناك ، وعلى رأسهم محمد بيومى أفندى زميله فى مصر وباريس والخرطوم .

(2) يبدى رفاعة فى هذا البيت والأبيات السابقة له شوقه لأهله وأولاده .

(3) يشير رفاعة فى هذا البيت والأبيات السابقة له إلى سعى بعض الحاسدين له بالوقيعة بينه وبين العزيز ، وهو الوالى ، وهم من قصدهم رفاعة عند قوله : إنه أبعد إلى السودان « بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر » . راجع : مناهج الألباب ص ٢٦٥ .

نعم تُرجى المصانع وهى أحرى ... لتأييد المقاصـــد بالمبادى[١]

علوم الشرع قائمة لديهم ... لمرغوب المعاش أو المعاد

خدمت بموطنى زمناً طويلا ... ولى وصف الوفاء والاعتماد

فكنت بمنحة الإكرام أولى ... بقـــدر للتعيش مستفاد

وغاية مطلبى عودى لأهلى ... ولو من دون راحـلة وزاد

وصبرى ضاع منذ اشتد خطبى ... وهون الخطب عند الاشتداد

وكم حسنا دعوت لحسن حالى ... وكم نادى فؤادى يا فؤادى[٢]

وأرجو صدر مصر لشرح صدرى ... وجهد الطول فى طول النجاد

وكم بشرت أن عزيز مصر ... تفوه بالفكاك ولم يفاد

وحاشا أن أقول مقال غيرى ... وذلك ضد سرى واعتقادى

لقـد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادى

وفى دار العزازة لى عيـاذ ... يقينى نشب أظفار العوادى[٣]

أمـير كبار أرباب المعالى ... فتى فى شرعة العرفان هادى

عروف ألمعى لا يبـارى ... بمضمار العلى طلق الجيـاد

بوافر فضـله الركبان سارت ... وغنى باسمـه حاد وشاد

وقالوا : فى معارفه فريد ... فقلت : فى الرياسة ذو انفراد

وفى الأحكام قالوا : لا يضاهى ... فقلت : وذو تحر واجتهاد

وقالوا : فى الذكاء ذكا ، فقلنا : ... وثاقب ذهنه وارى الزناد

وقالوا : وافق الحسن المثنى ... فقلت : وكم حدا بالوصف حاد

وبحر حجاه يبـدو فيه در ... لغواص العلوم بلا نفاد

---

(١) يشير رفاعة فى هذا البيت والبيتين السابقين له إلى الصعوبات التى حالت دون افتتاح المدرسة حتى وقت نظمه القصيدة .

(٢) يقصد رفاعة فى « وكم حسنا ... » حسن باشا كتخدا مصر .

(٣) فى هذا البيت والأبيات التسعة التالية له يستغيث رفاعة بحسن باشا كتخدا مصر ليرجع إلى مصر ، ويمدحه ويعدد فضائله .

فيا حسن الفعال أغث أسيراً ... بسجن الزنج يحكى ذا القياد[1]
عليـــه دوائر الأسواء دارت ... وطالت وفق أهواء الأعادى
وقد فوضت للمولى أمورى ... وذا عين الإصابة والسداد
عسى المولى يقول امضوا بعبدى ... فيقضى لى بتقريب ابتعادى
وما نظم القريض برأس مالى ... ولا سندى أراه ولا سنادى
ووافر بحره إن جاد يوماً ... فممدوحى له وصف الجواد
وليس لبكر فكرى من صداق ... سوى تاطيف عودى فى بلادى
فما أسمى ذراها من بيوت ... رزان فى حماستها شـــداد
ومسك ختامها صلوات ربى ... على طه المشــفع فى المعاد
وآل والصـــحابة كل وقت ... مواصلة إلى يوم التناد »[2].

وأما تخميس القصيدة البرعية التى عبق مسك ختامه أرج الفرج فهو هذا . . . . . (*) .

الحقيقة حول ماجاء فى القصيدة الأولى :

إن كل ما رمى به رفاعة السودان وأهله من قبح — كما جاء فى قصيدته التى نظمها برسم حسن باشا كتخدا مصر — لا يعكس ، فى الواقع ، حقيقة مشاعره تجاههما . وكل ما فى الأمر أن رفاعة ، والشعور بالإبتعاد (والنفى) مستبدٌ به ، لم يكن يرى فى السودان إلا الناحية المظلمة الأمر الذى يتضح فيما صوّر عن السودان وأهله . والدليل على ذلك هذا البون الشاسع بين ما دوّن عنهما وهو فى الخرطوم وبين ما سجل بعد الرجوع إلى مصر كما ظهر فى كتبه . وإنا لنلمس فى هذه الكتب مراجعة لنفسه وكأنه يحاسبها

---

(١) المقصود بـ « سجن الزنج » السودان .
(٢) مناهج الألباب ص ٢٦٥ — ٢٦٩ .
(*) ثم يسجل بعد ذلك القصيدة الثانية : ص ٢٦٩ — ٢٧٩ .

متسائلا أى ذنب اقترفت حتى تُقابل بنكران أعماله المجيدة ويُرمى به فى السودان ، فنجده يقول فى مقدمة كتابه مواقع الأفلاك(١) : « قد تقلدت [بعناية الحكومة المصرية الفائقة على سائر الأمصار ، فى عصر المدة المحمدية العلوية السامى على سائر الأعصار ، بوظيفة تربية التلاميذ ، مدة مديدة وسنين عديدة ، نظارة وتعليما وتعديلا وتقويماً وترتيباً وتنظيما . وتخرج من نظارات تعليمى من المتفننين رجال لهم فى مضمار السبق وميدان المعارف وسيع المجال ، وفى صناعة النثر والنظم أبهى بديهة وأبهى روية وأزهى ارتجال ، وصنوف حماة صفوف لا يبارون فى نضال ولا سجال ، عربت لتعليمهم من الفرنساوية المؤلفات الجمة ، وصححت لهم مترجمات الكتب المهمة من كل كتاب عظيم المنافع ، وتوفق حسن تمثيلها فى مطبعة الحكومة وطبعها . . » ؟

كما نجد فيما سجله رفاعة عن السودان وأهله بعد الرجوع إلى مصر نكوصاً عن سابق رأيه فيهما ؛ إذ يقرر بعد أن زالت عنه الغمــة بالرجوع إلى الوطن « قبول أهلها (أهل البلاد) للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم فإن أكثرهم [قبائل عربية . . . . ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم(٢) » . فإذا كان عصر الخديو إسماعيل يقرر رفاعة « إمكان إيصال التقدمات العصرية فى أطراف تلك البلاد التى لم تخلُ قراها فى ذلك الوقت من بعض التقدم ، فإن

---

(١) ص ٣ — ٤ .

ولم ينس رفاعة أيضاً وهو فى الخرطوم أن يشير إلى ما أدى للبلاد من خير ، فكان قوله :

وحسبى أننى أبرزت كتباً	تبيد كتائبا يوم الطرادى
فنها منبع العرفان يجرى	وكم طرس تحبر بالمدادى
على عدد التواتر معربات	تفى بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل	ومنتسكوا يقر بلا تمادى
ومنترفو قراح فرات درسى	قد اقترحوا سقاية كل صادى
ولاح لسان باريس كشمس	بقاهرة المعز على عمادى :

مناهج الألباب : ص ٢٦٦ .

(٢) مواقع الأفلاك : ص ٢٦٢ ة

جميع أهلها ما عدا بعض سكان الجبال لسانهم عربى فصيح ، وفيهم كمال الاستعداد وذكاء الفطنة »(١) .

والخلاصة ، إن رفاعة لا يريد أن يترك الحديث عن السودانيين واستعدادهم للتقدم دون أن يجمله فى أنه «متى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامة ، ودخلت أهاليها بحسن الإدارة فى دائرة الاستقامة ، صارت هى وديار مصر فى العمارة كالتوأمين وفى إيناع الإثمار صنوين ، حتى ينشد لسان حالها :

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجـد جميعا فى الحب ضم النطاق

فى جبين الزمان منك ومنى غرة كوكبية الائتلاق »(٢).

---

(١) مناهج الألباب : ص ٢٦٣ .
راجع : منتخبات من آثار رفاعة عن السودان : المنتخب الثانى .
ص ١٥٠ .

(٢) مناهج الألباب : ص ٢٨٠ .

مطلب : استعداد أهالى السودان للمعارف والكمالات ووجود التعاون عندهم على طلب العلم

« . . . مع قبول أهلها للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم ؛ فإن أكثرهم بائل عربية لاسيما الجعليين والشاقية[1] وغيرهم ، فإن اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية شغل رغبة واجتهاد . ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم ، حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد الأجنبية المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بحسب الاستطاعة ، فكل إنسان من الأهالى يخص الواحد أو الإثنين ، فيقيمون بشئونهم مدة التعلم والتعليم .

« وقد رأيت فى طريقى ببلاد الشاقية بمديرية دُنْقُلَه حرم سَنْجَق[2]

---

(١) الجعليون اسم يطلق على مجموعة من القبائل بالسودان ترجعها الروايات من ناحية الجد إلى العباس عم النبى عليه الصلاة والسلام ، وتضم هذه المجموعة الكثرة العظمى من العرب العدنانيين فى السودان . وقد تركزت هذه المجموعه على نهر النيل ما بين مدينة الخرطوم وبلاد النوبة ، ثم انتشرت من هذا المركز العظيم فى شعب وفروع فى جميع الاتجاهات . ومن بين هذه المجموعة توجد قبيلة بعينها — وهى التى قصدها رفاعة — تعرف بنفس الاسم (الجعليون) وهى أهم أقسام المجموعة ، وتمتد مواطنها على ضفتى النيل من خانق سبلوكة شمال الخرطوم جنوباً إلى نهر عطبرة شمالا ، كما أن أفراداً منها منتشرون فى جميع أنحاء السودان .

أما الشاقية فهم الشايقية : وهم قبيلة من المجموعة الجعلية أيضاً ، وتمتد أوطانهم جنوبى بلاد النوبة بين الشلال الرابع وإقليم الدبة .

(١) السنجق ، هو حاكم المنطقة أو الأقليم .

يدعى الملك الأزيرق تسمى السيدة أمونة ، تقرأ القرآن الشريف ، ومؤسسة مكتبين : أحدهما للغلمان والثانى للبنات كل منها (منهما) لقراءة القرآن وحفظ المتون ، تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله وتشغيله ، ولا ترضى أن يشوبه شىء من مال زوجها ، وبجانب المكتبين خلوات لمن يختلى من العباد والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد لأداء فريضة الحج الشريف ، ومنزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام ، وأمثال ذلك كثير هناك فى ظل الحكومة المصرية .

« ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد علىّ أنه فى عودته من البلاد السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان إلى مصر ، وأدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادىء العلوم ، ثم نقلهم إلى مكتب الزراعة ، ثم إلى مدرسة الألسن ، وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية ، لينشروها فى بلادهم ، وقد شاهدت بعضهم مستخدماً بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب . ويغلب على الظن أنه بواسطة تنظيمات سعادة شاهين باشا الأخيرة المؤسسة على حب تقديم الجمعية المدنية ، وهمة سعادة جعفر باشا(1) صاحب الأنظار التمدنية تمكن إيصال التقدمات العصرية بعناية الحكومة المصرية فى أطراف وأكناف تلك البلاد، التى هى الآن لم تخلُ قراها عن نوع التقدم فى الحضارة مع مساعدة الوارد والمتردد إليها فى هذه الأيام

---

(١) فى عهد حكمدارية جعفر باشا صادق (مايو ١٨٦٥ – ديسمبر ١٨٦٥) ، ثار الجنود الجهادية (أى حملة البنادق والأسلحة النارية) السود فى كسلا ثورة كبيرة تم القضاء عليها بعد جهد كبير ، وبعد أن وصلت الخديو اسماعيل التقارير المستفيضة عن الفتنة انتدب شاهين باشا وزير الحربية للسفر إلى السودان وعين جعفر باشا مظهر حكمداراً (ديسمبر ١٨٦٥ – سبتمبر ١٨٧١) ، فتعاون الإثنان فى العمل على استتباب الأحوال فى البلاد ، وظل هذا الحكمدار حاكماً رشيداً مدة ست سنوات تمت فيها فى البلاد تطورات إدارية وعمرانية ، وشجعت الحركة الفكرية والأدبية ، كما بدأ التوسع جنوباً فى بحر الغزال وخط الاستواء .

لقصــد الزيارة أو التجارة ، فإنها أقرب للتمدن من أقاليم أمريقه بكثير ، وجميع أهلها ما عدا بعض الجبال لسانهم عربى فصيح ؛ حيث أن جلهم من نسل العرب المنتجعة القبائل قديماً ، يحفظون أحسابهم وأنسابهم ، وفيهم كمال الاستعداد وذكاء الفطنة ، وإنما يحتاجون فى حصول المطاوب إلى اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكام أرباب صداقة وعفاف وعدل وإنصاف ، لا تحملهم المطامع الدنيوية على محض الإلتفات إلى الأمور الدنية ، بل توجد القابلية أيضاً فى الأهالى المتأصلين ..... »(*).

(*) مناهج الألباب ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

مطلب

تصميم المرحوم محمد علي على السفر إلى بلاد السودان

« . . . فباستكشاف معادن هذا النهر (النيل الأزرق) اطمأنت قلوب أهل العُرْضى[1] وفرحوا به فرحاً شديداً ، حتى نهض العساكر على الانقضاض بهذا النهر اعتماداً على حكاية أهل الجهة ، وجمعوا ما عثروا عليه من الحجر ، ثم عادوا إلى مدينة الخرطوم التي خرجوا منها من نحو ستة أشهر ، فلم يجدوا الحكمدار فيها حيث كان قد توجّه لقتال الحبشة المغيرين على الأطراف ، فأخذوا في تحليل ما تحصلوا عليه ، فوجدوا العينات مختلفة الربح : وذلك أن موسيو بورياني[2] عمل التجربة التنظيفية بطريقة التحليل بالزئبق ، فكانت النتيجة في إحدى التجريبات بالنسبة إلى إقليم كاميل[3] لم يحتو قنطار الرمل إلا على ثلاث حبات من الذهب ، فالرجل (أما الرجل) الذي معه اثنان من المساعدين لنقل الماء والتراب إذا كان ينظف كل يوم عشرة قناطير من الرمل إلى اثنى عشر فلا يجمع إلا سبعة

(١) أهل العرضى يقصد بهم الجند ، والعرضى هو المعسكر أو الثكنة ، وأصلها (urdi) وهي تركية .

(٢) مسيو بورياني (Boreani) مهندس إيطالي كان يعمل في خدمة الحكومة المصرية في التنقيب عن المعادن :

Hill, R.; A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan. p.p. 83 - 84.

(٣) انظر هامش (١) في الصفحة التالية .

قروش ميرى من الذهب بالنسبة إلى رمال إقليم فاشنغار[١] . . . . . . ، فكتب بهذه التجربة خطاباً وأرسله مع العينة إلى الحكمدار خورشد باشا[٢] ، فأرسل الحكمدار المذكور ذلك بصحبة موسيو بوريانى إلى المعية السنية ، وكان ذلك فى سنة أربع وخمسين ومائتين وألف .

« وأما تجربة موسيو روسيجير[٣] فكانت نتيجتها بخلاف ذلك ، فإن الأحجار المعدنية الذهبية يتحصل منها اثنان فى المائة ، يعنى أن صافى المائة درهم مثلاً درهمان . وأما الذهب الصفائحى الذى يوجد فى المعادن كالعروق فإنه يتحصل فى كل ألف قنطار من مائة وستين إلى مائة وثمانين صفيحة من الذهب ، يعنى من ثمانمائة وخمسة وثلاثين درهماً إلى ألف ومائة وستة وثلاثين درهماً من الذهب وقيمة الدرهم ثمانية وثلاثون قرشاً . وتحقق عند هـــذا المعدنجى أن الشخص الواحد ينظف كل يوم ثلثمائة وخمسين أقة من الرمل ، فيتحصل منها ذهب قيمته من ثمانين قرشاً إلى مائة قرش ، فكان هذا المعدل يزيد على معدل موسيو بوريانى عشرين مرة . فلما اطلع المرحوم محمد علىّ على المعدلين ووجد الفرق بينهما جسيماً لم يتمالك نفســـه من الغضب على مسيو بوريانى ؛ لأنه كان يميل بالطبع لما فيه الأرجحية فى الربح ، فبهذا مال إلى تقرير موسيو روسيجير ، ولأجل الوقوف على الحقيقة صمم على السفر إلى بلاد السودان لتصير التجربة أمامه ، مع تقدمه فى السن وشيخوخته

---

(١) كاميل وفاشنغار إقليمان يقعان فى أعالى النيل الأزرق ، وكان الذهب يستخرج فيهما من رمال ضفافه .

(٢) خورشد (خورشيد) باشا كان حكمداراً للسودان بين يناير ١٨٢٦ ، أبريل ١٨٣٨ .

(٣) مسيو روسيجير (**Russegger, Josef von, Ritter**) مهندس نمساوى كان يعمل فى خدمة الحكومة المصرية فى التنقيب عن المعادن : **Hill, R.; op. cit. p.322.**

وطبيعة إقليم الأقطار السودانية وتعب الأسفار الشاقة بها ؛ . . . » (*)

(*) مناهج الألباب ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

قام محمد على برحلة تفتيشية إلى السودان (١٥ اكتوبر ١٨٣٨ — ١٥ مارس ١٨٣٩) وقد أرجع رفاعة — كما جاء فى النص — السبب الرئيسى لهذه الرحلة إلى حاجة محمد على إلى الوقوف بنفسه على مدى الصحة حول وفرة معدن الذهب فى السودان ، وإمكان استخراجه بتكاليف اقتصادية .

وما ذهب إليه رفاعة يتفق مع الحقيقة ، فقد كان من أهم ما شغل بال محمـد على مذ أصبح والياً على مصر هو عنايته بالتنقيب عن المعادن (١) . وكان من أول واجبات إسماعيل ابن محمد على قائد حملة السودان عند وصوله إلى سنار العاصمة أن يقوم بالبحث عن الذهب فى إقليم سنار وأعالى النيل الأزرق وفى كل مكان ، ويتفق هذا مع ما قرره كايو — الخبير فى التعدين والذى كان يصحب الحملة — من أن تفكير إسماعيل وهمه فى أثناء الحملة كانا موجهين إلى البحث عن الذهب (ب) ، كما أن محمد على بنفسه أكد هـذا الغرض بعينه من الرحلة (حـ) :

(١) Bonola Bey, Dr. F. : L'Egypte et la Geographie p.p. 8-11.

(ب) Cailliaud, F. : Voyage à Meroé au Fleuve Blanc, au dela de Fazogl dans le midi du Royaume de Sennar, à Syouah et dans Cinq autres Oasis, Vol. II . p.p. 126-27 & p.p. 340-41.

(حـ) راجع : دفتر رقم ٢٣٤ صادر شورى المعاونة — الوثيقة التركية رقم ٣٠ بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٥٤ .

مطلب

ارسالية المرحوم محمد على لاستكشاف منبع النيل

« . . . . وقد ذكرنا عناية جنتكمان بعلاج مصب النيل ، وقد اعتنى أيضاً رحمه الله بالبحث عن استكشاف منبعه اقتداءً بمشاهير قدماء ملوك مصر وملوك العجم واسكندر والبطالسة وقياصرة الروم وعقلاء خلفاء مصر ونبلاء سلاطينها وملوكها بعد الفتح ، فأرسل فى ظرف أربع سنوات ثلاث إرساليات متوالية . وكانت فى سنة ١٢٥٧[1] الإرسالية الثانية تحت رياسة سليم بك قبودان ودرنو بك مهندس ، وهى أنفع الارساليات ، فسارت هذه الإرسالية من الخرطوم فى النيل المسمى هناك بالبحر الأبيض

---

(١) ١٢٥٧ هـ (١٨٤٠ – ١٨٤١ م) . وقد غادرت الارسالية الثانية مدينة الخرطوم إلى الجنوب فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠ وعادت إليها فى ١٨ مايوسنة ١٨٤١ .

انظر الارسالية (الرحلة) الأولى فى :

سليم قبودان (البكباشى) : الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض الصادر بها أمر ساكن الجنان محمد على والى مصر بقيادة ربان الفرقاطة البكباشى سليم قبودان – نقلها إلى العربية محمد مسعود ، القاهرة ١٩٢٢ م .

وانظر الارسالية (الرحلة) الثانية فى :

Werne, F.; Expedition to discover the Sources of the White Nile in the Yeara 184o, 1841, 2vols. london 1849.

وانظر رحلات سليم قبودان الثلاث فى :

الدكتور نسيم مقار : البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل القاهرة ١٩٥٨ م .

مسافة خمسمائة فرسخ حتى وصلت إلى جزيرة جانكير بمشرع كندكرو[١] ، وعندها رمال وصخور متكاثرة كالشلالات تمنع السير عن النيل منعاً كلياً ، فاقتصر القبودان المذكور على أخذ الاستعلامات اللازمة مما يعلم من أهالى تلك الجهة . فاستبان من ذلك أن منبع النيل بقرب دائرة الاستواء ، على ثلاثين مرحلة فوق جزيرة جانكير المذكورة ، فتكون المسافة بين جانكير ومنبع النيل نحو مائة وخمسين فرسخا تقريباً . وبهذا الاستكشاف سهل لسـياحى الانكليز تمام استكشافهم بيمن إرسالية جنتكمان الذى كان ولم يزل طرفه للبحث عن إحراز المكارم يقظان . . . »[*] .

---

(١) المشرع هو المحطة البحرية ، وكندكرو هى غندكرو الحالية . وقد وصلت الارسالية الثانية إلى خط عرض ٢٤َ ٤° شمالا .

(*) مناهج الألباب ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .

وقد أشار رفاعة أيضاً فى مقدمة كتابه : « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل – بولاق سنة ١٢٨٥ هـ » إلى كشف منابع النيل ، فقد بدأ هذا الكتاب بمقدمة فى جغرافية مصر بين فيها أهمية النيل بالنسبة لمصر وأثره فى تاريخها وحضارتها ، وختم هذه المقدمة بالحديث عن الكشوف الجغرافية التى تمت فى عهده ، فتحدث عن البعوث التى أرسلها محمد على الكشف عن منابع النيل ، واهتم على وجه الخصوص بالبعثة الثانية التى قام بها سليم قبودان ودرنو بك وسارت فى النيل الأبيض مسافة خمسمائة فرسخ جنوب الخرطوم ، وقارن بينها وبين النتائج التى توصلت إليها وبين أقوال بطليموس الجغرافى عن منابع النيل .

مطلب

ورود قوافل افريقية الى مصر للتجارة

« . . . . وأما تنبيه صاحب الملحوظات على وفود قوافل داخل إفريقية إلى الديار المصرية واستعاضتها بضائعها بمشغولات مصر وأوربا وخلاصة صنائعها فهو فى محله ، وقد جرى مفعول هذه الملحوظة على أصول مصونة ملحوظة : فتجار دارفور وبُرنو(1) ونحوهما تحضر فى ميعادها ، وتأتى بسائر بضائعها على حسب معتادها . ومن جهة سِنّار والبحر الأبيض(2) تحضر التجار بسن الفيل والصموغ وريش النعام وغيرها . وإنما أهل أقاليم تُنْبكتو ، وهى بلاد التكْرور(3) ، لا يحضرون إلا لقضاء الحج ، وكذلك الفَلاّتَه السودانية(4) يمرون بمصر لسفر الحجاز ؛ وما ذاك إلا لبعد المسافة لا لقلة أمن الطريق أو وجود مخافة . فالتجارات فى داخل إفريقية الحقيقية تتيسر بعد تخطيط المسالك الطرقية . وهى لا تتيسر إلا بحركة عجيبة من

---

(1) برنو قبيلة مسلمة كبيرة هاجرت إلى نيجيريا فى أوائل التاريخ الهجرى ثم اختلطت بقبائل الزنج واقتبست من لغاتها لغة خاصة ، وبلادهم تقع غربى دارفور .

(2) المقصود بجهة سنار والبحر الأبيض السودان ، والبحر الأبيض هنا يقصد به النيل الأبيض .

(3) التكرور شعب مسلم يسكن على نهر السنغال فى غربى إفريقية وفى بعض جهات النيجر وجهات كثيرة غربى السودان .

(4) الفلاته عرب منهم البادية ومنهم الحضر ولكن الحضر أكثر ، وهم يقيمون فى أنحاء كثيرة بالسودان ، وقد ساكنوا الزنج فى دارفور وكونوا من لغاتهم لغة خاصة ، ومنهم من يسكن نيجيريا وساكنوا الزنج أيضاً فيها .

الحكومة المصرية ، واستكشافات جليلة عصرية ، وانتجاعات من قبائل إسلامية متمدنة ، وتوقيفات لأهالى تلك البلاد على وسائل التمدن المستحسنة وإن شئت فقل إن حسن تمامها إنما يكون بنوع من الفتوحات والتشبث بعماريتها ، وإدخال ما يلزم لها من الإصلاحات ، حتى يصير جنوب إفريقية[1] كالأقاليم الجنوبية بقسم أمريقه ، فإن كان من السابق فى علم الله تعالى أن يكون لمصرفيه قوة التنجيز (فما ذلك على الله بعزيز) . . »[*].

---

(١) المقصود بجنوب إفريقية السودان .

(*) مناهج الألباب ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

هذا ، وكانت تصل إلى مصر — غير ما ذكر فى النص — قافلة من مرزوق عاصمة فزان (فى جنوب ليبيا) .

الملاحق

الملحق الأول :

قرار إنشاء مدرسة الخرطوم .

الملحق الثانى :

مدينة الخرطوم كما وصفها أحد كبار الموظفين المصريين فى السودان من تلاميذ رفاعة ؛

الملحق الثالث :

وصف لزيارة الرحالة الأمريكى بايارد تيلور لمنزل آل رفاعة بطهطا .

الملحق الرابع :

وصف لمدينة الخرطوم سنة ١٨٥٣ فى أثناء وجود رفاعة بها، كما جاء فى إحدى مكاتبات أحد المبعوثين الكاثوليك إلى رئاسته بإيطاليا .

الملحق الخامس :

قصة الإرسالية الكاثوليكية ومدرستها بالسودان ٥

الملحق الأول

قرار إنشاء مدرسة الخرطوم

عزيزى صاحب العزة مدير المدارس :

اطلعت على قرار المجلس الخصوصى هذا الصادر فى ١٥ من رجب سنة ١٢٦٦(١) ووافقت على العمل بموجبه ، ووقعته حتى تبادروا إلى تنفيـــذه بكل اهتمام :

الخاتم

عباس حلمى

قرار المجلس الخصوصى فى ١٥ من رجب سنة ١٢٦٦

إن الأقاليم السودانية ديار واسعة ، ولم تُنشأ بها مع عظم مساحتها مدرسة من أجل أبناء سكانها الأصليين من مشايخ وأهلين ، ومن أجل أولاد وأحفاد الأتراك الذين استوطنوا تلك الديار منذ سنين ؛ ليتعلموا صـــنعتىْ القراءة والكتابة ويدرسوا العلوم والمعارف . ولقد تناقش المجلس الخصوصى فى أثناء انعقاده أخيراً فى إنشاء مدرسة بتلك الديار وتنظيمها ، لإنقاذ أبناء أهلها ومستوطنيها من حضيض الجهـــل ، وإعدادهم لاكتساب المعارف بمقتضى مراحم جناب الخديو الأعظم ومكارمه السنية التى شملت جميع الرعية والبرية ، فاستحسن المجلس إنشاءها .

ولما كانت تلك المدرسة ستُنشأ بالخرطوم ، وكان المطلوب أن تسير على نسق المدارس المصرية ولا سيما المبتديان والتجهيزية ونظامهما المرغوب ، وأن يُقيد بها نحو مائتين وخمسين طفلا من بلاد دُنْقله والخرطوم وسِنّار

(١) ١٥ من رجب سنة ١٢٦٦ هـ يقابل ٢٧ من مايو سنة ١٨٥٠ م .

وتاكه (كسلا) وملحقاتها — من أولاد مشايخها وأهلها ومن أبناء الأتراك الذين استوطنوا تلك الديار وأحفادهم ، وأن يُولَّى عليها ناظر ملم بأصول المدارس لينسقها كما ينبغى وينظمها تنظيما حسناً — لما كان كل ذلك كذلك فقد استحسن المجلس أن يعهد بنظارتها إلى أمير الآلاى رفاعة بك الموظف بديوان المدارس ، وأن يرسله إلى هناك ، وأن يُرجع إليـــه فى اصطفاء المدرسين الذين تحتاج إليهم المدرسة .

وقد سبق أن كُتب إلى حضرة صاحب العزة مدير المدارس فى ٦ من رجب سنة ١٢٦٦(١) ، وتحت رقم ١٦٠ أن يبلغ رفاعة بك المشار إليه خبر مهمته ، وأن يعدّ هذا بياناً يذكر فيه المدرسين الذين يصطفيهم للسفر معه ، ويبين فيه مصروفات المدرسة شهرياً وسنوياً من المأكولات والملبوسات على النسق المتبع فى المدارس المصرية وطبقاً للأصول المرعية فى المبتديان والتجهيزية . وقد أنبأنا مدير المدارس فى كتاب بتاريخ ١٣ من رجب وتحت رقم ٧٢ بأن المدرسين قد تم انتخابهم من بين رجال أكفاء ، وأنه وضع بياناً عن سائر موظفى المدرسة ومرتباتهم وعن تكاليف الملبوسات والفرش والجرايات طبقاً لأسعار القاهرة ، وقد وافق الجناب العالى عليه عندما رُفع إليه . وقد جاء فى البيان أن على المدرســين أن يدرسوا للطلبة ويقوموا بمهمة الضباط ، وأن باقى الموظفين والخدم من كاتب ووكيل خرج وغسَّال وسقاء وطاه ينبغى اختيارهم واستخدامهم من بين أهالى السودان ، وأنه قد خُصص لكل طالب ســتة قروش شهرياً ؛ إذ أن الطلبة يُعتبرون مبتدئين فى مبدأ دخولهم المدرســة ، ويستطيعون أن ينتقلوا إلى المدرسة التجهيزية بعد ثلاث أو أربع سنوات ؛

وقد أرسل إلينا هذا البيان فقرأناه ، وتبين لنا أن جميع نفقات المدرسة المذكورة السنوية تبلغ ثلاثمائة وثمانية وثلاثين ألفاً وثلاثة وثلاثين قرشاً

---

(١) ٦ من رجب ١٢٦٦ هـ يقابل ١٨ من مايو سنة ١٨٥٠ م .

وتسعاً وثلاثين بارة ، واستحسنا العمل بمقتضى هذا البيان ، وتقرر استصدار أمر إلى رفاعة بك المشار إليه بألا يضيع وقتاً عند إبلاغه بالقرار ، فينطلق إلى محل مهمته مستصحباً الأحد عشر مدرساً والطبيب الذين اصطفاهم من ههنا والمذكورة أسماؤهم فى البيان المذكور ، ويخابر عند بلوغه الخرطوم حضرة الباشا حكمدار السودان ليبادر إلى تنسيق المدرسة المذكورة وتنظيمها وفق ما يأمله الجناب العالى ، ولا ينصرف عن المدرسين وتذكيرهم بمهمتهم ويجعل الطلبة موضع اهتمامه فيحملهم على السعى والاجتهاد ليكتسبوا المعارف ويتقدموا .

وقد قرر المجلس استصدار الأمر إلى حضرة صاحب العزة الباشا مدير المدارس بأن يقطع علاقة رفاعة بك وكذلك المدرسين والطبيب من حيث توجد قيودهم ، وأن يرســـل إلى حضرة صاحب السعادة الباشا حكمدار السودان كشفاً بمرتباتهم وبدل تعييناتهم ليقيّدوا فى محل استخدامهم بالسودان طبقاً للأصول المرعية ؛ كما قرر المجلس استصدار الأمر إلى الباشا الحكمدار بأن يخصص بالخرطوم عند وصول رفاعة بك محلا مناسباً للمدرسة ، وأن يقيد هذا البك وكذلك المدرسين والطبيب بموجب الكشف الذى سيرسل إليه من ديوان المدارس ، وأن يتخذ سائر الخدم الوارد ذكرهم فى البيان من أهالى البلاد ، وأن يقبل بالمدرسة — وطبقاً لمشورة البك المشار إليه — كل طالب يأتى إليها من البلاد التى سلف ذكرها من أولاد المشايخ والأهالى ومن أبناء الترك الذين استوطنوا تلك الديار منذ القدم حتى يبلغ عدد الطلبة مائتين وخمسين طالباً كما قدمنا ، وأن يقيد مأكولاتهم وملبوساتهم ومرتباتهم وغير ذلك من حاجاتهم ابتداءً من تاريخ قدومهم كما جاء فى البيان ، وأن يصرفها لهم أصولا عند حلول مواعيد صرفها ؛ وقد قرر المجلس إرسال صورة من ذلك البيان إلى كلٍّ من المشار إليهم ، وإلى الحسابات والمالية والجهادية وغيرها من الجهات المختصة بهذا الشأن ؟

٢١ من رجب سنة ١٢٦٦ ؛

الإمضاءات والأختـــام

أحمـــد	إبراهيم شفيق	عبدى شكرى	أرتين شكرى
مأمور الضبطية	كاتب الديوان الخديوى	مدير المدارس	مدير الخارجية

السيد أبو بكر راتب

مدير المالية

أحمد المنكلى	حسن فؤاد	محمد أمين	سليم
رئيس مجلس عسكرية	كتخدا الخديو	مدير الجهادية	رئيس مجلس الأحكام

{ محفظة رقم ٤ أوامر لديوان المدارس – ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤ أصلى / ١٧ مسلسل
من الخديو عباس حلمى باشا بتاريخ ١٧ من رجب ١٢٦٦ . }

الملحق الثانى

مدينة الخرطوم كما وصفها أحد كبار الموظفين المصريين

بالسودان من تلاميذ رفاعة

أثر من آثار قلم الأديب إبراهيم بك مرزوق[1] رئيس القلم الأفرنجى بالحكمدارية :

اقتعدنا غوارب الأقتاد ، وجبنا الصخور والأوتاد ، مسئدين فى المهامه والقفار ، مستندين إلى أعواد الأكوار ، مصطحبين ما يفت فى عضد الاصطبار ، ويقلب قلب القرار على النار ، من شعث الطريق ، وحزن نث الضيق ، إلى أن وصلنا بالمقدر المحتوم ، إلى بندر الخرطوم ، فكانت المحفوفة

---

(١) كان إبراهيم بك مرزوق أديباً كبيراً ، وهو من تلاميذ رفاعة بك فى مدرسة الألسن . ومن مؤلفاته « رحلة السلامة ونحلة الكرامة » ، وقد وصف فى هذا المؤلف حالة السودان فى أيامه . وقد عنى بجمع شعره فى كتاب الأديب محمد بك سعيد بن الحكدار جعفر باشا مظهر ، ووسمه « بالدر البهى المنسق بديوان الأديب إبراهيم بك مرزوق » وطبعه سنة ١٢٩٧ هـ بالقاهرة . والوصف هنا لمدينة الخرطوم فى السنة الأولى لحكدارية جعفر باشا مظهر (ديسمبر ١٨٦٥ — سبتمبر ١٨٧١) ، وهى نفس المدينة وما كانت عليه أيام رفاعة قبل أن يجرى الحكدار فيها إصلاحات جذرية . وتبدو القسوة واضحة فى هذا الوصف الذى لم يتضمن غير مساوىء الهواء والحشرات والأمطار والجند الذين كانوا قد قاموا فى ذلك الوقت بثورة فى مدينة كسلا بشرق السودان ، وقد قام إبراهيم مرزوق بمظاهرة الحكدار على تأديب هؤلاء الثوار . ويبدو من هذا الوصف أن إبراهيم بك لم يكن سعيداً بالإقامة فى المدينة وأن الشعور بالنفى كان يحتويه ، شأنه فى ذلك شأن أستاذه ، فكال المدنية أسوأ الكيل وقد مات ودفن بها فى سنة ١٨٦٦ .

بالقذى ، المحروسة بالأذى ، لأنها القرية الظالم أهلها ، المســتحيل مثلها ، بسبب هوائها الوخيم ، ووبائها المســتديم ، فكنت تراها أقذر من بيت الدجاج ، وأهون من تبالة على الحجاج ، لما بها من الحشرات ، المجهولة الأسماء والصفات ، التى ليس منها خلاص ، ولا للجروح قصاص ، لتواردها من الست جهات ، إلى شن الغارات ، ويكاد المقيم بها وقت القيظ ، يتميز من الغيظ ، ويستغيث من السعير ، فى أوقات الزمهرير ، فهى بين رياح متخالفة ، وزعازع متوالفة ، وظلل من الضباب ، وكأنه يوم الحساب .

بلاد لا سمــين من رعاها ولا حسن بأهيلها اليســار
إذا لبس الدروع ليوم بؤس فأحسن ما لبست لها الفرار

فلو مكثت غير بعيد ، وأجلبت بخيل المعتصم والوليد ، واستعديت بذى القرنين ، واستنجدت من وراء الصدفين ، ونشرت أبا مسلم الخراسانى ، وخرجت فى رايات الســفيانى ، وبعثت بالرياح السوافى ، ورميت بثالثة الأثافى ، ورصدت الكواكب ، وميزت بين المغلوب والغالب ، وزحفت فى جنود صفين ، وقاتلت إلى يوم الدين — لما كنت ظفرت على حشراتها بالفتوح ، ولو عمرت عمر نوح ؛ فإنا كنا فى مصادمة الأمطار ، ومزاحمــة الأقدار ، لولا أن منّ الله بحضور سعادة جعفر مظهر باشا الحكمدار ، فإنه قد شمر عن ساعد الاجتهاد ، وبثّ الطلائع والرواد ، واستدرك ما فات ، فى دفع الآفات ، وبذل جهده فى تنقية هذا البلد ، ووالد وما ولد ، وأكبَّ بهمته عليها ، ونظر بعين العناية إليها ، ومأمول أنها بهمته إن لم تكن كإرم ذات العماد ، فلا بد أن تعدّ فى متمدن البــلاد ، وينال أهلها الرفاهية ، ويتمتعون بثمرات الأمنية ، ويزاحمون فى التمدن باقى الدول ، ويقاومون بالعمارية أكبر الملل ، فى ظل الساحة الداورية ، وحسن توجيهاتها السنية . أعان الله تعالى الحكمدار على ذلك ، ووفقه لما هنالك ٥

وأما أهلها الآن ، فهم على حال من غبر من الزمان ، زاعمين أنهم أرداف أقيال ، وأبناء أقيال ، فترى منهم الملحف للحاجات ، من طريق العادات ، ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإلا أعرضوا ، وعليك اعترضوا ، ويمشى الناهى ، وهو لاهى .

وكم نرى كلما أمعنت فى رجـــل
مثل النعامة لا طــير ولا جمــل

يمر كالثور والأطواد تنشــــده
إنــا محبـــوك فاســلم أيهــا الطلل

وأدخل من هذا القبيل ، فى العريض والطويل ، إلى ما لا يزهو فى العين ، ولا ينفق بدرهمين .

إن تزره تجده أخلق من شيب الغـــوانى ومن تعــنى الطلول

ومتى أضربت عن هذه الخبائث وعززتها بثالث ، رجعت إلى العساكر السودانية ، والسلالة الشيطانية ، فالقول بيان ، وليس الخــبر كالعيان : ضروب من الأنعام ، لا يميزون بين الحلال والحرام ، قد كان استدرجهم الإمهال ، وتوسع لهم المجال ، حتى طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، فتوطنوا جحور المظالم ، وارتضوا أخلاف المآثم ، حتى صاروا بمديرية التاكه (كسله) أظلم من جند السفينة ، وأجرأ من اليزيد على حرم المدينة ، ولكن سطوة القوة العسكرية بنفوذ الصحة الخديوية ، قد أوقعت بهم الحين ، فى أقل من طرفة عين ، حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ، كلا قد خلت منهم البلاد ، واستراحت العباد ، والذين اعتصموا بالتوبة والتزموا بالأوبة ، صار جلاؤهم عن مدرج

أوكارهم ، وأخرجوا من ديارهم ، وبُدد شمـــلهم وفارقوا أماكنهم ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ، وتلك عاقبة المفسدين ، والحمد لله رب العالمين .

(حسن السندوبى : أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجرى إلى اليوم ص ١٩٣ — ١٩٥ .)

الملحق الثالث

وصف الرحالة الأمريكى بايارد تيلور

لمنزل آل رفاعة بطهطا

هذا ما سجله هذا الرحالة فى كتاب رحلته عن زيارته لمدينة طهطا فى أثناء رحلة الرجوع من السودان إلى مصر ، لتوصيل خطاب رفاعة الذى كان قد سلمه إياه فى الخرطوم إلى أهل بيته :

« . . . . وأخيراً اهتديت إلى منزل البك (يقصد رفاعة بك) بمعاونة رجلين من القبط . وسلمت الخطاب إلى أحد العبيد . وذهب أحـد الخدم إلى المكتب لاستدعاء ابن البك ، وبينما ذلك كانت القهوة والشُبُكات (أعواد التدخين) تقدم إلىّ . وسمعت القبطيين بفناء المنزل وهما يتسامران بالحديث عن رحلتى من السودان إلى مصر ، وكانا يظنان أننى لا أعرف لسانهما . قال جرجس لزميله : لا شك أن الأجنبى يحوز مالا كثيراً ، فرد عليه زميله : إنك على حق ، فإن الرحلة إلى السودان لا بد أن تكون قد كلفته ثلاثمائة كيس على الأقل (هكذا) .

« وبعد وقت قصير وصل ابن البك فى صحبة أستاذه ، وكان ابن ثمان أو تسع سنوات ضعيفاً واهناً . ولما كان حديثنا لا جاذبية فيه ولا فائدة فقد أرسلت تابعى لإحضار الركائب ، وقفلنا راجعين إلى المركب »[1].

---

(1) Taylor , B. : A Journey to Central Africa , P. 516.

وقد جاء نص الفقرة الأخيرة فى كتاب الرحلة هكذا :

« In a short time the Bey's son came accompanied by the schoolmaster. He was a weak, languid boy of eight or nine years old , and our interview was not very interesting. I therefore sent the slave to bring donkeys , and we rode back to the boat ».

وقد قام الأستاذ فتحي رفاعة بذكر قصة زيارة هـذا الرحالة لمنزل آل رفاعة بطهطا على نحو آخر ، وكان ذلك عند حديثه عن « تربية رفاعة لأولاده » كما جاء في كتاب مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى(١) .

وفيما يلي هذه الترجمة :

« وبعد تحريات قليلة وصلت إلى منزل رفاعة باشا ولكن لم يؤذن لى بالدخول ، لأن السيدات المصريات لا يُسمح لهن باستقبال الأجانب ، وكان بالمنزل قاعة واسعة مفتوح بابها على الطريق فأجلست فيها ريثما تذهب جارية سوداء لتأتى بابن الباشا من المكتب ، وجلس معى فى تلك القاعة خادمى الأمين ، وقد تسامع أهل البلد فى أثناء وجودى فى الانتظار أنى أتٍ من الخرطوم وأننى أعرف الباشا ، فأتوا من كل حدب ليسألونى عنه ، وكانوا جميعاً فى نهاية الأدب والود واغتبطوا لما طمأنتهم عليـــه كما لو كانوا جميعاً من أفراد أسرته .

« وبعد ربع ساعة عادت الجارية يتبعها ابن الباشا ومعلمه من المكتب ، وكان هذا المعلم قد صرف جميع الطلبة وأغلق المكتب وجاء ليسمع أخبار الباشا .

« كان عمر هذا الصبى أحد عشر عاماً ، ولكنه كان أطول قامة ممن هم مثل عمره ، وقد ابتسم حين رآنى ابتسامة عذبة ، ولولا إلمامى بعض الإلمام بعادات هذا الشعب لمددت يدى إليه وأجلسته على ركبتى وطوقت خصره بذراعى ، وتحدثت إليه بغير تكلفة ، ولكنى رأيت أن أصـــبر حتى أرى كيف يكون مسلكه نحوى .

« حيَّانى فى وقار وجلال كما لو كان رجلا له سمت وأبهة ، ثم تناول يدى فأدناها من قلبه ثم من شفتيه ثم من جبينه ، ثم اتخذ مجلســـه فوق ديوان عالٍ بجانبى . وأعاد تحيتى وهو فى مجلسه وصفق ثلاثاً ، فجاءته

(١) ص ١٩٢ — ١٩٣.

جارية أمرها أن تعدّ لى بعض القهوة . ثم قال : كيف صحتك يا صاحب السعادة ؟ ، فأجبته : بخير والحمد لله . قال : هل عندكم أوامر لى ؟ ، مُروا تطاعوا .

« فقلت أشكر لطفك ، وليس لدىّ إلا تحيات أحملها إليك من أبيك الباشا وخطاب منه وعدته بأن أسلمه إليك يداً بيد .

« ثم دفعت إليه بالكتاب ، فوضعه على قلبه ثم قبله وفض غلافه ، وأسرّ الصبى بكلمات إلى معلمه وبدا على وجههما الاغتباط . وجىء بشراب لا شىء فيه سوى عصـير الليمون المحلى وماء الورد ، ثم جىء بالرمان ، وسألنى الصبى أن أشرفه بالبقاء لديه سائر اليوم . ولولا أنى كنت أرى وجهه وهو يحادثنى لظننت أنى أحادث رجلا ، فقد كان هذا الصغير من الجلال وقوة الأسر كعظماء الرجال ، وكان الناس حولنا كأنهم معتادون مشاهـدة هذا النضوح السابق لأوانه ، وكنت مضطراً إلى أن أتخذ حياله من الاحتشام والكلفة كما لو كان هو حاكم المدينة ، على أن ذلك لم ينقص من محبتى إياه ، ووددت لو عرفت موضوع حديثه مع معلمه ولست أشك فى أنهما كانا يحاولان تدبيراً لإعادة الباشا من منفاه .

« وبعد ساعتين أو ثلاث عدت إلى السفينة . ونهض الصبى عند نهوضى ومشى بجانبى إلى آخر حدود المدينة والناس على أثرنا فى نظام ، وعنـد وصولى إلى السفينة حيانى مودعاً مثل تحيته إياى مسلما وقال : أسأل الله أن يجعل رحلتكم سعيدة يا صاحب السعادة .

« وقد بدا لى أن منظر استقباله ووداعه والوقت الذى أمضيته وإياه ، بدا لى كل ذلك — كأنه قطعة من ألف ليلة ؛ فإنى إن أنسَ شيئاً فلن أنسى تلك الذكرى الجميلة البارزة » .

الملحق الرابع

وصف لمدينة الخرطوم سنة ١٨٥٣ فى أثناء وجود رفاعة بها .
كما جاء فى رسالة للأب ج . بلترام (G. Beltrame)
أحـد المبعوثين الكاثوليك بالخرطوم ، إلى رئاسته بإيطاليا .

تشرف سراى الحكمدار على ضفة النيل الأزرق ، وبناؤها من الآجرّ ، وتطل على النيل من ناحية الشمال وعلى ميدان كبير من الناحية المقابلة ، وهى تبدو فخمة وسط مبانى المدينة التى من اللبن والتى يرتفع بعضها إلى طابقين .

وقد بدأ الأوربيون فى المدنية فى بناء مساكن لهم مستعينين بالحجارة المنقولة من تلال أم درمان ، وهى قرية على الضفة اليسرى للنيل تبعد عن الخرطوم بحوالى كيلو مترين . وكانت البعثة الكاثوليكية هى السبّاقة فى هذا السبيل ، ومؤسسها هو الأب ريلو (Fr. Ryllo) البولندى الجنسية ، ومن رجالها أيضاً الدكتور اجنازيو بوبلخر (Ignazio Knoblecher) الذى خلفه فى رئاسة البعثة بعد وفاته ، وكذلك زميلى وصديقى الأب انجلوفنكو (Fr. Angelo Vinco) الإيطالى الجنسـية وأول من ساح فى النيل حتى جنوبى غُندُكرو حيث كانت وفاته .

وقد وُضع حجر الأساس لدار البعثة الكبيرة ذات التخطيط البديع فى شهر يناير من سنة ١٨٥٠ عندما كنت فى الخرطوم . وكان البناءون فى أول الأمر من رجال البعثة الإيطاليين الذين يرجع أصلهم إلى إقليم تسكانيا ، ثم خلفهم زملاء من إقليم التيرول ، ورئيسهم هو الأب جويسب جشنر (Guiseppe Goschtner) الذى تعلم فى إيطاليا وأشرف بنجاح على عمليات البناء التى تمت فى يوليو سنة ١٨٥٢ . وقد روعى فى هندسة البناء زيادة الاهتمام بالعناية بصحة المبعوثين وخاصة فى أثناء الفصل المطير . وكان بعض الأهالى يأتون يومياً ليشاهدوا كيف يرتفع البناء يوماً بعد يوم ، فتعلم أكثر من خمسين منهم فن البناء .

ومدينة الخرطوم تشبه لدرجة كبيرة المدن الأخرى فى مصر والسودان ، وهى فى ذلك مثل أسيوط وقنا ودُنْقله وبَرْبر . وبها مسجد كبير ، وسوق ليس بالكبير ولا بالصغير يتوسط المدينة ويفترش ثلاثة أو أربعة شوارع متربة ذات سقوف من القش وفروع الشجر ، تمتد على جانبيها محلات صغيرة متجاورة وبلا نهاية ، وأمام هذه المحلات تقوم مصاطب من الطين الجاف بارتفاع قدمين . ويأخذ أصحاب هذه المحلات مجالسهم فى داخلها على الطريقة الشرقية ، والبضائع من حولهم من أمام ومن خلف فى أكوام وصفوف . وفى المحل الواحد من تلك المحلات نجد كل شىء : الملابس والطرابيش والجوارب والأدوية والدهانات والدخان والشُبُكات (أعواد التدخين) ، وغير ذلك كثير . وبين الحين والحين يقطع الطريق من ينادى على بضاعته من طعام أو شراب . وجو السوق كله يعبق بالروائح العطرة .

وعندما تُقبل على أحد هذه المحلات لا يعيرك صاحب المحل أدنى التفات فهو سابح فى ملكوت ، يمرر حبات مسبحته بين أصابعه بينما يتثاءب بين الحين والآخر ، وفقط عندما تمدّ يدك إلى سلعة تراه يتزحزح قليلا من مكانه ويشير إليك بالجلوس إلى جواره ، ثم يقدم إليك الشُبُك (عود التدخين) يتلوه بفنجان من القهوة ، ويطول جلوسك ربع ساعة أو نصفها وهو صامت تماماً ؛ إذ يجب أن تكون أنت البادىء بالحديث ، السائل عن قيمة هذه السلعة أو تلك ، فإذا ما تم ذلك حدد للسلعة ثمناً مرتفعاً ، فإذا عرضت عليه ثمناً أقل فإنه لا يزيد عن أن يهز رأسه برفضه ، فإذا رفعت الثمن قليلا سلمك السلعة وأخذ ثمنها دون أدنى كلمة مقرناً إياك السلام ، وهكذا يتم شراء سلعة من أحد محلات السوق . هذا ويستمر العمل فى السوق طول النهار ، فإذا حلّ المساء أغلقت محلاته ؛ إذ العمل على ضوء الشموع غير معروف فيه .

ولن أطيل الحديث عن سكان الخرطوم الذين ينقسمون على الأقل إلى

سبع جماعات متميزة ومختلفة العادات لدرجة كبيرة : ومع أن المدينة صغيرة إلا أن الوقت لم يحن بعد لانصهار تلك العادات جميعاً فى بوتقة واحـــدة ؛ ولذلك فإن كل جماعة لم تزل تحتفظ بطابع جنسها الأصلى :

والجماعة الأولى من السكان من الأوربيين ، وعددهم لايتجاوز الأربعين أو الخمسين نفساً ، ومعظمهم تجار يتنقلون بين النيل الأبيض والخرطوم من جهة وبين القاهرة من الجهة الأخرى . وهذا العدد ثابت على الدوام تقريباً ؛ حيث أنه عند وفاة أحد الأوربيين صريع جو المدينة غير الصحى يحل محله قادم جديد من القاهرة أو الاسكندرية .

والجماعة الثانية من الترك ، وعددهم صغير أيضاً ، وهم هنا من موظفى الحكومة أو ممن أبعدهم الوالى عن مصر

والجماعة الثالثة من التجار المسلمين ، وعددهم أكبر من عدد الأوربيين والترك ، وقد جاءوا كلهم من صعيد مصر ، ويمتد نشاطهم التجارى على وجه العموم إلى القاهرة وسواكن وفازوغلى وكُرْدُفان ودارفور .

والجماعة الرابعة من القبط ، وعددهم محدود للغاية ، وهم كشأنهم فى كل جهات الشرق كتبة :

والجماعة الخامسة من الفقهاء مؤدبى الأطفال ، وهم يشتهرون علاوة على ذلك بقدرتهم الفائقة على عمـــل التمائم كما يعملون تجاراً أحياناً . وتقوم الدراســـة فى الخلاوى التى يشرف عليها هؤلاء الفقهاء على أربع فترات فى اليوم : من الساعة الرابعة صباحاً حتى شروق الشمس ، ومن الساعة الثامنة صباحاً حتى التاسعة والنصف ، ومن الواحدة بعد الظهر حتى الثالثة ، وأخيراً من غروب الشمس حتى الثامنة مساء . ويعطى التلميذ أستاذه عشر بارات أسبوعياً ، كما يقدم إليه فى كل سنة هديتين فى العيدين . ومعظم الفقهاء يدّعون القدرة على علاج الأمراض المستعصية ، ووسيلتهم فى ذلك تسجيل

عدة سطور من القرآن على قصاصة من الورق تُربط إلى ذراع المريض أو فى شعره .

والجماعة السادسة من العمال المصريين أصحاب المقاهى والخبازين وصانعى الأحذية والنقاشين وتجار الأسلحة .

والجماعة السابعة هى أكبر الجماعات عدداً . وهى خليط كبير من الدناقلة والجلاّبة[1] ، والمتسبّبين[2] ، والجنود المرافيت من الزنوج[3] . وثلثا هؤلاء الجنود يعملون عند تجار الرقيق والعاج فى حراسة وقيادة الرحلات فى النيل الأبيض ، وأجرهم فى الوقت الحالى أربعون قرشاً فى الشهر .

(Aletter from Fr. Beltrame, G. in 1853)

« راجع هامش ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

---

(١) الجلابة هم الوسطاء التجاريون وتجار الجملة .

(٢) المتسببين هم تجار التجزئة .

(٣) الجنود المرافيت هم الذين تركوا خدمة الجيش .

الملحق الخامس

قصة الإرسالية الكاثوليكية ومدرستها بالسودان :

قصة الإرسالية الكاثوليكية فى السودان

تبدأ قصة الإرسالية الكاثوليكية فى السودان فى سبتمبر سنة ١٧٤٣ حين انتقل الإيطالى لويجى منتورى (Fr-Luigi Montouri) — عضو الإرسالية بالحبشة — إلى السودان لتأسيس فرع للأرسالية بمدينة الخرطوم وإلحاق مدرسة صغيرة بها ، ولكن ظروف العمل اضطرته إلى الرجوع إلى مقر بعثته بالحبشة سنة ١٨٤٥ ، وكان ذلك بعد أن تمكن من إقامة بناء للارسالية متواضع يضم خمس حجرات صغيرة غير الكنيسة .

وفى أبريل سنة ١٨٤٦ أصـــدر البابا جريجورى السادس عشر قراراً بتأسيس (النيابة الرسولية لإفريقية الوسطى) . وكانت أهدافها التبشـــير الدينى ، ورفع مستوى الأهالى صحياً وعلمياً ، ومساعدة المســيحيين الذين يعملون بالتجارة فى السودان ، والقضاء على تجارة الرقيق . أما الحدود التى وضعت لنشاطها فكانت واسعة ، تمتد بين : مصر والجزائر شمالا ، والحبشة والبحر الأحمر شرقاً ، وجبال القمر جنوباً ، والصحراء الكبرى وغينيا غرباً .

وفى فبراير سنة ١٨٤٨ وصل رجال الإرسالية إلى الخرطوم التى وقع عليها الاختيار لتكون قاعدة لنشاطهم ؛ حيث أنها أصلح مكان لتأمين مواصلاتهم إلى إفريقية الوسطى ، وتعلم لغات القبائل القاطنة بها والتعرف على عاداتها . ولقد كان للثورات التى شبت فى أوربا سنة ١٨٤٨ أثرها على الإرسالية ،

إذ كانت نذيراً بتأخير المساعدات المالية التى تأتى إليها من أوربا ، مما حمل رجالها على اتخاذ الحيطة للمستقبل فحولوا الأرض الواقعة شمال البقعة المزمع إقامة مبانى الإرسالية الضخمة عليها إلى بستان يمدهم بحاجتهم إلى الخضر والفاكهة .

وبدأ البناء سنة ١٨٥٠ وانتهى — حسب ما كان مقرراً له فى ذلك الوقت — فى يولو سنة ١٨٥٢ . وكان هذا البناء حينئذ هو البناء الحجرى الوحيد فى الخرطوم ، وكان يضم مدرسة من غرفة واحدة وكنيسة صغيرة . وفى سنة ١٨٥٣ بدئ فى إقامة البناء على أساس ضخم جديد ، وقد برز فى هذا العمل البنّاء الإيطالى بترو أجاتى (Petro Agati) الذى جمع مواد البناء فى كميات ضخمة أربت على حمولة ألف مركب من أم درمان وبقايا مدينة سوبا وضفاف النيل الأزرق . وفى سنة ١٨٥٨ كانت تكاليف البناء قد زادت على نصف مليون فرنك ، وكان البناء يضم فى ذلك الوقت — غير المطبخ وحجرة الطعام—سبع حجرات مفرطة الاتساع للإقامة والنوم والتدريس والتخزين ، كما كان يضم كنيسة . ومعظم المساعدات التى هيأت لرجال البعثة إقامة هـذه العمارة كانت تقدمها إليهم (الجمعية النمسوية لترقية الإرساليات الكاثوليكية فى وسط إفريقية) ومركزها فى ڤينا .

وكان رجال الإرسالية من النمسويين والإيطاليين والألمان البافاريين ، وكان من بينهم رجال الدين والعلمانيون والعمال — وبخاصة عمال البناء الإيطاليون . وكان يأتى إلى السودان معين مستمر منهم لتعويض خسائرهم فى الأرواح ، ولذلك بقى عددهم ثابتاً تقريباً مذ نزلوا بالبلاد وطوال إقامتهم بها . وقد بلغت هذه الخسائر بين سنتى ١٨٤٨ ، ١٨٦١ ثلاثة وعشرين رجلا ، ومات فى محطة غندكرو وحدها على بحر الجبل فى سنة واحدة ثمانية من الرجال من مجموع رجالها البالغ عشرة .

ولما كان التبشير الديني هو أهم هدف من أهداف الإرسالية فإن هـــذا يفسر ما حققته الإرسالية بعد وصولها إلى الخرطوم بسنوات قليلة ، ألا وهو إقامة محطتين لها على بحر الجبل فى سنتى ١٨٥١ ، ١٨٥٥ . وفى سنة ١٨٦١ رجعت الإرسالية إلى بلادها تحت ضغط الخسائر فى الأرواح ، ولكنها عادت إلى الخرطوم فى سنة ١٨٧٢ . وفى السنة التالية افتتحت محطة لها فى بربر ، تلتها بمحطتين فى جبال النوبا (فى جنوب شرقى كردفان) بعد ذلك بسنتين . واستمر ازدهار الإرسالية حتى سنة ١٨٧٨ حين خسرت سبعة عشر فرداً من رجالها دفعة واحدة بسبب انتشار حمى الملاريا فى الخرطوم ، فأغلقت محطة بربر مضطرة . وحتى سنة ١٨٨٠ لم يكن بناء دار الإرسالية بالخرطوم قد تم طبقاً للتجديدات التى لا تفتأ تدخل عليه ، بل كان أساس الكنيسة ولها تصميم جديد — لم يزل يوضع فى تلك السنة ، وإن كان قد استجد على البناء مدخل فخم يستطيل بممر يتوسطه بهو من الأعمدة .

الإرسالية الكاثوليكية والكشوف الجغرافية فى السودان :

وقد استعانت الإرسالية لتحقيق أهدافها بوسائل كثيرة ، منها العمل على كشف النقاب عن طبيعة الجهات التى تعمل فيها . وكان لكشوفها — وبخاصة فى منطقة أعالى النيل الأبيض — دوى كبير فى الأوساط العلمية فى أوربا ، رددته كثير من المجلات العلمية الألمانية والنمسوية والإيطالية المهتمة بالكشوف الجغرافية ، وتزخر مكتبات البعثات الدينية فى إيطاليا والنمسا بكثير من تقارير رجال البعثة المخطوطة والمنشورة فى هذا الميدان .

وعلى رأس رجال الإرسالية الكاثوليكية الذين أدلوا بدلوهم فى ميدان الكشوف الجغرافية الدكتور نوبلخر (Dr. Knoblecher) ، ويرجع إليه الفضل فى تأسيس محطتى البعثة على النيل الأبيض . وقد سجـــل فى تقريره

الذى دوّنه عن رحلته فى أعالى النيل الأبيض (ســـنة ١٨٤٩ — ١٨٥٠) الكثير عن النيل : ومن أعماله أيضاً دراسة لغة قبيلة البارى ونقل كثير من الصلوات والتراتيل إلى لهجتهم .

ومن رجال الإرسالية الذين زاروا أعالى النيل الأبيض ، وسجـــلوا إحساساتهم العلمية بها الآباء : فنكو وبلترام وكوفمان وموررلانج ولانز[١] . وقد اهتموا أكثر ما اهتموا بدراسة لهجتىْ البارى والدينكا ووضع قواعد لهما ، وعمل قاموس للغة الإيطالية واللهجتين .

وقد امتدت جهود رجال الإرسالية فى مجال الكشف إلى غير منطقة أعالى النيل الأبيض ، وكان ذلك فى أثناء قيامهم بالبحث عن أماكن تصلح لإقامة محطات جديدة للتبشير . فقد صعد كل من مَسّايا(Cardinal G. massaia) وبلترام (Fr. G. Beltrame) النيـــل الأزرق فى سنتىْ ١٨٥١ — ١٨٥٢ ، وسنتىْ ١٨٥٤ — ١٨٥٥ على الترتيب حتى منطقة فازوغلى ، ومنها جدّا السير حتى الحدود السودانية الحبشية ، ومذكرة كل منهما عن رحلته غرة مشرقة فى جبـــين الكشف الجغرافى . ويزيد من قيمة هاتين المذكرتين أن الانتقال بين الخرطوم وهذه الحدود كان فى حيز المستحيل فى ذلك الوقت ؛

وقـــد تمكن الأب كرشر (kircher) من دراسة لهجة البشاريين وحاول وضع قواعد لهـــا . وقام الأب كمبونى (Comboni, D.) بين سنتىْ ١٨٧٣ ، ١٨٧٥ بدراسة المنطقة الواقعة بين مدينة الأبيّض ومدينة الدلنج فى جبال النوبا ووضع خريطة لها . وفى سنة ١٨٧٦ صـــعد الأب مارتينى (Fr. martini,G.) النيل الأزرق حتى فازوغلى ، ووقع اختياره على مكان بجوار القَضارِف لتأسيس محطة جديدة للإرســـالية ، وله عن رحلته تقرير مفيد للغاية .

---

(١) Vinco, Beltrame, Kauffmann, morlang, Lanze.

وقد استعانت الحكمدارية فى الخرطوم برجال الإرسالية فى التعرف على طبيعة بعض المناطق التى لم تكن قد مدّت إليها سلطانها حتى السنوات الأخيرة من الحكم المصرى . ومن ذلك أن الحكمدار رءوف باشا (يناير ١٨٨٠ — فبراير ١٨٨٢) كتب فى مايو سنة ١٨٨١ إلى الأب كمبونى رئيس البعثة الكاثوليكية بالخرطوم يطلب منه دراسة منطقة جبال النوبا دراسة شاملة حتى يمكن اتخاذ التدابير اللازمة لنفع سكانها وتأسيس نظام إدارى ناجح والقضاء على تجارة الرقيق فيها .

مجالات أخرى لنشاط الإرسالية :

ولقد حاولت الإرسالية الكاثوليكية إقامة محطة زراعية لها فى منطقة الخرطوم بعد أن لمست الفوائد الكثيرة لمحطة زراعية سبق أن أقامتها فى الأبيّض ، ولكن حكومة القاهرة رفضت أن تمنحهم الأرض اللازمة لذلك بعد أن كشفت ما تبغيه الإرسالية من وراء هذا الأمر — وهو التمكين لنفسها وما يرتبط به من زيادة نشاطها التبشيرى .

وقد لعب رجال الإرسالية دوراً فى محاربة تجارة الرقيق . ومن وسائلهم فى هذه الناحية قيامهم بشراء الأرقاء من الأهالى وتربيتهم تربية دينية إرسالية للاستعانة بهم فى التبشير الدينى بين القبائل التى ينتمى إليها هؤلاء الأرقاء . كما كانوا يشجعون الأرقاء على الهرب من بيوت أسيادهم ، وأنشأت الإرسالية من أجل ذلك ملجأ بدارها لاستقبال الهاربين منهم ، هذا ويدعى الكونت بنازى (Penazzi) الإيطالى الذى زار الخرطوم قبيل قيام الثورة المهدية أن الإرسالية الكاثوليكية نجحت فى تحويل الرأى العام فى المدينة ضد تجارة الرقيق .

وللإرسالية الكاثوليكية أثرها فى ميدان التعمير وتعليم تلاميذها وعدد من الأهالى بعض الصناعات الهامة ؛ فقد كانت تضم دائماً بين رجالها صناعاً مهرة

فى سائر الفنون . وقد كان من آثار بناء دار الإرسالية بالخرطوم بين سنتى ١٨٥٠ ، ١٨٥٢ أن تعلم أكثر من خمسين من الأهالى صناعة البناء . ويدعى الأب إلياس تونيولو (Elias Toniolo) أن معرفة الأهالى بصناعة إقامة قمائن الآجر بالشكل الذى كانت عليه فى القرى المحيطة بمنطقة الخرطوم إنما يرجع الفضل فيه إلى البنّاء الإيطالى الأب بترو أجاتى (Petro Agati) .

وكانت حديقة دار الإرسالية الأولى بين حدائق المدينة بما فيها حديقة سراى الحكمدار . ففيها تختلط المزروعات المدارية بالمزروعات الأوربية ؛ إذ كان الرهبان يأتون بالبذور من خارج البلاد فى كل الفرص الممكنة وينبتونها فى الحديقة ، مما جعلها أقرب ما تكون إلى حقل للتجارب الزراعية . كما كانت الحديقة مسرحاً لدراسة طبيعة الحيوان والطير وعاداتهما ؛ فقد كان يجمع فيها حيوانات وطيور البيئة المحيطة بالخرطوم والبيئات الأخرى البعيدة التى يمكن أن تصل إليها إمكانيات رجال البعثة .

الإرسالية الكاثوليكية ومدرستها بالخرطوم :

وفى مجال التعليم كان للإرسالية الكاثوليكية دورها . ويرجع تاريخ مدرسة الإرسالية فى الخرطوم إلى سنة ١٨٤٣ عندما وصل إلى المدينة من الحبشة الأب لويجى منتورى (Fr. Luiri Monoturi) وافتتح بها مدرسة داخلية صغيرة تلاميذها من الأطفال الزنوج القاطنين حول النيل الأبيض والمشترين من سوق الرقيق ، وقد انضم إلى هذه المدرسة بعض البيض والمولّدين ، ولكن أمرها انتهى بمجرد رجوع الأب منتورى إلى الحبشة سنة ١٨٤٥ . وعند وصول الإرسالية الكاثوليكية إلى مدينة الخرطوم سنة ١٨٤٨ كان من خططها افتتاح مدرسة داخلية تؤازهم فى نشر المسيحية . وفى سنة ١٨٥٠ كان بالمدرسة عشرون تلميذاً ، من بينهم أربعة عشر طفلا من الزنوج كانت تُراعى عاداتهم إلى حد كبير فى تربيتهم ، وزاد العدد إلى أربعين

طفلا سنة ١٨٥٣ ؛ وكانت مواد الدراسة هي : القراءة والكتابة والحساب واللغات العربية والفرنسية والإيطالية والموسيقى والأشغال اليدوية .

وفي سنة ١٨٥٥ افتتح بالمدرسة قسم خارجي لأبناء الأهالي . وفي هذه السنة كتب هنزل (Hansal) نائب قنصل النمسا بالخرطوم بعد أن حضر الامتحان الذي عقد للتلاميذ : « إن الأطفال الزنوج يجيبون باللغة العربية عن أسئلة كثيرة كانت موضوعاتها مجهولة لديهم تماماً ، وهم قادرون على الكتابة باللغتين العربية والإيطالية وعلى حل بعض تمرينات الحساب على السبورة » . أما رئيس الإرسالية فقد أوصى بإرسال التلاميذ المتفوقين في هذا الامتحان إلى أوربا ليستزيدوا من التعليم .

وقد سجلت المدرسة بعد سنة ١٨٥٥ تقدماً وازدهاراً ، فقد أضيفت إلى مواد الدراسة مواد جديدة — منها التربية البدنية والرسم والغناء ، كما ألحق بها سنة ١٨٥٩ قسم لتدريس المواد التجارية لتزويد الحكومة في الخرطوم بالموظفين . وبعد هذه السنة الأخيرة اهتمت المدرسة بالتعليم المهني ، فافتتحت بها أقسام للنجارة والحدادة والحياكة وصناعة الأحذية يشرف عليها خبراء إيطاليون ، وكان مدير دار الصناعة بالخرطوم (الترسانة)، الإيطالي الجنسية ، يدرس علم الميكانيكا للتلاميذ الذين يظهرون مهارة وكفاءة ، وكان هؤلاء التلاميذ يعملون في هذه الدار بعد تخرجهم . كما تمتاز سنوات ما بعد ١٨٥٩ بتوسع المدرسة في قبول التلاميذ — بنين وبنات — في القسم الخارجي ، فإذا كانت سنة ١٨٧٨ كان عدد البنين ثلاثمائة وعدد البنات مائتين .

وقد ظلت المدرسة تعمل — شأنها في ذلك شأن مؤسسات البعثة — حتى رحل رجال الإرسالية إلى القاهرة عند قيام الثورة المهدية ، فتوقفت المدرسة عن العمل كسائر مؤسسات البعثة[1] .

---

(١) اعتمدت في كتابة هذا الموضوع على مؤلفات كثيرة من أهمها مخطوطان للأب =

= إلياس تونيولو (Elias Toniolo) المدرس بمدرسة الإرسالية الكاثوليكية بالخرطوم بحرى (كلية كمبونى) ، وقد تسنى لى مقابلة سيادته بالخرطوم بحرى فى سنة ١٩٥٨ ، وهذان المخطوطان هما :

١ — الرسالة الكاثوليكية لإفريقية الوسطى (١٨٤٦ — ١٨٩٨) .

٢ — الأعمال الجغرافية وغيرها الخاصة بالبحث عن الأجناس البشرية التى قام بها مرسلو الرسالة الكاثوليكية لإفريقية الوسطى (١٨٤٦ — ١٨٩٨) .

كما أطلعنى الأب إلياس على كثير من مراسلات المبعوثين الكاثوليك بالخرطوم إلى رياستهم فى إيطاليا فى القرن التاسع عشر بعد أن ترجمها إلى اللغة الإنجليزية . وأصول هذه المراسلات محفوظة فى دار الإرساليات الكاثوليكية بفيرونا بإيطاليا ، وهى تتناول تاريخ الإرسالية بالسودان ، كما تغطى نواحى عديدة من نواحى الحياة فى البلاد فى العهد المصرى . ومن المراسلات التى اعتمدت عليها فى كتابة هذا الموضوع ما يأتى :

1 — A letter from Fr. Luigi Montouri , in 1843.
2 — « « « Beltrame, G. , in 1853.
3 — « « « Dal Bosco , in 1858.
4 — « « « Rollerie B. , in 1881.
5 — Massaia, Cardinal G. ; " Through the Sudan, 1851 » , in : My 35 Years as a Missionary in Upper Ethiopia.
6 — Fr, Beltrame. G. ; From Sennar to Beni Shangul, 1854-55.
7 — Fr. Martini, G. ; To Gedaref, Gallabat and Fazughli, 1876.

هذا ، وقد تضمنت كل من المراسلات الأربع الأولى وصفاً قيماً لمدينة الخرطوم .

مصادر البحث

١ – الروايات الشفهية

١ – الشيخ عبد الله عبد الرحمن ، مؤلف (العربية فى السودان – الخرطوم ١٩٢٢) وهو من بيت علم وقد زرت سيادته فى أم درمان فى أبريل ١٩٥٧ ، وعلمت منه مكان مدرسة الخرطوم أيام رفاعة .

٢ – الشيخ إبراهيم صدّيق القاضى السابق وناشر (طبقات ودضيف الله : القاهرة ١٩٣٠) ، والشيخان أحمد على الأحيمر شيخ حلة توتى الأسبق وعبد الرحمن جميل الله ، وقد عرفت منهم الكثير عن دور المحس التعليمى والتعميرى فى منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق ، وخلوات العلم فى الخرطوم على العهد المصرى . وتتضح أهمية رواياتهم فى أنهم استقوا معلوماتهم من الشيخ أحمد إبراهيم عمدة توتى الأسبق الذى عاصر عهود : الحكم المصرى والمهدية والحكومة الإنجليزية فى السودان ، وأكبر وأدق راوية فى عهده . وقد قمت بزيارتهم مراراً فى حلة خوجلى فى أبريل ومايو سنة ١٩٥٨ .

٢ – الوثائق

١ – الوثائق المنشورة :

سامى (أمين باشا) : تقويم النيل الجزء الثانى – القاهرة ١٩٢٨

المجلد الأول من الجزء الثالث – القاهرة ١٩٣٦

٢ — الوثائق غير المنشورة :

في دار المحفوظات التاريخية القومية بعابدين بالقاهرة

« محافظ السودان » .

٣ — المخطوطات

١ — في دار الإرساليات الكاثوليكية بفيرونا بإيطاليا :

وتضم مخطوطات هذه الدار كثيراً من مراسلات المبعوثين الكاثوليك بالخرطوم إلى رياستهم في إيطاليا ، وتتناول تاريخ الإرسالية بالسودان ، كما تغطي نواحي عديدة من نواحي الحياة في البلاد على العهد المصري . وقد تمكّنتُ من الاطلاع على بعض هذه المراسلات بعد أن قام الأب إلياس تونيولو (Elias Toniolo) ، المدرس بمدرسة الإرسالية الكاثوليكية بالخرطوم بحرى (كلية كمبوني) بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ؛ كما أن للأب بحثين عن الإرسالية الكاثوليكية بالخرطوم .

راجع هامش ص : ١٨٤ — ١٨٥ .

٢ — في دار الكتب بالقاهرة :

السيد صالح مجدى : حلية الزمن بمناقب خادم الوطن سعادت المرحوم رفاعة بك . (تحت رقم ١٠٢٦ تاريخ)

٤ — المراجع العربية

١ — إبراهيم فوزى باشا :

السودان بين يدىّ غردون وكتشنر الجزء الأول القاهرة ١٣١٩ هـ ؟

٢ — أحمد أحمد بدوى (الدكتور) :

رفاعة الطهطاوى بك القاهرة ١٩٥٠ م ؟

٣ — أحمد أمين :

زعماء الإصلاح فى العصر الحديث القاهرة ١٩٤٨ م ؟

٤ — أحمد حافظ عوض :

فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر القاهرة ١٩٢٥ م ؟

٥ — أحمد عرابى :

مذكرات عرابى الجزء الأول كتاب الهلال — العدد ٢٣ ؟

٦ — أحمد عزت عبد الكريم (الدكتور) :

(ا) التعليم فى عصر محمد على القاهرة ١٩٣٨ م ؟

(ب) تاريخ التعليم فى مصر الجزء الأول القاهرة ١٩٤٥ م ؟

٧ — أحمد كاتب الشونة وآخرون :

تاريخ ملوك سنّار لنشر الدكتور مكّى شبيكة الخرطوم ١٩٤٧ ؟

٨ — إسماعيل باشا سرهنك :

حقائق الأخبار عن دول البحار الجزء الثانى القاهرة ١٣١٤ هـ ؟

٩ — التونسى (محمد بن السيد عمر) :

تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان باريس ١٨٥٠ م ؟

١٠ — الجبرتى (الشيخ عبد الرحمن) :

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار طبعة بولاق ٤ أجزاء القاهرة ١٢٩٧ هـ

١١ — جرجى زيدان :

(ا) مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر الجزء الثانى مصر ١٩٠٣ م ،

(ب) تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع القاهرة ١٩٣٧ م ،

١٢ — حسين فوزى النجار (الدكتور) :

رفاعة الطهطاوى أعلام العرب العدد ٥٣ ،

١٣ — حكومة السودان :

مذكرة عن الخفاض فى السودان الإنجليزى المصرى الخرطوم ١٩٤٥ م ،

١٤ — رشيد رضا (السيد محمد) :

تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وما جرى بمصر
فى عهده الجزء الأول

١٥ — زاهر رياض (الدكتور) :

السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال

(١٨٢١ — ١٩٥٣) القاهرة ١٩٦٦ م ،

١٦ — زيادة (الدكتور محمد مصطفى) :

المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى

(القرن التاسع الهجرى) القاهرة ١٩٤٩ م ،

١٧ — الطيب (الدكتور عبد الله) :

محاضرات فى الاتجاهات الحديثة فى النثر العربى فى السودان

القاهرة ١٩٥٩ م ،

(من مطبوعات : جامعة الدول العربية — معهد
الدراسات العربية العالية) ،

١٨ — سعد ميخائيل :

السودان بين عهـــدين : اتفاقية ١٨٩٩ ومعاهدة

١٩٣٦ المنيا ،

١٩ ـ السندوبى (حسن) :
أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجرى
إلى اليوم القاهرة ١٩١٤ م.

٢٠ ـ شقير (نعوم) :
تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته
الجزء الأول مصر ١٩٠٤ م.

٢١ ـ شكرى (الدكتور محمد فؤاد) :
الحكم المصرى فى السودان (١٨٢٠ ـ ١٨٨٥) القاهرة ١٩٤٧ م.

٢٢ ـ شكرى (الدكتور محمد فؤاد) ، عبد المقصود العنانى ،
سيد محمد خليل :
بناء دولة مصر محمد علىّ (السياسة الداخلية) القاهرة ١٩٤٨ م.

٢٣ ـ الشيّال (الدكتور جمال الدين) :
(ا) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على القاهرة ١٩٥١ م.
(ب) التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر
(رقم ٣ من « المكتبة التاريخية » بإشراف الدكتور
أحمد عزت عبد الكريم) القاهرة ١٩٥٨ م.

٢٤ ـ الطهطاوى (رفاعة بك رافع) :
(ا) مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك بيروت ١٨٦٧ م.
(ب) أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق
بنى إسماعيل القاهرة ١٢٨٥ هـ.
(حـ) المرشد الأمين للبنات والبنين القاهرة ١٨٧٢ م.
(ى) تخليص الإبريز فى تلخيص باريز أو الديوان
النفيس بإيوان باريس القاهرة ١٩٠٥ م.
(هـ) مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية القاهرة ١٩١٢ م.

٢٥ ـ عابدين (الدكتور عبد المجيد) :
تاريخ الثقافة العربية فى السودان من نشأتها إلى
العصر الحديث القاهرة ١٩٥٣ م ؛

٢٦ ـ عبد الرحمن الرافعى (بك) :
تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر
الجزء الثالث القاهرة ١٩٣٠ م ؛

٢٧ ـ عبد العزيز محمد الشناوى (الدكتور) :
عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية أعلام العرب العدد ٦٧ ؛

٢٨ ـ عبد المجيد (الدكتور عبد العزيز أمين) :
التربية فى السودان ، والأسس الاجتماعية والنفسية
التى قامت عليها ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٤٩ م ؛

٢٩ ـ على باشا مبارك :
الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وقراها
الجزء ١٣ القاهرة ١٣٠٥ هـ ؛

٣٠ ـ عمر طوسون (الأمير) :
البعثات العلمية فى عصر محمد علىّ ثم فى عهد
عباس الأول وسعيد الإسكندرية ١٩٣٤ م ؛

٣١ ـ عوض (الدكتور محمد عوض محمد) :
السودان الشمالى ـ سكانه وقبائله القاهرة ١٩٥١ م ؛

٣٢ ـ ڤولتير :
الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر
ترجمة : أحمد عبيد الطهطاوى بولاق ١٢٦١ هـ (١٨٤٥ م) ؛

٣٣ — القبانى (الشيخ محمود) :

(ا) السودان المصرى والإنكليز الإسكندرية ١٨٩٦ م ؛

(ب) « مذكراته عن الحكم المصرى فى السودان »
فى كتاب : السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة
المصرية لعبد الله حسين الجزء الأول
(ص ١٣٩ — ١٥٤) القاهرة

(حـ) « ذكريات الطفولة فى السودان »
فى كتاب : التربية فى السودان للدكتور عبد العزيز
أمين عبد المجيد الجزء الثالث (ص ٢٦—٣٢) القاهرة ١٩٤٩ م ؛

٣٤ — محمد الصادق حسين :

السياسة الأسبوعية السنة الثانية العدد ٦٤ ؛

٣٥ — محمد ضيف الله :

كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان
نشر الشيخ إبراهيم صديق القاهرة ١٩٣٠ م ؛

٣٦ — محمد فريد أبو حديد :

سيرة السيد عمر مكرم القاهرة ١٩٣٧ م ؛

٣٧ — محمد محمود الدش (الدكتور) :

رفاعة الطهطاوى مجلة العربى العدد ٩٣ أغسطس ١٩٦٦ م ؛

٣٨ — مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية رقم ١٩ :

مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى القاهرة ١٩٦٠ م ؛

٣٠ — الوقائع المصرية :

(ا) العدد رقم ٨٢٣ ، بتاريخ ٢٣ شعبان ١٢٩٦

(١١ أغسطس ١٨٧٩) ؛

(ب) العدد رقم ٩٣١ ، بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٩٧

(٢٩ سبتمبر ١٨٨٠) ؛

(حـ) العدد رقم ١١٩٤، بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٩٨

(١٨ أغسطس ١٨٨١) ؛

المراجع الأجنبية

1 — Abbate, Le Dr. O. ; De l' Afrique Centrale, ou Voyage de S. A. Mohamed Said Pacha dans ses Provinces du Soudan. Paris, 1858.

2 — Bonola Bey, Dr. F. ; L' Egypte et la Georaphie. Le Caire, 1889

3 — Cailliaud, F. ; Voyage à Meroé, au Fleuve Blanc, au dela de Fazogl dans le midi du Royaume de Sennar à Syouah et dans Cing autres Oasis, Vol. II. Paris, 1826.

4 — Casati, Major G. ; Ten Year in Equatoria, Vol. I. London & New York, 1891.

5 — Chaillé, Long, Col. G. ; Central Africe : Naked Truths of Naked People. London, 1876.

6 — Didier, Charles ; " Khartoum ", Nouvelles Annales des Voyages, de la Geographie, de l' Histoire et de l' Archeologie, Année 1858, tome Deuxieme, p.p. 56-90.

7 — Hamilton, J. ; Sinai, the Hedjaz, and Soudan. London, 1857.

8 — Hake. A. E. ; The Journals of Maj. - Gen. C. G. Gordon, C.B. , at Khartoum. London, 1898.

9 — Harwood. F. L. ; " The Story of Tajoj " , Sudan Notes and Records, Vol. XXIV. 1941. p.p. 197-99.

10 — Hill, G. B. ; Colonel Gordon in Central Africa, 1874-1879. London, 1881.

11 — Hill, R. ; A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan. Oxford, 1951.

12— Lepsius, Dr. R. ; Letters from Egypt, Ethiopia and Sinai, tr. by J. B. Horner. London, 1853.

13— Macmichael, H. A. ; A History of the Arabs in the Sudan, Vol. I.Cambridge, 1922.

14— Melly, André ; Lettres d' Egypte et de Nubie. Londres, 1852.

15— Melly, G. ; Khartoum and the Blue and white Niles, Vol. II. London, 1851.

16— Pallme, I. ; Travels in Kordofan. London, 1844.

17— Sudan Government ; Female Circumcision in the Anglo-Egyptian Sudan. Khartoum. 1945.

18— Taylor, B. ; A Journey to Central Africa. New York, 1854.

19— Tremaux, P. ; Le Soudan. Paris, 1862

فهـــــرست

صفحة

رفاعة رافع الطهطاوى فى السودان

منتخبات من آثار رفاعة عن السودان

صفحة

الملاحق

رقم الإيداع بدار الكتب ٤١٤٨ لسنة ١٩٧٣

م — الدجوى



